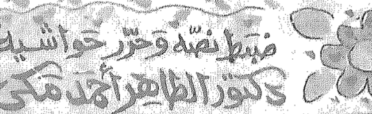
طوق الحمامة في الألفة والألاف

للإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي







سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
No . 497 — MA - 1992 العدد ٤٩٧ ذو القعدة ـ مايو ١٩٩٢
FAX 3625469 : فاكس

أسعار البيع فئة ٣٠٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليره ، لبنان ٣٤٠٠ ليره ، الكويت ٢٥٠ر١ دينار ، الأردن ٤٠٠ر٢ دينار ، السعودية ١٢ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٥ درهم ، البحرين ٢٠٠ر١ دينار ، الدوحة ١٢ ريال ، دبى / أبوظبى ١٢ درهم ، مسقط ٢٠٠ر١ ريال ، غزه والضفة والقدس ٢ دولار ، لندن ٥٠ر١ جك .

طَوقُ الحَمَامَة

فى الإلفَةِ والألاّف

للإمام الفقيه

ابن حزم الاندلسى

أبى محمد على بن أحمد بن سعيد

حققه وقدم له وعلق عليه

دكتور الطّاهر أحمد مكى

الغلاف بريشة الفنان :

حــــلمى التــونى

كلمة المحقق

فى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر ، هبط الأستانة سفير مستشرق يُدعى فون وارنر ، جاء يمثل بلاده هولندة لدى بلاط آل عثمان ، وقُدّر له أن يبقى فيها اثنين وعشرين عاما ، من سنة ١٦٤٤ إلى ١٦٦٥ م ، لكنه ما لبث أن شُغل باهتماماته العقلية ، فولّى وجهه شطر المخطوطات العربية ، وقد أُشرب حبها طالبا جادّا فى مدرسة المستعربين الشهيرة فى ليدن ، وأصبح البحث عنها شاغله الأول ، ينسخها ويشتريها ، ويحتال عليها إن لم تواته الأولى أو الثانية ، ولم يكن فى حاجة إلى زمن أو خبرة ليدرك أنه فى عاصمة الخلافة بين ذخائر لا تنفد من التراث العربى ، جاء بها السلاطين نهبا من البلاد الأخرى ، أو نقلها العسكريون سطواً ليتبركوا بها ، ويتاجروا فيها من بعد .

ثم جاءته الفرصة بأبعد مما يمكن أن يجرى به خياله ، فتوفى على أيامه حاجى خليفة الشهير ، عام ١٦٥٨ م ، صاحب كتاب « كشف الظنون » ، وكان يملك واحدة من كبريات مكتبات الأستانة الخاصة ، جمعها أثناء عمله فى الجيش العثمانى ، وارتحاله عبر

البلاد الإسلامية ، فى بغـداد وهمدان وحلب . لقد اشترى منها وارنر ، ومن غيرها ، كتبا كثيرة بلغت ألف مخطوط ، بين عربى وفارسى وتركى وعبرى ، اشتملت على شتى العلوم ، من لغة وأدب وتاريخ ، وشريعة وفلسفة وطب ، وتنوعت فى طابعها ، تميز بعضها بجمال خطه ، وبعضها بأصالته وقدمه ، وبعضها بندرته ، ثم أهدى ذلك كله إلى جامعة ليدن فى هولندة ، لتنضم إلى مخطوطات عربية أخرى كثيرة وقيمة .

وكان « طوق الحمامة » بين هذه المخطوطات النادرة . من أى البلاد جاء ؟ من صاحبه الأول ؟ . لا أحد يدرى . وقُدر لهذه النسخة أن تستقر مجهولة فى مكتبة ليدن قرابة مائة وخمسة وسبعين عاما .

مع مطلع القرن التاسع عشر عهدت الجامعة إلى عدد من المستشرقين بفهرسة المخطوطات العربية التى تملكها ، وكان من نصيب المستشرق الهولندى رينهارت دوزى ، المتخصص فى الدراسـات الأندلسـية ، أن يكتشـف نسـخة « طـوق الحمـامة » وأن يعرف العالم بها فى أول طبعة تصدر لفهرس المخطوطات العربية فى جامعة ليدن ، وحمل وصف المخطوطة رقم ٤٦١ من مجموعة وارنر .

وعندما نشر دوزى كتـابه « تاريخ مسلمى إسبانيا » ، عام ١٨٦١ ، نقل من كتاب « طوق الحمامة » الصفحات المتصلة بقصة

حب ابن حزم الأولى ، وترجمها فى فرنسية رقيقة عذبة ، فذاعت فى كل أنحاء أوربا ، وأعطت الكتاب شهرة واسعة وعن دوزى ترجمها إلى الألمانية فون شاك ، فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » وقد نقلناه إلى العربية ونشرته دار المعارف بالقاهرة ، وعنه ترجمها الروائى الأديب خوان فاليرا عندما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية ، ثم جاء من بعده مواطنه بونس بويجس فترجمها إلى اللغة الإسبانية ثانية ، من اللغة العربية مباشرة . وقد حاول بونس هذا ، ومن بعده العالم الإسبانى الجليل ميجيل أسين بلاثيوس ، أن ينشر النص العربى ، لكن الموت اختطف أولهما فى سن فتية ، وشُغل الثانى بكتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ، وهو أقرب إلى اهتماماته الفلسفية ، فلم يقدر للمحاولة أن تتم .

وفى صيف ١٩٠٧ سافر المستشرق الروسى الشاب د . ك . بتروف إلى مدينة تيوبنجين فى ألمانية ، ليلقى الأستاذ زايبولد ، وكان المستشرق الألمانى الوحيد المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، فحمل بتروف على أن ينشر النص العربى لطوق الحمامة وعاد المستشرق الروسى إلى مقره فى مدينة بطرسبرج ، وكان يعمل أستاذاً فى جامعتها الإمبراطورية ، وفى ذهنه أن يدفع بالفكرة إلى حيّز الوجود ، لكن مواطنه المستشرق البارون روزن

(١٨٤٩ - ١٩٠٨) وكان أكبر منه عمراً وأعرق فى مجال الاستشراق ، اعترض عليه ، فقد رأى أن قيام مستشرق ناشئ بمثل هذه المحاولة ، معتمداً على مخطوطة وحيدة ، عمل بالغ الصعوبة ، ومحفوف بالمخاطر .

لكن بتروف مضى فى المحاولة ، وعاونه مواطنه المستشرق كراتشكوفسكى فى تصحيح تجارب الطبع ، وصدرت الطبعة الأولى للنص العربى كاملا ، فى سلسلة الكتب التى تنشرها كلية الآداب ، فى جامعة بطرسبرج الإمبراطورية ، وطبع فى مطبعة بريل العربية الشهيرة فى ليدن ، عام ١٩١٤ . ولا يملك المرء إلا أن ينحنى تقديراً لهذه المحاولة الجريئة ، لقد بذل بتروف جهداً عظيما ، فأعطانا صورة صادقة للمخطوطة ، وضبط الشعر بالشكل ، وبعض كلمات النص ، وألحق به فهرسا للقوافى ، وآخر للأعلام ، وقدم له باللغة الفرنسية فى صفحات تبلغ الثمانى والثلاثين ، وكان موفقاً فى محاولته إلى حد بعيد . لكنه لم يكن متخصصا فى الدراسات الأندلسية ، وكانت على أيامه فقيرة وواهنة خارج نطاق إسبانيا ، فلم يصلح من أخطاء الأصل إلا قليلا من الألفاظ ، التى يمكن تداركها للوهلة الأولى .

ولكن ذلك لا يمس روعة العمل الذى قام به ، فما أشد صعوبة الخطوة الأولى ، وأشق إنجاز العمل الرائد ! .

غير أن النص العربى ، كبقية النصوص العربية الأخرى التى طُبعت فى أوربا ، ظل محدود الانتشار للغاية ، حتى أن نسخاً منه لمّا تزل معروضة للبيع حتى يومنا ، ومع هذا أثار اهتمام كافة المستشرقين ، وعُنى به كبارهم ، فعلّق على الطبعة العربية كل من بروكلمان وجولد تسيهر ، وأشادا بالعمل ، وصححا بعض ما وقع فيه من أخطــاء ، ومن الطبيعى أن تحـــدث فى كتاب ينشر للمرة الأولى ، عن مخطوطة وحيدة .

نشر بتروف الكتاب عن مخطوطة مجموعة وارنر ، وجاءت فى ٢٧٦ صفحة ، مجلدة ، وتتراوح مسطرتها بين عشرة أسطر وخمسة عشر سطرا ، واضحة الخط ، مشكولة الشعر ، وكُتبت منها العناوين ، وأمثال كلمات : « حدث » و« خبّر » بالحبر الأحمر ، بخط أكبر قليلا من المعتاد فى بقية النص . والناسخ يقظ جداً ، لا يخونه قلمه إلا نادراً ، وإنما يجئ الغموض من صعوبة المعنى ، وهى ليست بخط المؤلف ، وإنما كتبها ناسخ مولع بالنص ، وفرح بقدرته على إكمال نسخه ، وأتمه فيما يقول ، فى مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م) أى بعد وفاة ابن حزم بما يقرب من ثلاثة قرون ، ولم يعطنا أية إشارات إلى النسخة الأم التى نقل عنها ، ولا يذكر أنه عارض ما نسخ بما نسخ عنه .

ولا نعرف الناسخ ، ولا المكان الذى أتم فيه عمله ، وفيما يبدو

قام به رغبة فى اقتناء الكتاب ، ولم ينسخه مأجوراً عليه ، ولا قاصداً بيعه ، وسجل على نفسه أنه : « حذف أكثر أشعارها ، وأبقى العيون منها ، تحسينا لها . وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلا لوجدان المعانى الغريبة من لفظها » .

وأراه حذف أكثر الشعر ، وأضاع علينا نصوصا هامة ، فقد كان ابن حزم فى أشعاره طويل النفس ، ثرىّ المدد ، لا يكتفى بالمقطوعة ، ولا يقنع بالقصيدة العادية ، مغرما بالطوال منها ، وشاهدنا على ذلك قصيدة طويلة وحيدة ، جاءت فى ٨٦ بيتا ، وأبقى عليها الناسخ كاملة ، ربما لأنها جاءت فى آخر الكتاب ، فأراد أن يسوّد بها ما تبقى لديه من صفحات بيضاء ، أو لأنها جاءت من الشعر الوعظى المحبّب إلى نفسه .

وشاهدنا عليه أيضا ، طابع ابن حزم فيما وصلنا من شعره ، فقصائده فيه ، جاءت فى عدد منها لا بأس به من القصائد الطوال .

ولا أظن الناسخ وقف باختصاره عند الشعر وحده .

فقد أورد لنا المقرّى ، فى كتابه نفح الطيب ، فى الجزء الثانى ، ص ٢٨٨ ، القصة التالية : قال ابن حزم فى « طوق الحمامة » : إنه مّر يوما هو وأبو عمر ابن عبد البر ، صاحب « الاستيعاب » ، بسكة الحطابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال

أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم نر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عَذَل فيمن سباني حُسْنُهُ ... يطيل ملامي في الهوى ويقولُ :
أمن أجل وجهٍ لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسمُ ، أنت عليل
فقلت له : أسرفتَ فى اللوم فاتّئدْ ... فعندىَ ردٌّ لو أشاء طويل
ألم تر أنّى ظاهرىٌّ وأنّنى ... على ما أرى حتى يقوم دليل

وهذه القصة ساقطة من نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، ولا يمكن ردّها بالشك فى رواية المقرّى ، لأن جوّها أشبه الأجواء بما فى « الطوق » . وأزعم أن يد الناسخ امتدت إلى ما هو أكثر منها ، مما لم يرض من حكايات وقصص « الطوق » ، وأكاد أقول ، وإلى ما لم يفهم من قضاياه أيضا .

وبعد طبعة بتروف بسبعة عشر عاما ، قام محمد ياسين عرفة ، صاحب مكتبة عرفة فى دمشق ، بطبع النص العربى ثانية ، عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م ، وصدّره بفقرات مقتبسة ومترجمة عن مقدمة بتروف للكتاب باللغة الفرنسية ، وبموجز لحياة ابن حزم ، وقدم له الشاعر الكبير محمد البزم . وكانت الطبعة قريبة من طبعة بتروف ، بعد أن حذف الناشر منها الفهارس ، واستغنى عن ضبط الشعر ، برغم أنه جاء مضبوطا كله فى الأصل ، وفى طبعة المستشرق الروسى ، ولم يتقدم بالنص خطوة واحدة نحو ما هو أصوب وأدق .

وفى عام ١٩٤٩ ظهـرت الطبعـة الثـالثة باللغـة العربيـة لكتـاب « طوق الحمامة » ، قام عليها المستشرق الفرنسى ليون برشيه ، وكان يعمل أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة الجزائر ، وفى مدينة الجزائر نفسها صدرت ، ولكن دائرة ذيوعها كانت محدودة للغاية ، وقد بذل برشيه ، وهو معروف بأبحاثه اللغوية ، جهداً طيبا فى تصحيح الأخطاء ، ولكنها أعتى منه ، فلم يستطع غير تصويب القليل ، غير أن تعليقاته اللغوية والفقهية ذات أهمية كبرى .

وبعد هذه الطبعة بعام واحد ، قام الأستاذ حسن كامل الصيرفى بطبع الكتاب للمرة الرابعة فى القاهرة ، عام ١٩٥٠ ، والحق أنه حاول أيضا أن يصحح بعض كلمه ، وأن يقوّم بعض أبيات شعره ، وزاده شاعرية قادرة ، ومعرفة باللغة متمكنة ، وهما وحدهما لا تكفيان .

كان الكتاب فى حاجة إلى من يعرف الأندلس تاريخا وتراثا وحضارة ، يأخذ من ذلك كله ليقـوّم نصّا صعباً جاءنا فى مخطوطة وحيدة ، وكان حظ الأستاذ الصيرفى من المعرفة بالأندلس متواضعا فيما يبـدو ، ومن ثم فإن جهوده لم تغن شيئا ، جاء الكتاب وعدد من فقراته مضطرب خاطئ ، ومعظم الأسماء الواردة فيه مغلوط مشوّه ، وجاء الطابع فأفسد ضعف ما أصلح الناشر ، فسقطت من الكتاب جمل وكلمات ، ضاع معها المعنى أو اضطرب ، فكانت هذه

الطبعة ، برغم ما بذل فيها من جهد ، وبرغم أنها طبعت ثانية عام ١٩٦٤ أسوأ من طبعة دمشق ومن طبعة بتروف .

صحيح أن الأستاذ إبراهيم الإبيارى قدّم لهذه الطبعة ، وتربطه بالأندلس أوشاج من النسب ، ولكنه فيما بدا لى كتب المقدمة مجاملا عجلا ، وليس مشاركا مسئولا ، فلا أكاد أتصوّر أن الرجل الذى عاش حياته قارئا وكاتبا ومحققا يمكن أن يخطئ فى موطن ستندال ، فينسبه إلى إيطاليا وهو أديب فرنسى شهير ، ولا أكاد أتصـور أن يقـول ، « جيران صاحب المرية » ، لمجرد أنها وردت فى الأصـل كذلك ، ومن له أدنى معرفة بالأندلس يعرف أن صحتّها « خيران » .

كان من الضرورى أن يتقدم دارس ليصنع من أجل « طوق الحمامة » شيئا ، أن يقترب به على الأقل من مستوى الترجمات الأجنبية ، ووجدتنى مدفوعا إلى هذا العمل . لقد نما هذا الإحساس عندى منذ بدأت أتردّد بين صفحات الكتاب فكراً وإحساسا ونظرا ، وأعانى الكثير من غموض النص ، ومن تحريف الأسماء ، ومن غيبة الهامش ، وبدا لى للحظات كثيرة أن المهمة عسيرة ، فترددت ، فليس أصعب من تحقيق كتاب مخطوطته وحيدة ، ونصه ملئ بالأخطاء ، والناقلون عنه قلة لا يذكرون ، أو إن شئت الدقة لا يوجدون ، وأخيراً صحّ العزم منى ، لأن التقدّم خطوة

إلى الإمام ، خير من الإحجام والوقوف به حيث كان ، وقد أفدت من جهود المستشرقين قبلى ، وهى كبيرة وجليلة ، وعلى الأخص ما قام به الإسبانى الأستاذ إميليو غرسية غومث ، وما قام به الفرنسى ليفى بروفنسال .

لكن « طوق الحمامة » ليس نصًا يقوّم ، ولا هوامش تحرّر ، ولا أعلاماً يعرف بها فحسب ، وإنما هو قبل ذلك خلق أدبي عميق ، وثقافة علمية أصيلة ، وهو فى كل صفحة ، ووراء كل خبر ، يثير عدداً من القضايا الهامة والخطيرة .

حين وقف دوزى على قصة الحب الرقيقة لابن حزم ، استكثرها على العرب ، وعلى المسلمين ، برغم أن الرجل علمانى لا يحب الكنيسة ولا يتعاطف مع رجال الدين ، وقال إن هذا الغزل العف ، لا تعرفه الأخلاق العربية ، ولا الديانة الإسلامية ، وأنه تحدّر إلى ابن حزم إرثاً من أجداده الأول المسيحيين .

وتصدى له ميجيل أسين بلاثيوس ، فى دراسته عن ابن حزم ، فنّد آراءه ، ووضع كل شئ فى مكانه الصحيح ، بقدر ما تتيح الكنيسة لرجالها من حرية فى الرأى والتفكير ، فقد كان بلاثيوس راهباً ، لا ينشر شيئاً قبل أن يمرّ على الرقيب الكنسى .

وعندما نقرأ كتاب « الحب المحمود » لكاهن بلدة هيتا الإسبانى ، نحسّ بأن الرجل قرأ ابن حزم ، وأفاد منه ، وسار على

خطوه ، برغم أنه جاء بعده إلى الحياة ، فى الجانب المسيحى ، بفترة من الزمن تبلغ حوالى ثلاثة قرون .

وقد استوقف نظر غرسية غومث الشبه بين أفكار « باب السفير » ، وبين رواية فرناندو دى روخاس (١٤٥٣ – ١٥٤١ م) ، ويمكن ترجمة عنوانها : « بالقوّادة La Celestina » ، دون أن يذهب إلى أبعد من هذه الإشارة .

وطوّف كتاب « الطوق » ، شرّق وغرّب على نحو لم يعرفه غير قليل من كتب التراث العربى ، ونقل إلى بعض اللغات فى أكثر من ترجمة ، وكان حريًا بنا أن نقف عند هذه التراجم كلها .

والكتاب سيرة ذاتية ، أو هو قريب منها ، للجانب العاطفى من حياة ابن حزم ، وهادٍ إلى الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ، ممن شغلوا مناصب رفيعة ، فى الإدارة والقضاء والجيش على أيامه . وإذا كان الكتاب مصدراً هاما لهذا الجانب من حياة فقيه قرطبة العظيم ، فإن تتبّع خطاه فى رحلة الحياة أمر ضرورى لإلقاء بعض الضوء على فصول الكتاب ، وإنارة أحداثه و وتفسير ما وراء جمله ومعانيه .

وكان لعدد من علماء الأجانب ، مستشرقين ومفكرين لا يعرفون من العربية حرفا ، رأى فى الكتاب . لقد قدّم الفيلسوف الإسبانى العالمى أورتيجا إى جاسيت للترجمة الإسبانية ، وقال رأيه فى فكر ابن حزم ، وأبدى آخرون آراءهم فى لغات أخرى ومهمّ أن يعرف

القارئ العربى كيف يرى غيرنا هذا العالم الجليل ، ومن هنا كانت ترجمة هذه الفصول ، أو بعضها ، ضرورة لا مناص منها .

كل ذلك وأكثر منه دار بخاطرى ، وأخذت له أهبتى ، وحررت منه فصولاً كثيرة ، تتصل بعدد من هذه القضايا ، ثم وجدتها تتجاوز حجم الكتاب ، فلم أشأ أن أجعلها مقدمة له ، وآثرت أن أجمعها فى دراسة مستقلة ، وإن ربطتها بالنص نفسه أقوى الوشائج ، فلا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر وصدرت بعنوان : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » .

لقد قوّمت الفقرات المضطربة ، وصوّبت الأسماء المحرفة ، وعرّفت بالأعلام ما كان ممكنا ، صنعت ذلك ما أعانتنى عليه كتب التاريخ والمصادر الأخرى ، وأبقيت الجمل الغامضة على ما هى عليه ، خشية أن يكون تقويمى لها ، إهدارا لفكرة أرادها المؤلف ، أو عدوانا على غاية ارتضاها ، أو انحرافا بما خفى من رأيه ، أو انعطافا نحو جـــانب ما فكّر فيه ، ولو بعث اليوم حيًّا لأنكره غاضبا .

كان « طوق الحمامة » أروع كتابٍ دَرَسَ الحب فى العصر الوسيط ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، تتبع أطواره ، وحلّل عناصره ، وجمع بين الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى ، وواجه أدق قضاياه فى وضوح وصراحة ، كان ابن حزم

الدارس الواقعى فى كل خطاه ، أفكاره محلّقة ، وقدماه على الأرض ، ويصدر فى نظرته عن تجربة عميقة ، ذات أبعاد إنسانية واسعة ، وعن إدراك ذكيّ لطبـائع البشر وسير الحـياة ، فجاءت نتائجه صادقة ، لمّا تفقد بريقها ولا توهّجها ، وإنها لتقف الآن فى مستوى أرقى الدراسات عن الجنس والحب .

وأشـهد أننى وقفت أكثر من مـرة أمام بعض الحقـائق ، وبعض الفقرات ، كان فيها ابن حزم ، كعادته ، جريئا صريحا ، مرتفع الصوت ، لا يُكنى ولا يُلمح ولا يشير ، وإنما يعالج قضاياه مفكراً دارسا ، لا يتأثم ولا يتردد ، وهممت أن أدع هذه الفقرات ومع شئ من الفكر والتأمل ، رأيت ذلك جرما ، لا فى حق النص فحسب ، وإنما فى حق التراث العربى ، وفى حق أجيالنا الصاعدة فى أن تعرف كل شئ .

إن ما يرتضـيه ابن حزم الأديب العالم ، والفقيه الظاهرى ، وما يقبله ذوق المسـلمين فى قرطبة الزاهرة ، عاصـمة الأندلس أيام الخلافة ، وما بعدها ، فى القرن العاشر الميلادى وما تلاه ، ليس تديّنا ولا ورعا ولا تطـورا ولا محافظة أن ترفضـه قاهرة القرن العشرين ، ورائدة النهضة فى العالمين العربى والإسلامى ، ومن هنا أبقيت النص على حاله كاملا .

ولما كانت الطبعة التى تقدمها دار الهلال تستهدف القارئ

المتذوق عن كل طبقات المجتمع ، والحديث عن الحب لذيذ وممتع وشائق ، للفتى والفتاة ، ولمن امتدت به السنون من الرجال والنساء ، فـقد تخففت من كثير من هوامش الكتاب التى تعنى الباحثين وحدهم ، وبوسعهم أن يعودوا إليها فى طبعات دار المعارف ، ولكن طبعة الهلال تتميز عن هذه بكثير من التصويبات التى اهتديت إليها خلال أعوام مضت ، وعبر قراءات واسعة ، فجعلت النص أكثر وضوحا وأقرب إلى الكمال .

وبعد ..

فالكتاب بين يدى القارئ ، ولست أقول إننى بلغت به كل ما أريد ، ولكنى أزعم أننى تقدمت به على طريق الصواب خطوات .

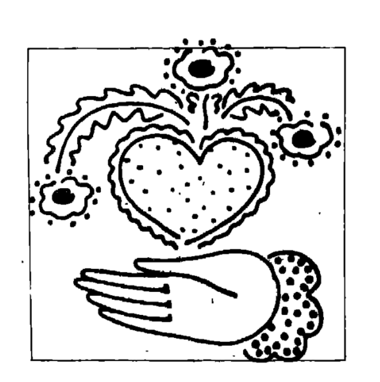
ولعل فى قادم الأيام ما يعيننا على أن نبلغ به حد الكمال . والله ولى التوفيق .

رمضان ١٤١٢ هـ

مـارس ١٩٩٢

د . الطاهر أحمد مكى

طَوْقُ الحَمَامَةِ
فى الإِلْفَةِ والأُلَّاف





وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه :

أفضلُ ما أبتدئ به حمد الله عزّ وجلّ بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة .

وبعد ..

عصمنا الله وإياك من الحيرة ، ولا حملنا مالا طاقة لنا به ، وقيض لنا من جميل عونه دليلا هادئاً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه ، ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا ، وخَوَر قوانا ، ووهاء بنيتنا ، وتلدد آرئنا ، وسوء اختيارنا ، وقلة تمييزنا ، وفساد أهوائنا .

فإن كتـــابك وردني من مدينة المرية (١) إلى مسكني بحضرة

(١) المرية Almeria: ثغر هام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م ، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر ، وكانت إحدى القواعد البحرية الهامة للأسطول الإسلامي ، وميناء هام للاستيراد والتصدير ، تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ، ولا تزال قلعتها العربية قائمة ، وازدهرت في الأعوام الأخيرة بفضل السياحة ، ويربطها بمدينة مليلة على الشاطئ المغربي خط بحري منتظم .

شاطبة [1] ، تذكر من حسن حالك ما يسرّني ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك .

ثم لم ألبث أن اطلّع على شخصك ، وقصدتني بنفسك ، على بعد الشقّة ، وتنائى الديار ، وشحط المزار ، وطول المسافة ، وغول الطريق ، وفى دون هذا ما سلّى المشتاق ، ونسّى الذاكر ، إلاّ من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمّة ، ووكيد المودّات ، وحق النشأة ، ومحبة الصبى ، وكانت مودته لله تعالى .

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون ، وكانت معانيك فى كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلى بإقبالك غرضك ، وأطلعتنى على مذهبك ، سجيّة لم تزل علينا من مشاركتك لى فى حلوك ومرك ، وسرك وجهرك ، يحدوك الودّ الصحيح الذى أنا لك على أضعافه ، لا أبتغى جزاء غير مقابلته بمثله .

وفى ذلك أقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن

---

(١) شاطبة Jativa : مدينة عتيقة ، وكانت تسمى قديماً Saetabis، وهى من أعمال محافظة بلنسية ، واشتهرت فى العصر الإسلامى بصناعة الورق ، وتنسب إليها ، ولا تزال حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعته ، وإليها ينسب أيضا أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى ، وعاش فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، وجاء مصر ، واتخذ من الاسكندرية سكناً ، وتوفى بها ، وإليه ينسب حى الشاطبى فى المدينة الآن .

أمير المؤمنين الناصر [1] رحمه الله ، في كلمة لي طويلة ، وكان لي صديقا :

أودُّك ودًّا ليس فيه غضاضةٌ
وبعضُ مودَّات الرجال سَرابُ

وأمْحضتُك النصحَ الصريحَ وفي الحشى
لودِّك نقشٌ ظاهرٌ وكتاب

فلو كان في روحي هواكَ اقتلعتُه
ومُزِّق بالكفين عنه إهابُ

وما لي غيرُ الودّ منك إرادةٌ
ولا في سواه لي إليك خطاب

إذا حُزْتَهُ فالأرضُ جمعاءُ والورى
هباءٌ وسكانُ البلاد ذُباب

وكلفتني - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزايداً ولا مفتنا ، لكن مُورداً لما يحضرني على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره ، فبدرت إلى

(١) عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء بني أمية بالمغرب سلطاناً ، وأطولهم في الخلافة مدة وزماناً ، وحكم من ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م إلى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م .

مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته ، فهذا من اللغو ، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلاّ فيما نرجو به رَحْب المنقلب ، وحسن المآب غدا وإنْ كان القاضي حُمام بن أحمد [1] حدّثني عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال : أجمُّوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضي : « من لم يحسن يتفتّى لم يحسن يتقرى » وفي بعض الأثر : « أريحوا النفوسَ فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

والذي كلفتني لابد من فيه من ذكر ما شاهدتْه حضرتي ، وأدركتْه عنايتي ، وحدّثني به الثقات من أهل زماني ، فاغتفرْ لي الكناية عن الأسماء ، فهي إمّا عورة لا نستجيز كشفها ، وإمّا نحـافظ في ذلك صديقاً ودودا ورجلا جليلا وبحسبي أن أسميّ من لا ضرر في تسميته ، ولا يَلحقنا والمسمّى عيب في ذكره ، إمّا لاشتهار لا يُغني عنه الطي وترك التبيين ؛ وإما لرضا المُخَبَرُ عنه بظهور خبره ، وقلة إنكار منه لنقله .

وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنتَ ومن رآها عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ،

(١) كان واحد عصره في البلاغة ، وفي سعة الرواية ، حسن الشعر ، تولّى قضاء يابرة وشنترين والأشبونة ، وسائر الغرب ، وأثنى عليه ابن حزم كثيراً ، توفي ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م .

فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخوانى يجشموننى القولَ فيما يعرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم . وكفانى أنى ذاكر لك ما عَرض لى مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبه إلىّ .

وإلتزمت فى كتابى هذا الوقوفَ عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدّمين ، فسبيلّهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار ، والله المستغفر والمستعان ، لا رب غيره .

★★★

وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين بابا ، منها فى أصول الحب عشرة . فأولها باب (فى ماهية الحب) ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة أثنا عشر بابا ، وإن كان الحب عرضا والعرض لا يحتمل الأعراض ، وصفة

والصفةُ لا توصف ، فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصفة مُقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضا أقل فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها علمْنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ؛ إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزّى ، لأنها لا تشغل مكانا ، وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها ما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البَيْن ، ثم باب السلو .

من هذه الأبواب الستة بأبان لكل واحد منهما ضدٌّ من الأبواب المتقدمة الذكر ، وهما : باب العاذل وضده باب الصديق المساعد ، باب الهجر وضده باب الوصل .

ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معانى الحب ، وهى : باب الرقيب وباب الواشى ، ولا ضد لهما إلاّ ارتفاعهما ، وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، وإنْ كان المتكلّمون قد اختلفوا فى ذلك ، ولولا خوفُنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار ، وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها ، وباب السلو وضده الحب بعينه ، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه .

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام في قبح المعصية ، وباب في فضل التعفف ، ليكون خاتمة إراد نا وآخر كلامنا ، الحضُّ على طاعة اللّه عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك مُفترضٌ على كل مؤمن .

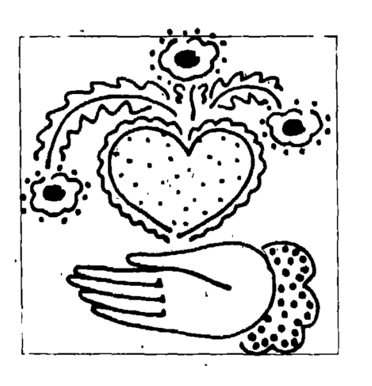
لكنّا خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة في دَرج هذا الباب ، الذي هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها ، واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود ؛ ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده ، فاختلف المساق في أبواب يسيرة ، واللّه المستعان .

وهيأتها في الإيراد أولها هذا الباب الذي نحن فيه ، وفيه صدر الرسالة ، وتقسيم الأبواب ، والكلام في ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب في النوم ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلاّ مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طيّ السر ، ثم باب

إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفّف .

١

الكلام فى ماهية الحب



الحب - أعزّك الله - أوّله هزل وآخره جد . دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة ، وليس بمنكَر فى الديانة ، ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد اللّه عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ؛ منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفه بطروب أم عبد اللّه ابنه أشهر من الشمس ، محمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتنانه بصبح أم هاشم المؤيد باللّه رضى اللّه عنه ، وعن جميعهم ، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها [1] ، ومثل هذا كثير ، ولولا أن حقوقهم

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفائه .

على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين ، وإنمّا هو شئ كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردتُ من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل .

وأمّا كِبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يُحصَوْا ، وأحداثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفّر ، عبد الملك بن أبي عامر بواجد ، بنت رجل من الجنانين حتى حملهُ حبّها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين الوزيرُ عبد الله بن مسلمة ، ثم تزوّجها بعد قَتْله رجلٌ من رؤساء البربر [1] .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني : أنّ نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن

---

(١) هذه الفقرة جاءت مضطربة تماما في الخطوط وفي كل الطبعات العربية ، فقد وردت على النحو التالي : « ... من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد ، بنت رجل من الجبائين ، حتى حمله حبها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة ... » وقد صححتها على النحو الذي أوردناه . لأن كلمة « المظفر » لقب لعبد الملك بن أبي عامر وليست اسما لابن له ، وكانت حبيبته بنتاً لجنّان ، أي بستاني ، وليس لجباء ، والذي خلف عليها هو الوزير عبد الله بن مسلمة بعد فناء دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده ، فليس للوزير عبد الله ولد اسمه عامر ، واسم الجارية واجد وليس « واحد » .
والمظفر خلف أباه المنصور ، بعد موته ، وكان مثله حاجبا بالاسم ، وحاكما بالفعل ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م .

نزار ، الذى ولى الملك بعده وادّعى الإلاهية ، إلا بعد مدّة من مولده ، مساعدة لجارية كان يُحبها حباً شديدا ، ولم يكن له ذكر ، ولا من يرث ملكه ويحيى ذكره سواه (١) .

ومن الصالحين والفقهاء فى الدهور الماضية ، والأزمان القديمة ، من قد استُغْنى بأشعارهم عن ذكرهم : وقد ورد من خبر عبُيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود وشعره ما فيه الكفاية ، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة (٢) ، وقد جاء من فتيا ابن عبّاس رضى الله عنه مالا يُحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عَقل ولا قود .

وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن

---

(١) نزار بن معد ، خليفة مصر الفاطمى ، الملقب بالعزيز ، وحكم من ٩٧٦ إلى ٩٩٦ م ، وأما المنصور ابنه ، فهو ثالث الخلفاء الفاطميين فى مصر ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله ، وحكم من ٩٩٦ إلى ١٠٢١ .

(٢) فقهاء المدينة السبعة : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن ياسر ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله ابن عتبة بن مسعود الوارد فى النص .

بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكرٌ مقسومة لكنْ على سبيل مناسبة قواها في مقّر عالمها العلوى ، ومجاورتها في هيئة تركيبها [1] .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل دأباً يستدعي شكله ، والمِثْل إلى مِثْله ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد ، والموافقة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا ، فكيف بالنفس وعالُمها العالم الصافي الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسنْخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار ، كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : « هُوَ الذى خَلَقَكم من نَفْسٍ وَاحدة وجعل منها زوجَها ليَسكُن إليها » [2] فجعل علة السكون أنّها منه .

---

(١) أبو بكر محمد بن داود الظاهرى ، ابن مؤسس المذهب الظاهرى ، ولد عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م ، وتوفى ٢٩٧ هـ ٩١٠ م ، ألّف كتاب « الزهرة » ، وقد نشر لويس نيكل وإبراهيم طوقان نصفه عن مخطوطة وحيدة في دار الكتب المصرية ، عام ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، والفقرة الواردة هنا اقتبسها ابن حزم من كتاب الزهرة ص ١٥ ، ونصها هناك :

« وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدوّرة الشكل ، على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضا ، فجعل في كل جسد نصفا ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقة طبائعهم » .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .

ولو كان علّةُ الحب الصورة الجسدية لوجب ألاّ يُستحسن الا نقُص من الصورة ، ونحن نجد كثيرا ممن يُوثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ، ولا يجد محيدا لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة فى الأخلاق لَمَا أحبَ المرء من لا يساعده ولا يوافقه . فعلمنا أنه شئ فى ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها ، فَمَنْ وَدَّكَ لأمر ولّى مع انقضائه .

وفى ذلك أقول :

وِدادى لكَ الباقى على حَسْب كوْنه
تناهَى فلم يَنْقُص بشىءٍ ولم يَزدْ

وليستْ له غير الإرادة علّة
ولا سببٌ حاشاهُ يعلمه أحَدَ

إذا ما وجدْنا الشىءَ علّة نفسه
فذاك وجودٌ ليس يفنى على الأبد

وإمّا وجدناه لشىءٍ خلافَهُ
فإعدامُه فى عدمنا ماله وجدْ

وممّا يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب : فأفضلها محبة المتحابّين فى الله عز وجل ، إمّا لاجتهاد فى العمل ، وإمّا لاتفاق فى أصل النّحلة والمذهب ، وإمّا لفضل علْم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة

التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللّذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من إتصال النفوس .

وكل هـذه الأجناس منقضـية مع انقضاء عللها ، زائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها ، حاشى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس ، فهى التى لا فناء لها إلا بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه ، وذا السِّن المتناهية ، إذا ذكّرته تذكر وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب ، واهتاج له الحنين ، ولا يعرض فى شئ من هذه الأجناس المذكورة ، من شغل البال والخبل والوسواس ، وتبدّل الغرائز المركبة ، واستحالة السجايا المطبوعة ، والنُّحول والزفير ، وسائر دلائل الشجا ما يعرض فى العشق ، فصح بذاك أنه استحسان رُوحانى وامتزاج نَفسانى .

فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال وحظهما واحد . فالجواب عن ذلك أنْ نقول : هذه لعمرى معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذى لايحبُّ مَنْ يحبُه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تحس بالجزء الذى كان

متصلا بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها ، كالمغنطيس والحديد ، فقوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكّمها ، ولا من تصفيتها ، أنْ تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أنّ قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس ، تطلب ما يشبهها ، وتنقطع إليه ، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة ، وبالاختيار والتعمّد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب ، إذ لم يبلغ مِن قوته أيضا مغالبة المُمسك له ممّا هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض ، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظم جرم المغناطيس ، ووازت قواه جميع قوى الحديد ، عادت إلى طبعها المعهود .

وكالنار فى الحجر ، لا تبرز على قوة النار فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلاّ بعد القدح ، ومجاورة الجِرمين بضغطهما واصطكاكهما ، وإلا فهى كامنة فى حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابّان

إلاّ وبينهما مشاكلة ، واتفاق الصفات الطبيعية ، لابد من هذا وإن قلّ ، وكلّما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكّدت المودة ، فانظر هـــذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليــه وسلم يؤكده : « الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعَارفَ منها ائتلف ، وما تناكرَ منها اختلف » ، وقول مرويّ عن أحـــد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما اغتم إبقراط حين وُصِفَ له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه (١) .

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولّى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برئ فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمرى مالى إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ما هو . فأدّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها . فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميّزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلاّ أنْ حركّت هذه الموافقة ،

---

(١) إبقراط Hippocrate (٤٦٠ – ٣٧٧ ق م) ، طبيب إغريقى ، من أشهر أطباء العصر القديم ، ويدعى أبا الطب ، ولم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى إبقراط .

وقابلت نفسه بهـذا الطبع الذى بنفسى ، فأمر بإطلاقى وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد فى نفسى له [١] .

وأما العلّة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شئ حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة . وإن للصور لتوصيلا عجيباً بين أجزاء النفوس النائية [٢]

وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رَعْيه غنما للابن خاله ، مهراً لابنته شارطه على المشاركة فى إنسالها ، فكل بهيم ليعقوب ، وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى ترده الغنم ، ويتعمّد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاً بهْماً ونصفاً غُرّاً [٣] .

---

(١) أيضاً لم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى أفلاطون .

(٢) تتردد هذه الفكرة كثيراً فى الشعر الإيطالى ، على امتداد القرن الثالث عشر الميلادى ، وأثارت انتباه النقاد لكن أحداً لم يدرسها فى إطار مقارن مع فكرة ابن حزم .

(٣) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الثلاثون ، والقصة فى التوراة طويلة ذات تفاصيل ، ولكنها تتفق فى خطوطها الرئيسية مع ما أورده ابن حزم ولابان خال يعقوب النبى ، وقد زوجه ابنته ، وهو اسم عبرى معناه الأبيض .

وذُكر عن بعض القافة أنه أُتي بابن أسود لأبيضيْن ، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك ، فرغب أن يُوقَف على الموضع الذى اجتمعا عليه . فأُدخل البيت الذى كان فيه مَضْجعهما ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورةَ أسود فى الحائط فقال لأبيه : من قِبل هذه الصورة أُتيتَ فى ابنك .

وكثيرا ما يصرف شعراء « أهل الكلام » هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون المرئىّ فى الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، وهـــو المستفيض فى شعر النّظام إبراهيم بن سيّار (١) وغيره من المتكلمين .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علّةُ النّصرِ فى الأعداء تعرفها
وعلّةُ الفـــر منهم إنْ يَفـــرُّونا
إلاّ نِزاعُ نفــوسِ النــاسِ قاطبةً
إليك يالؤلؤاً فى النــاس مكنــونا
مَن كنتَ قُدامـــه لا ينثنى أبداً
فهم إلى نورك الصعّاد يَعشـونا

---

(١) النظام ، إبراهيم بن سيار ، توفى حوالى سنة ٨٤٥ م ، كان رأس المعتزلة فى البصرة ، وأستاذ الجاحظ ، وحاول أن يقاوم الميول الثنوية الفارسية فى الإسلام ، وأعلن أن الشك هو أول وأهم ما تتطلبه المعرفة ، وتشبه نظريته هذه فى أساسها نظرية الفيلسوف الإغريقى Anaxajoras ، وعاش بين ٥٠٠ و٤٢٨ قبل الميلاد .

ومن تكن خلْقَه فالنفسُ تَصرفُهُ

إليك طوعاً فهم دأباً يكُرُّونا

ومن ذلك أقول :

أمِن عالم الأملاك أنت أم انْسيٌّ

أبِنْ لى فقد أزْرَى بتمييزىَ العىٌّ

أرى هيئــة إنسيةً غيــر أنّــه

إذا أعمل التفكيرُ فالجرْم علْوىّ

تبــارك مَن سوَّى مــذاهب خلْقه

على أنّك النــورُ الأنيقُ الطبيعىّ

ولا شكَّ عنـدى أنَّك الروحُ ساقه

إلينا مثالٌ فى النفوس اتِّصالىّ

عدمنا دليلاً فى حدوثك شاهداً

نَقيــس عليــه غيرَ أنَّك مَرْئىّ

ولولا وقوعُ العين فى الكون لم نقل

ســوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

وكان بعض أصحابنا يُسمّى قصيدة لى « الإدراك المتوهم »
منها :

تــرى كلَّ ضـدٍّ بــه قائمـاً

فكيف تحُدُّ اختلاف المعانى

فيــأيُّها الجسـمُ لا ذا جهاتٍ

ويا عَرضـاً ثابتـاً غيـرَ فان

نَقضْتَ علينـا وجُوهَ الــكلام

فمـا هـو مُذ لُحتَ بالمسـتبان

وهذا بعينه موجود فى البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ، ولا علة ويستثقل بعضهما بعضا بلا سبب .

والحب - أعزّك اللّه - داء عياء ، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ ، وعلة مشتهاة ، لا يودّ سليمها البرءَ ، ولا يتمنى عليلهـا الإفـاقة . يزُيّن للمرء ما كان يأنف منه ، ويسـهل عليه ما كان يصعبُ عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة ، والجبلّة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصا فى بابه إن شاء اللّه .

★ خبـر :

ولقد علمت فتى من بعض معارفى قد وحلَ فى الحب ، وتورُّط فى حبائله ، وأضرّ به الوجدُ ، وأنضحه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى اللّه عز وجل فى كشف ما به ، ولا ينطق به لسان ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يحب ، على عظيم بلائه وطويل همّه ، فما الظن بسقيم ولا يريد فَقْدَ سقمه ، ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبـابه ، وسـوء حاله وإطراقـه ما ساءنى ، فقلت له فى بعض قولى : فرّج اللّه عنك ، فلقد رأيت أثر الكراهية فى وجهه .

وفى مثله أقـول من كلمة طويلة :

وأسـتلذُّ بـلائى فيـكَ يا أمـلى
ولستُ عنك مدى الأيّام أنصرفُ

إن قيـل لى أتسـلىً عن مـودّته
فمـا جـوابىَ إلا اللامُ والألف

★ **خبـر :**

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشى ، المعروف بالشمبانسى [1] ، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية [2] ، أنه لم يحب أحداً قط ، ولا أسف على إلْف بان منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والألفة إلى حدّ الحب والعشق منذ خُلق .



(١) ترجم له الضبى فى كتابه : « بغية الملتمس » ، رقم ١٢٩٦ ، وقال إنه شاعر أديب ، وكان لابن حزم صلة به ، وورد فى كل طبعات الطوق العربية « المعروف بالشلشى » وهو خطأ ، وقد صححناه عن « البغية » .

(٢) الأمير الأموى ، هشام الأول ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الداخل .

٢

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى .

فأولها إدمان النظر ، والعينُ بابُ النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعّبرة لضمائرها ، والمعربة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس .

وفى ذلك أقول شعراً منه :

فـليس لعينى عنــدَ غيرِك موقف
كأنّك ما يحـكون من حجـر الَبهْت
أُصرّفهـا حيث انصرفتَ وكيفمـا
تقلّبتُ كالمنعوت في النّحو والنّعتِ

ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك ، وإن التكلُّف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدّث ، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنّه عين المحال وخرق

العادات ، وتصديقه وإنْ كذب ، وموافقته وإنْ ظلم ، والشهادة له وإنْ جار ، واتباعه كيف سلك ، وأى وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنوّ منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، [والزهد فيها ، والرغبة عنها] ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه .

وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنكِ لم أمشِ إلاّ مَشْىَ عانٍ يُقادُ نحوَ الفناءِ
فى مجيئ إليك أحتثُّ كالبد ر إذا كان قاطعاً للسماءِ
وقيامى إنْ قمتُ كالأنجمِ العا ليةِ الثابتات فى الإبطاءِ

ومنها بَهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأتْ عيناى لابسَ حُمرةٍ تقطّع قلبى حسرةً وتفطّرا
غَدا لدماءِ الناس باللحظ سافكاً وضُرّجَ منها ثوبُهُ فتَعفّرا

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً

به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعىّ فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويُرغّب فى نفسه فكم بخيل جاد ، وقُطوب تطلّق ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرّب ، وجاهل تأدّب ، وتَفِل (١) تزين ، وفقير تجمّل ، وذى سن تفتّى ، وناسك تفتّك ، ومصون تبذّل .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّج حريقه ، وتوقُّد شعله ، واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا .

ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات ، منها :

أهْوى الحديثَ إذا ما كانَ يُذكرُ لى
فيـــه ويعبَـــق لى عـن عنبرٍ أرِج
إنْ قـال لم أستمع ممن يُجالسنى
إلى سـوى لفظـه المستطرفِ الغَنُج
ولو يكـــونُ أميـــرُ المؤمنـــين معى
ما كنتُ من أجـله عنـه بمنْعــــرج

---

(١) أرجح أن تكـــون « وتفر » ، وربمـا كان ذلك أقرب إلى الصـــواب ، لأن « تفل » معناها : المتغير الريح ، أما « تفر» فمعناها : اتسخ ، والتافر الوجل الوسخ .

فــإنْ أقـمْ عنـه مضـطرًا فإنّى لا
أزالُ مُلتفتـــا والمشْىُ مشىُ وَجِ
عينـاى فيـه وجسـمى عنـه مـرتحلٌ
مثـلُ ارتقاب الغريق البرَّ فى اللجج
أغصُّ بالمـــاء إنْ أذكُر تبـاعُدهُ
كـمنْ تثاءب وســط النقْع والوَهَج
وإنْ تقُلْ : مُمكنٌ قصدُ السماء أقُلْ :
نعَـــم وإنّى لأدرِى مَوْضــع الدَّرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشئ يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمُّد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشربُ فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، ، وتحرِّى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة ، والأسباب المحرِّكة ، والخواطر المهيِّجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادّها ، ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها ، تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه فى اليد فعل فعْل النار ، ونجد الفرح

إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين ، وهذا في العالم كثير .

فنجد المحبيْن إذا تكافيا في المحبة ، وتأكدت بينهما تأكّدا شديداً ، أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما في القول تعمدا ، وخروجُ بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليْبدو ما يعتقده كلّ واحد منهما في صاحبه .

والفرقُ بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولّدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعةُ الرضى : فإنك بينما ترى المحبّيْن قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدّر ، يصلُح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد في الزمن الطويل ، ولا ينجبر عند الحقود أبدا ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأهدرتْ المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا في الوقت الواحد مراراً ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ، ولا يدخلنك ريب ألبتّة ، ولا تَتمارَ في أن بينهما سرّاً من الحب دفينا ، واقْطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف ، ودونكها تجربة صحيحة ، وخبرة صادقة ، هذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودّة وائتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيرا .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره ، ويجعلها هِجِّيراه ، ولا يرتاح لشئ ارتياحه لها ، ولا ينهنه عن ذلك تخوّف أنْ يَفطن السامع ، ويفهم الحاضر ، وحبك الشئ يُعمى ويُصم . فلو أمكن ألا يكون حديث فى مكان يكون فيه إلا ذِكر من يحبه لما تعدّاه .

ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعام ، وهو له مُشتهٍ ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له مِن ذكرْ من يحبّ ، صار الطعامُ غصةً فى الحلق ، وشجى فى المرئ ، وهكذا فى الماء وفى الحديث ، فإنه يفاتحكه مبتهجا . فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحوالة فى المنطقة ، والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الُوجومُ والإطراق ، وشدة الانغلاق ؛ فبينما هو طلْق الوجه ، خفيفُ الحركات ، صار مُنطبقاً متثاقلا ، حائر النفس ، جامد الحركة ، يبرم من الكلمة ، ويضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد، ونحولُ الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلّب والحركة والمشى ، دليلٌ لا يكذب ومُخبر لا يخون ، عن كلمة فى النفس كامنة .

والسهر من أعراض المحبين ، وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، وحكوا أنهم رعُاة الكواكب ، وواصفو طول الليل ، وفى ذلك أقول ، وأذكر كتمان السر ، وأنه يُتوسّم بالعلامات :

تَعلَّمتِ السحائبُ من شئونى

فعمّت بالحيا السُّكُب الهتُونِ

وهذا الليلُ فيكَ غدا رفيقى

بذلك أمْ على سهرى مُعينى

فإن لم ينقْضِ الإظلام .. (١)

ألاَ ما أطقتْ نوماً جُفونى

فليس إلى النهارِ لنا سبيلٌ

وسُهْدٌ زائد فى كلّ حين

كأنّ نجومَه والغيمُ يُخفى

سناها عن مُلاحظةِ العُيون

ضميرى فى وِدادك يا مُنايا

فليس يبين إلاَّ بالظُّنون

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النُّجوم كأنّنى أنْ

أرْعى جميع ثُبوتها والخُنَّسِ

فكأنّها والليلَ نيرانُ الجوى

قد أضرمتْ فى فكْرتى من حِنْدِسِ

وكأننى أمسيتُ حارسَ روضةٍ

خضراءَ وُشِّح نبْتها بالنَّرجس

---

(١) بياض بالأصل .

لو عاش بطليموسُ أيقن أننَّى

أقوى الورزى فى رصْد جْرِى الكُنَّس

والشئ قد يَذكر لما يُوجيه : وقع لى فى هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد . وهو البيت الذى أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب فى الشعر . ولى ما هو أكملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء فى بيت واحد ، وكلاهما فى هذه القطعة التى أوردها ، وهى :

مَشُوقٌ مُعَنَّى ما ينَامُ مُسَهَّدٌ

بخمْرِ التجنّى ما يزالُ يُعَرْبِدُ

ففى ساعة يُبدى إليك عجَائباً

يَمرّ ويَستحلى ويُدنى ويُبعد

كأنّ النوى والعْتبَ والهجْرَ والرّضى

قرانٌ وأندادٌ ونحسٌ وأسعُدُ

رثَى لغرامى بعد طول تمنّع

وأصبحتُ محسوداً وقد كنتُ أحسُدُ

نَعمنا على نَوْر من الروض زاهر

سقتْه الغوادى فهو يُثْنِى ويحمَدُ

كأنَّ الحيَا والمُزن والروض عـاطراً

دمـوعٌ وأجفـانٌ وخـدٌّ مُورّدُ

ولا ينكرن عليّ مُنكر قولي « قران » ، فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة واحدة قراناً .

ولي أيضا ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة ، وهي :

خلوتُ بها والـراحُ ثـالثةٌ لنـا

وجُنْحُ ظـلام الليـل قـد مـد وانبلجْ

فتـاةٌ عـدمتُ العيشَ إلاّ بقربهـا

فهل في ابتغاءِ العيش ويْحك من حرجْ

كأنّي وهي والكأس والخمرَ والدُّجى

ثَرىً وحَياً والدُّرُّ والتبـرُ والسَّبـج

فهذا أمرا لا مزيد فيه ، ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك .

ويعرض للمُحبين القلقُ عند أحد أمرين :

أحدهما عند رجائه لقاء مَن يحب فيعرضُ عند ذلك حائل .

★ خبـر :

وإنّى لأعلم بعض من كان محبوبُه يعدِه الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جائيا وذاهباً لا يقرّبه القرار ولا يثبت فى مكان واحد ، مقبلا مدبرا قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة .

ولى فى معنى انتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءنى الليلُ راجياً
لِقـاءَك يا سُؤلِى ويا غايةَ الأمـل
فأيْأسـنى الإظلامُ عنك ولـم أكنْ
لأيأسَ يومً إن بدا الليـلُ يتصـل
وعنـدى دليـلٌ ليس يكـذبُ خُبْرُهُ
بأمثـاله فى مُشْكل الأمـر يُسـتدل
لأنك لو رُمْتَ الـزيارَةَ لـم يـكنْ
ظـلامٌ ودام النُّورُ فينا ولم يـزلْ

والثانى عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف . فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجلية ، فإمّا أنْ يذهب تحمُّله إنْ رجا العفو ، وإمّا أنْ يصير القلق حزناً وأسفا إن تخوَّفَ الهجر .

ويعرض للمُحب الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه ، وسيأتى مفسّراً فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد ، والحُمرة المقطّعة ، تغلب عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلّة الحركة والتأوّه وتنفُّس الصُّعداء .

وفي ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصبر مَسجون ودمع العين مَسْفوح (١)

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاءُ من علامات المحبّ ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامِل الشئون ، تُجيبه عينه ، وتحضُره عبرته إذا شاء . ومنهم جَمود العين ، عديم الدّمع ، وأنا منهم .

وكان الأصل في ذلك إدماني أكل الكُندر (٢) لخفقان القلب ، وكان عرض لي في الصبا ، فإني لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبي يتفطّر ويتقطع ، وأحس في قلبي غُصة أمرّ من العلقم تحول بيني وبين تَوْفية الكلام حقّ مخارجه ، وتكاد تشوقني النفس أحيانا ، ولا تجيب عيني ألبتة إلا في الندرة بالشئ اليسير من الدمع .

---

(١) في الأصل : « ودموع العين سارحة » ، وقد قومه الأستاذ حسن كامل الصيرفي وأخذت بتقويمه .

(٢) الكندر : ضرب من العلك كان يمضغ لقطع البلغم .

★ خبر :

ولقد أذكرنى هذا الفصل : يوماً ودّعت أنا وأبو بكر محمد بن إسـحاق صـاحبى أبا عامر محمـد بن عامر [١] صديقنا ، رحمه الله ، فى سفرته إلى الشرق [٢] التى لم نَرَه بعدها ، فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه ، ويُنشد متمثلاً بهذا البيت :

(١) كان صديقاً ودوداً لابن حزم ، ورافقه عندما ترك قرطبة بعد أن نهبها البربر ، وسنلتقى به أكثر من مرة عبر صفحات الكتاب ، وكان هو الذى وجه إليه ابن حزم رسالته عن فضل أهل الأندلس ، وحفظ لنا المقرى نصها كاملا فى كتابه نفح الطيب ، جـ ٤ ص ١٥٤ .

★ أما أبو عامر محمد بن عامر ، فثمة احتمال بأنه يعنى أبا عامر محمد ابن عبد الله بن يحيى بن أبى عامر ، وقد عرض له الضبى فى « البغية » دون تفصيل ، وخصه بالترجمة رقم ١٧١ ، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره . أو أننا بصدد حفيد المنصور بن أبى عامر ، الابن الوحيد للحاجب العامرى الثانى ، المظفـر عبد الملك بن أبى عـامر ، وحـكم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، من زوجتـه « خيال » ، وقد خلفه عليها بعد موته القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين فى مالقة وقرطبة إبان عصر ملوك الطوائف ، فقامت على تربية أبى عامر « الذلفاء » : جدته لأبيه . وكانت سنه حين سقطت دولة العامريين سبعة أعوام ، فغادر قرطبة سرًا إلى سرقسطة ، وأقام فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى ، وفيما بعد عاد إلى قرطبة عام ٤١٢ هـ = ١٠٢١ م ، وحاول أن يقيم لنفسه إمارة فى مقاطعتى جيان ومرسية ، وتسمى بالمعتصم ، وبعد اضطرابات كثيرة لاذ أخيراً بحصن فى مقاطعة الغرب Algarve ، جنوبى البرتغال الآن ، وهناك مات بالجدرى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م .

(٢) فى الطبعات العربية « المشرق » ، وصحتها « الشرق » ، أى الأندلس ، وليس المشرق المقابل للمغرب فى مصطلح مؤرخى العصر الوسيط ، لأن أبا عامر هذا لم تعرف له أية رحلة إلى المشرق .

ألا إنَّ عينا لم تَجُد يومَ واسطٍ عليك بباقي دَمعها لجَمُودُ (١)

وهو فى رثاء يزيد بن عمر بن هُبيرة (٢) رحمه الله ، ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة (٣) ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولا تساعدنى عينى ، فقلت مُجيباً لأبى بكر :

وإنَّ امرءاً لم يُفنِ حُسنَ اصطبارِه

عليك وقد فارقْتَه لجليدُ

وفى المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم ، أولها :

---

(١) البيت من قصيدة لأبى عطاء السندى ، واسمه مرزوق ، مولى أسد بن خزيمة .

(٢) يزيد بن عمر ، أو عمرو ، بن هبيرة الفزارى ، عامل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق ، على العراق ، وقد أعيا أبا جعفر المنصور أمره ، فقتله غدراً فى واسط ، عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م .

(٣) مالقة Malaga : مدينة قديمة ، تقع على البحر الأبيض المتوسط ، كانت فى العصر الإسلامى آهلة عامرة متصلة الكروم ، نافقة التجارة ، بها من الصناعات الهامة صناعة الفخار المذهب والزجاج والوشى ، وشهرت بالنبيذ الجيد ولا تزال ، وكانت إلى جانب هذا ميناء هاماً للتصدير والاستيراد ، وحافظت على طابعها هذا دواماً ، وهى اليوم مركز سياحى كبير ، ولا تزال قلعتها العربية قائمة على جبل يطل على البحر ، وزرتها أكثر من مرة ، ويربطها بكل من مدينتى سبتة وطنجة على الشاطئ المغربى خط ملاحى ، وكانت من بين أواخر المدن التى خسرها المسلمون فى الأندلس ، فقد سقطت فى يد الكاثوليك عام ١٤٨٧ م .

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفَحُ
ودمعٌ على الخدَّيْن يَحمى ويَسفحُ
إذا كتم المشغوفُ سرَّ ضلوعِهِ
فإنّ دموعَ العين تُبدى وتَفضحُ
إذا ما جُفونُ العين سالتْ شُئونُها
ففى القلب داءٌ للغرام مُبرِّح

ويعرض فى الحُب سوء الظن ، واتهام كل كلمة من أحدهما ، وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين . وإنى لأعلم من كان أحسن الناس ظنا ، وأوسعهم نفسا ، وأكثرهم صبراً ، وأشدّهم احتمالا ، وأرحبهم صدراً ، ثم لا يحتمل ممن يُحب شيئاً ، ولا يقع له معه أيسر مخالفة ، حتى يبدى من التّعديد فنونا ، ومن سوء الظن وجوها .

وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

أسيءُ ظنّى بكلّ مُحتقَر
تأتى به والحقيرُ من حَقَرَهْ
كى لا يُرى أصلُ هجرةٍ وقلى
فالنارُ فى بَدءِ أمرها شررة
وأصلُ عُظْم الأمورِ أهوَنُها
ومن صغير النّوى ترى الشَجَرةْ

وترى المحبَ ، إذا لم يَثق بنقاء طَوِّية محبوبه له ، كثيرَ التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك ، مثقفاً لكلامه ، مزيّناً لحركاته ومرامي طرفه ، ولا سيما إن دُهيَ بُمتجنّ وبلُي بمُعربد .

ومن آياته مراعاةُ المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبّعه لحركاته ، ولعمرى لقد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا ، والغافلَ فطناً .

★ خبـر :

ولقد كنتُ يوماً بالمريَّة ، قاعداً فى دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى ، وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها ، وكنّا فى لَمّة ، فقال له مجاهد بن الحصين القيسى (١) : ما تقول فى هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنّا ناحيةً ، اسمه حاتم ، ويكنى أبا البقاء ، فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين قلت هذا ؟ قال : لبَهْت مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنه عاشق وليس بمُريب .

---

(١) لم أجد فيما بين يدى من المصادر ما يلقى ضوءاً على شخصيتى إسماعيل بن يونس الطبيب ، ومجاهد بن الحصين القيسى .

٣

باب من أحب فى النوم

ولابُد لكل حُب من سبب يكون له أصلا ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ، ليجرى الكلامُ على نسق ، أو أن يبتدأ أبدا بالسهل والأهون ، فمن أسبابه شئ لولا أنّى شاهدته لم أذكره لغرابته .

★ **خبـر :**

وذلك أنّى دخلتُ يوما على أبى السرى عمار بن زياد صاحبنا ، مولى المؤيد (١) ، فوجدته مفكرا مهتماً ، فسألته عمَّا به ، فتمنَّع ساعة ثم قال : لى أعجوبةٌ ، ما سُمعَتْ قط . قلت : وما ذاك ؟ قال رأيتُ فى نوَمى الليلةَ جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها ، وهمْتُ بها ، وإنى لفى أصعب حال من حبها ، ولقد بقى أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شئ وَجْداً ، إلى أنْ عذلتُهُ وقلتُ له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلّق وهمك

---

(١) المؤيد ، هشام الثانى ، حكم مرتين : أولاهما من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ م ، والثانية من ١٠٠٩ إلى١٠١٣ م ، ولم أهتـد إلى ترجمـة لأبى السرى عمار بن زياد .

بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم مَن هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأى ، مُصاب البصيرة ، إذ تحب مَن لَم تره قط ، ولا خُلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقتَ صورة من صور الحمَام [1] لكنتَ عندى أعذر ، فمازلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضغاثها ، وداخل فى باب التمنى وتخيل الفكر.

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ياليتَ شعرِىَ من كانتْ وكيف سرَت
أطلعة الشـمس كانتْ أم هى القمرُ
أظنُّهـا العقـل أبـداه تدبُّرُهُ
أو صـورةُ الـروح أبْدتْها لىَ الفِكر

(١) يشير ابن حزم إلى ملمح جميل من ملامح الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، فحين فتحها المسلمون ابقوا على التراث الرومانى الذى وجدوه ، ويتمثل فى عدد كبير من التماثيل الجميلة ، وأفادوا منها فى تزيين البيوت والحدائق والحمامات بخاصة وقد رسم لنا أبو تمام بن رباح الحجام صورة شعرية جميلة ، لتمثال مريم العذراء ، تحمل المسيح بين يديها ، وكان موضوعاً فى حمام الشطارة فى إشبيلية :

ودمية مرمر تزهى بجيد — تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا — ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ، ولكن — تتيمنا بألحاظ مراض

وقد أورد نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، هذه الأبيات غير منسوبة لأحد .

أو صورةٌ مُثّلتْ فى النفسِ من أملى

فقـــد تَحيَّر فى إدراكهـــا البصر

أوْ لم يـكن كلُّ هـــذا فهى حـــادثةٌ

أتَى بهـا ســبباً فى حَتْفىَ القَــدَر

٤

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشــق أن تقع المحبة بالوصـــف دون المُعاينة ، وهذا أمر يترقّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة ، والهم والوجد ، والسهر على غير الإبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار ، تأثيراً فى النفس ظاهراً ، وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال .

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أساس ، وذلك أنّ الذى أفرغ ذهنه فى هوى مَن لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعيناً يقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسِه غيرَها ، قد مال بوَهْمه نحوها ، فإنْ وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربّات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحبُّ النساء فى هذا أثبتُ من حُب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن .

وفى ذلك أقول شعراً منه :

ويامن لامنى فى حُبّ مَنْ لم يَره طَرْفِى
لقد أفرطتَ فى وصفكَ لى فى الحبّ بالضّعفِ
فَقُلْ : هل تُعرَفُ الجنّةُ يوماً بِسوى الوصْفِ

وأقول شعراً فى استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حلّ جيْش الغرام سمْعِى   وَهْوَ على مُقلتىَّ يبدو

وأقول أيضا فى مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية:

وصفُوك لِى حتى إذا أبصرتُ ما   وصَفُوا علمتُ بأنه هَذيانُ
فالطبْلُ جلدٌ فارغٌ وطنينُهُ   يرتاعُ منه ويَفْرَقُ الإنسانُ

وفى ضد هذا أقول :

لقد وصفوك لى حتى التقيْنَا   فصارَ الظنُّ حقًّا فى العيانِ
فأوصافُ الجنانِ مُقصّراتٌ   على التحقيق عن قَدْر الجنَانِ

وإنّ هذه الأحوال لتحدُث بين الأصدقاء والإخوان ، وعنى أحدّثُ .

★ خبر :

إنه كان بينى وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد ، وخطاب كثير ،

وما تراءينا قط ، ثم منح الله لى لقاءه ، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن . فقلت فى ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كُرهاً وفَرطَ قِلى

كما الصحائف قد يُبدلْن بالنّسْخ

ووقع لى ضد هذا مع أبى عامر بن أبى عامر [1] رحمة الله عليه . فإنى كنت له على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلا يُحمل إليه عنى وإلىَّ عنه ، ويؤكّده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا . ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أودّ الناس ، وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخٌ لِىَ كَسَّبنيه اللقــــاءُ ... وأوجـدنى فيه علْقاً شريفا

وقد كنتُ أكـرهُ منه الجـوارَ ... ومـا كنتُ أرغَبــهُ لِى أليفــاً

وكان البغيضَ فصار الحبيبَ ... وكان الثقيلَ فصار الخفيفا

وقد كنتُ أُدْمنُ عنـه الوجيفَ ... فصـرتُ أديمُ إليـه الوجيفـا

---

(١) الحديث أكيداً عن ابن لعبد الملك المظفر ، وعرضنا له من قبل ، فى الباب الثانى ، وينفى أننا بصدد المظفر نفسه فارق السن بينه وبين ابن حزم ، فلقد كان والد ابن حزم والمظفر نفسه فى خدمة هشام الثانى المؤيد ، كما يفهم ذلك من كلام المؤلف .

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرى (١) فكان لى صديقاً مدة على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

(١) ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، الترجمة رقم ١١٠٧ ، وأورد اسمه كاملا : عبد الواحد (بدلا من عبد الرحمن) بن محمد بن موهب بن محمد التجيبى ، أبو شاكر ، ويعرف بابن القبرى ، وقال إنه فقيه محـدث أديب خطيب ، نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وأورد له الضبى ، برواية ابن حزم ، أبياتاً من الشعر ، وذكر أنه توفى عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م وسنلتقى به فيما بعد مرة أخرى فى الباب الثامن والعشرين .

٥

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف الذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرءُ صورة لا يعلم مَن هى ، ولا يدرى لها اسما ولا مستقرا ، وقد عرض لغير واحد .

★ خبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق [(١)] عن ثقة أخبره ، سقط عنى اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء [(٢)] ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادى [(٣)] كان مجتازاً عند

(١) عن أبى بكر محمد بن أحمد بن إسحاق ، انظر : الباب الثانى ، الهامش رقم ٥ .

(٢) القاضى محمد بن يحيى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحذاء ، فقيه محدث حافظ ، له رحلة إلى المشرق ، توفى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، وقد خصه الضبى فى كتابه « البغية » بترجمة قصيرة .

(٣) يوسف بن هارون الرمادى الكندى ، يكنى أبا عمر ، من كبار شعراء الأندلس على أيام المنصور بن أبى عامر ، وجانب كبير من شعره ضاع ولم يصلنا ، والرمادى ليس نســبة إلى موضع بالمغرب كما وهم الحميدى فى كتابه «جذوة المقتبس» ، وإنما الصورة العربية لكنيته باللغة الرومانثية على أيامه ، فقد كان يلقب بأبى جنيش ، فنقل إلى الرمادى ، لأن جنيش فى رومانثية الأندلس ، وفى الأسبانية المعاصرة ، تعنى الرماد ، توفى سنة ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م .

باب العطارين (١) بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلّل حبُّها جميعَ أعضائه ، فانصرف عن طريق الجـامع وجعل يَتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة (٢) . فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَّبض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم فى

(١) باب العطارين ، أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة ، ويقع فى الجانب الغربى من المدينة ، ومنه يبدأ الطريق المؤدى إلى إشبيلية ، ومن هنا كان يعرف أيضاً باسم باب إشبيلية ، وحوله كانت تقوم تجارة العطور وأدوات الزينة، فأصبح ملتقى النساء من كل أنحـاء المدينة ، وعلى مقربة منه كان حى الرقاقين ، الذين يصنعون الرقاق ، ومسجد النخيلة .

(٢) القنطرة جسر قديم على الوادى الكبير ، وتقول الرواية إن الإمبراطور الرومانى أوجست Auguste (٦٣ ق م - ١٤ م) أمر بإنشائه ، وبقى طوال العصر الإسلامى موضع رعاية الدولة وعنايتها ، وكان أول تجديد أصابه على يد الوالى السمح الخولانى ، بأمر من عمر بن عبد العزيز ، ثم جدد ورمم بعد ذلك فى عصور مختلفة أكثر من مرة ، وكان يقع عند نهاية الشارع الرئيسى فى قرطبة الإسلامية ، ويسمى بالمحجة العظمى ، ويبدأ من أعلى المدينة ، عند باب عبد الجبار ، ماراً بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، ويعرف أيضاً باسم باب الوادى ، والوادى تعنى النهر فى لغة الأندلس ، وباسم باب الجزيرة الخضراء ، وكان يصل بين المدينة وربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، ويدعى ربض شقندة ، وكان يعد من المدينة لا من ضـواحيها ، لأنه قديم ومسور ، وكان يسكنه العمال وأهل الأسواق ، وفيه اندلعت الثورة على الحكم الأول ، وإلى الربض نسبت ، وقد انتصر فيها الحكم بعد عناء ، فنفى سكانه ، وأتى على بنيانه ، وتحول فى جانب منه إلى مقبرة عرفت باسم مقبرة الربض .

مقبَرة الربضُ ، خلْف النهــر ، نظــرت منه منفــرداً عن النــاس ، لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها . فقالت له : دع عنك هذا ، ولا تطلُب فضيحتى ، فلا مطمع لك فىّ البتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : يا سيدتى : أحرة أم مملوكة ؟ فقالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خَلْوَة ، قال : ولمن أنت فقــالت له : علْمُكَ والله فى السـماء السـابعة أقرب إليـك مما سألت عنه ، فدع المحـال . فقـال لها : يا سـيدتى ، وأين أراك بعـد هذا ؟ قالت : حيث رأيتنى اليـومَ ، فى مثـل تلك الساعة من كلُ جمعة . فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا ؟ فقـال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضـت نحو القنطرة ولم يمكنه اتـباعها لأنها كانت تلتفت نحـوه لترى أيسـايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمـرو ، وهو يوسـف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطـارين والربض من ذلك الوقـت إلى الآن ، فمـا وقعت لها على خبر ، ولا أدرى أسـماءٌ لحَسَتها أم أرض بلعتهـا ، وإن فى قلبى منها لأحرّ من الجمر ، وهى خلْوة التى يتغزل بها فى أشعاره .

ثم وقع بعـد ذلك على خَبرها بعد رحيله فى سببها إلى سرَقَسطة (١) فى قصة طويلة (٢) ، ومثل ذلك كثير .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عَيْنى جَنتْ فى فؤادِى لوعة الفِكَرِ

فأرْسَلَ الدمـع مُقْتَصًّا من البصرِ

---

(١) سرقسطة : فى شمال شرقى الأندلس ، مدينة قديمة جداً ، وقد جعل منها الإمبرطور الرومانى أوجست مستعمرة حربية أعطاها اسمه Caesarau-gust ، وحرف على أيام القوط فأصبح C esargustc، وصار على أيام المسلمين سرقسطة ، ومنها جاءت التسمية الإسبانية Zaragoza وكانت على أيام المسـلمين قاعدة الثغر الأعلى ، وعرفت بعروس الإبرو ، النهر الذى تقع عليه ، وسميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، أو لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض ، ومن آثارها الإسلامية القائمة حتى يومنا هذا قصر الجعفرية La Jaferia ، وكان مقراً لبنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف ، وقد سقطت المدينة صلحاً فى يد الكاثوليك فى ٤ من رمضان ٥١٢ هـ = ١٩ من ديسمبر ١١١٨ م ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وأصبحت حاضرة مملكة أرجون المسيحية ، وتخلفت فيها جاليات إسلامية كبيرة ، حملت اسم المدجنين ، وعاشت فيها ، وفى مقاطعتها ، قروناً طويلة ، وقامت بدور بارز فى نقل الحضارة الإسلامية إلى الغزاة الكاثوليك ، وبخاصة فى مجال المعمار ، وشهرت طريقتهم باسم فن المدجنين ، وهى اليوم مدينة كبيرة عامرة .

(٢) أورد الضبى جانباً من هذه القصة ، فى ترجمته ليوسف ، انظر :

– البغية ، الترجمة رقم ١٤٥١ .

فكيف تُبْصرُ فعلَ الدمع مُنتصفاً
منها بإغراقها فى دَمْعها الدُرر
لم ألْقَهَا قبل إبصارِى فأعرِفَها
وآخرُ العهد منها ساعةُ النظر

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرُء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبرٌ بسرعة السلو ، وشاهد الطرافة والملل ، وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نموا أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفاداً .

★ خبر :

إنى لأعلم فتى من أبناء الكُتاب رأته امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، وهو مجتاز ، ورأته فى موضع تَطلع منه كان فى منزلها ، فعلقتْه وعَلقها ، وتهاديا المراسلة زمانا على أرق من حد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد ، لأوردت مما صح عندى أشياء تحير اللبيب ، وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنّه ، وكفانا .

٦

باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة ، وكثير المُشاهدة ، ومتمادى الأنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرُّ الليالى ، فما دَخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبى ، وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم ، وهو فخّار ، فهاب وجزع : ادخل كرها واخرج كرهاً . حُدِّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إنْ أحس من نفسه بابتداء هوى ، أو تَوَجّس من استحسانه ميلا إلى بعض الصور ، استعمل الهجر وترك الإلمام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويحال بين العَيْر والنزوان ، وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنه إذا تمكن منهم لم يحل أبداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبْعُدُ عن دواعِي الحبِّ إنّى ... رأيتُ الحزمَ من صِفةِ الرشيدِ
رأيتُ الحُبَّ أوّلُهُ التصدّى ... بعَيْنِكَ فى أزاهيرِ الخُدودِ

فبْينــا أنتَ مُغتبــطٌ مُخَلّىً   إذا قد صِرْتَ فى حلَقِ القيود
كــمُغترٍّ بضَحضــاحٍ قَريبٍ   فــزلَّ فغابَ فى غَمْرِ المــدُوْد

وإنى لأطيل العجب من كل مَن يدعى أنه يحب مِن نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حُبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حُب قطُّ إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهراً ، وأخْذى معه فى كل جدّ وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والتوقّى ، فما نسيت ودًّا لى قط ، وإن حَنينى إلى كل عهد تقدّم لى لَيَغَصُّنى بالطعامُ وُيشرقنى بالماء ، وقد استراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشئ قط أول لقائى له ، وما رغبت فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت ، لا أقول فى الألاّف والإخوان وحدهم ، ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم ، وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ، ولا فارقنى الإطراق والانغلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشَجى يعتادنى ، وولوع همٍّ ما ينفك يطْرقنى ، ولقد نَغَّص تذكّرى ما مَضى كل عيش أستأنفه ، وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

مَحَبَّةُ صِدْقٍ لم تكن بنتَ ساعةٍ
ولا وَرِيتْ حين ارتيـــادِ زِنَادُهـا
ولـكنْ على مَهْلٍ سَرَتْ وتولّـدتْ
بطـول امتزاجٍ فاستقرّ عمادُها
فلم يَدْنُ منها عزْمها وانتقاضُها
ولم يَنْـأ عنها مُكْثُها وازديادُهـا
يؤكّد ذا أنّا نـرى كلَّ نشـــأة
تَتِمُّ سريعـا عن قريبٍ معــادها
ولكنّي أرضٌ عـــزازٌ صـلَيبةٌ
منيعٌ إلى كلّ الغروسِ انقيادُها
فمـا نفـذتْ منها لديْها عُروقُها
فليستْ تُبالى أن يجود عهادُها

ولا يظن ظانّ ، ولا يتوهّم متوهم ، أن كل هذا مخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة ، أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العُلْوى ، بل هو مؤكد له ، فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأعراض ، وأحاطت بها

الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها ، وإن كانت لم تحله لكن حالت دونه ، فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس ، والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدىّ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ، فإذا غَلبت الشهوة ، وتجاوزت هذا الحد ، ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمي عشقا ، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفا ، وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثان .

وفى ذلك أقول :

كذب المُدعيِ هـــوى اثنين حتْمـا   مثل ما فى الأصول أكْذب مانى
ليس فى القـــلب موْضعُ لحبيبيـ   ـن ولا أحْـــدثُ الأمـور بثـانى
فكمـا العقـلُ واحدُ ليس يهـوى   خالقـا غيـر واحـد رحمـــان
فــكذا القلبُ واحـدُ ليس يهــوى   غـــيرَ فَـرد مُبـــاعد أو مـــدان

هُوَ في شِرْعـة المـودّة ذو شِرْ ... كٌ بعيـدٌ مِن صحّة الإيمـان
وكذا الدِّين واحـدٌ مسـتقيم ... وكَفُـورٌ مَـن عنـده دينـان

وإنى لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب ، كان يبتاع الجارية وهى سالمة الصدر من حبّه ، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه ، وقطوب دائم كان لا يفارقه ، ولا سيما مع النساء ، فكان لا يلبث إلا يسيرا ريثما يصل إليها بالجماع ، ويعود ذلك الكُرْهُ حبا مُفرطا ، وكلفا زائدا ، واستهتارا مكشوفا ، ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه . صحبه هذا الأمر في عدة منهن ، فقال بعض إخوانى : فسألته عن ذلك فتبسم نحوى وقال : إذاً والله أخبرك . أنا أبطأ الناس إنزالا . تقضى المرأة شهوتها ، وربما ثنت ، وإنزالى وشهوتى لم ينقضيا بعد ، وما فترت بعدها قط ، وإنى لأبقى بُمنّتى بعد انقضائها الحين الصالح ، وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة الا عند تعمدى المعانقة ، وبحسب ارتفاع صدرى نزولُ مؤخرى [1] .

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة . إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

---

(١) نلتقى بالفكرة نفسها ، فى أكثر من موضع ، من مؤلفات الشاعر اللاتينى اوفيد Ovide (٤٣ ق م – ١٧ م) : « غراميات Amours » و « فن الحب L'Art d'Aimer » ، وقد ترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان: « فن الهوى » و « شفاء الحب Remede de L'amour » .

٧

باب من أحب صفة

لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم – أعزّك الله – أن للحُب حكما على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يُخالف ، وحدّا لا يُعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفَاذاً لا يرد ، وأنه ينغص المِرَر ، ويَحُلّ المُبرم ، ويحلّل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغافَ ، ويُحلّ الممنوع .

ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون فى تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ، ولا اختلال بحُسن اختيارهم ، ولا تقصير فى حَدْسهم ، وقد وصفوا أحباباً لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ، ولا يُرْضى فى الجمال ، فصارت هجيراهم ، وعُرضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم ، ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بَيْن أو هجر ، أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ، ولا بان عنهم تفضيلُها ، على ما هو أفضل منها فى الخليقة ، ولا مالوا إلى سواها ، بل صارت تلك

الصفات المُستجادة عند الناس مهجورة عندهم ، وساقطة لديهم ، إلى أن فارقوا الدنيـا وانقضت أعمـارهـم ، حنينا منهم إلى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه ، وما أقول إنّ ذلك كان تصنّعا لكن طبعا حقيقيًا ، واختياراً لا دَخَل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون فى طىّ عَقْدهم بغيره .

وإنى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعضُ الوقص ، فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف مَن كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَـر ، فما أحبّ طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضاً مَن هوى جارية فى فمها فَوه لطيف ، فلقد كان يتقذّر كل فم صغير ويذُمه ، ويكرهه الكراهية الصحيحة ، وما أصف من منقوصى الحُظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر قسطاً فى الإدراك ، وأحقهم باسم الفهم والدّراية .

وعنى أخبرك :

أنى أحببتُ فى صباى جارية لى شقراء الشعر . فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، ولا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عَرض لأبى رضى الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه .

وأما جماعة خلفاء بنى مروان – رحمهم الله – ولا سيما ولدُ الناصر [1] منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ، ورأينا من رآهم ، من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعا إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر [2] رحمه الله ، فإنى رأيته أسود اللمّة واللحية .

وأما الناصر والحكم المُستنصر [3] ، رضى الله عنهما ، فحدثنى

---

(١) يشير إلى عبد الرحمن الناصر ، أول وأعظم خليفة أندلسى ، وحكم من ٩١٢ إلى ٩٦١ .

(٢) سليمان الظافر ، ويعرف بالمستعين ، تولى الخلافة خلال فتنة قرطبة عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وتسمى حينئذ الظافر بالله ، إلى جانب لقب المستعين بالله ، ثم أخرج من قرطبة مهزوماً ، وعاد إليها ثانية خليفة عام ١٠١٣ م ، وبقى فى الخلافة حتى عام ١٠١٦ م . وكان من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة ، وقد أمدنا ابن الأبار فى الحلة السيراء بتفصيلات وافية ودقيقة عن الأحداث التى اضطرب فيها .

(٣) الحكم المستنصر ، ثانى خلفاء بنى أمية فى قرطبة ، ولى الخلافة بعد أبيه الناصر ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، وظل خليفة حتى وفاته فى ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م . وكان حسن السيرة ، جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب فى أنواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، ويحكى ابن حزم ، عن تليد الخصى وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر .

الوزير أبى رحمه الله وغيره : أنهما كانا أشقَرين أشهلين ، وكذلك هشام المؤيّد [1] ، ومحمد المهدى [2] ، وعبد الرحمن المرتضى[3]

(١) هشام المؤيد ، ابن الحكم المستنصر ، تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان صبياً غراً ، مشتغلا باللعب والفتك والخلاعة ، فحجر عليه وزيره المنصور بن أبى عامر ، ولم يترك له سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم ، وبدأ ما يعرف فى تاريخ الأندلس بعصر الحجابة ، وفيه كانت القوة الفعلية بيد المنصور ، الذى تسمى بالحاجب ، وقد تولى هشام الخلافة على فترتين ، من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ .

(٢) المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أول من ثار من بنى أمية الأندلسيين على الحاجب العامرى الثالث ، عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكانت العامة تسميه شنجول ، أخذا من كلمة Sanchuelo تصغير لفظ Sancho أى شانجه الصغير ، وشانجه ملك نبرة (٩٧٠ - ٩٩٥ م) جدة لأمه ، فقد تزوج المنصور بن أبى عامر ابنة ملك نبرة ، واعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم عبدة ، وأنجب منها المنصور عبد الرحمن هذا ، وحاول أن يجعل من نفسه ولى عهد الخليفة ، وقد تزعم المهدى الثورة دفاعاً عن حق بنى أمية فى الخلافة ، وثأر لأبيه ، وكان عبد الرحمن قد قتله ، وتبعته عامة قرطبة ، ودفع بهم إلى مدينة الزاهرة مقر العامريين فانتهبوها ، وقتل عبد الرحمن ، وأعلن نفسه خليفة عام ١٠٠٨ ، ولكن خلافته لم تطل فقد قتل عام ١٠١٠ بعد أحداث أسيفة .

(٣) عبد الرحمن بن محمد ، من ولد عبد الرحمن الناصر ، نصب خليفة بشرق الأندلس ، وتسمى المرتضى ، وقد حاول بمن معه أن ينتزع قرطبة من القاسم بن حمود ، وهو فى طريقه إليها اصطدم بزاوى بن زيرو بن مناد ، أمير غرناطة ، وكان ابن حزم مع الخليفة المرتضى فى حملته هذه ، وقد اقتتل الفريقان أياماً ، ثم انهزم الأندلسيون ، بتعبير ابن بسام ، بقيادة المرتضى ، أمام بربر غرناطة بقيادة زاوى ، وتفرق جيش المرتضى لا يلوى أحد على أحد ، تاركين وراءهم زادهم وعتادهم ، وفر المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وهناك اغتالته عصابة مستأجرة ، فى ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م .

رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مرارا ، ودخلت عليهم ، فرأيتهم شُقراً شُهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدرى أذلك استحسان مركّب فى جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم فى ذلك فجروا عليها ، وهذا ظاهر فى شعر أبى عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر ، وهو المعروف بالطليق [١] ، وكان أشعر أهل الأندلس فى زمانهم ، وأكثر تغزله فبالشُّقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك فى سواه فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ، ثم غلب عليه هوى عارضٌ بعد طول بقائه فى الجماعة ، فأحاله عما عهدته نفسُه حوالة صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول ، وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا ، فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلاّ الأدنى ، فأعجب لهذا التغلب الشديد ، والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقا ، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدّعى غريزة لا تقبله ، فيزعم أنه

(١) ورد الاسم محرفاً فى الطبعات العربية على النحو التالى : « ... فى شعر عبد الملك بن مروان » ، وقد صححناه ، وهو أشهر من أن يخطئ إنسان فى كتابة اسمه ، ولمعرفة الشاعر الطليق ، انظر :

★ غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص ٥٨ وما بعدها ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ط ٤ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ .

يتخيّر مَنْ يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخيّر والارتياد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه .

منهمْ فتىً كان فى مَحبوبه وقصُ
كأنمَّا الغَيْدُ فى عَيْنيه جِنَّانُ

وكان مُنبسطاً فى فضْلِ خِيرَته
بحجّةٍ حقُّها فى القوْل تِبْيان

إن الْمَهَا وبها الأمثالُ سائرةٌ
لا يُنْكِرُ الحسنَ فيه الدهرَ إنسان

وقْصٌ فليس بها عنقاءُ واحدةٌ
وهل تُزانُ بطولِ الجيدِ بُعْران

وآخرُ كان فى محبوبِه فَوَهٌ
يقول حَسْبىَ فى الأفواهِ غِزْلان

وثالثُ كان فى محبوبِه قصرٌ
يقول إنّ ذواتِ الطُّول غيلان

وأقول أيضا :

يَعِيبونَها عندى بشُقْرَة شَعرها
فقلتُ لهم هذا الذى زانها عندى

يعَيبــــون لون النُّوْر والتّبر ضِـلّــةً

لرأيِ جَهــــولٍ فى الغــواية ممتــدّ

وهل عابَ لونَ النرجسِ الغضّ عائبٌ

ولون النجـومِ الزاهــراتِ على البُعْدِ

وأبعــدُ خلــقِ اللّهِ مــن كُل حــكمةٍ

مُفَضّلُ جِرْمٍ فاحـم اللـــون مُســودّ

بهِ وُصِــفتْ ألــوانُ أهـــل جهنّمٍ

ولِبْســةُ باكٍ مُثْكلِ الأهـــلِ مُحْتدّ

ومُذ لاحت الرايــاتُ ســوداً تيقّنتْ

نفوُس الورَى أنْ لا سبيلَ إلى الرُّشد

٨

باب التعريض بالقول

ولابد لكل مطلوب من مَدخل إليه ، وسبب يتُوصّل به نحوه ، فلم ينفرد بالاختراع دون واسـطة إلا العليمُ الأول جلّ ثناؤه . فأول ما يستعمل طلاب الوصل ، أو أهل المحبة فى كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريضُ بالقول : إمّا بإنشاد شعر ، أو بإرسال مُثُل ، أو تعمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام .

والناس يختلفون فى ذلك على قدر إدراكهم ، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم ، من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة ، وإنى لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلتُها . فهذا وشبهه يبتدئ به الطالب للمودة ، فإن رأى أنسا وتسهيلا زاد ، وإنْ يعاين شيئاً من هذه الأمور فى حين إنشاده لشئ مما ذكرنا ، أو ايراده لبعض المعانى التى حددنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لمْوقِف بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً ، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول جنس ثان ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ، ومعرفة المحبّة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكىّ . وعقد المواعيد ،

والتقرير ، وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غيرُ ما يذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام ، على حسب ما يتأدى إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كلٌ واحد منهما عن صاحبه ، وأجابه بما يفهمه غيرهما ، إلا من أيد بحسّ نافذ ، وأعين بذكاء ، وأمد بتجربة ، ولا سيما إنْ أحس من معانيهما بشئ ، وقلما يغيب عن المتوسم المجيد فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها في بعض وصْلها على بعض مالا يجمل . فقالت : والله لأشكونّك في الملأ علانية ، ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر الملوك ، وأركان الدولة ، وأجلّ رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوقّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفي المجلس مغنيات غيرُها ، فلما انتهى الغناء إليها سوّت عودها واندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهى :

غَــزالٌ قد حــكى بـدرَ التّمــامِ
كشــمسٍ قد تجلّتْ من غَمــامِ
ســبَى قلْبى بالحــاظ مِراضٍ
وقَــدِّ الغصــنِ فى حُسنِ القَوام

خضعتُ خضوعَ صبٍّ مستكينٍ

لـــــه وذللتُ ذلّـــــة مُسْـــــتَهام

فَصِلْنى يا فـــــديُتك فى حـلالٍ

فمـــا أهـــوى وِصـــالاً فى حرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عتـــــابٌ واقـــــعٌ وشِكاةُ ظُلمٍ

أتتْ من ظـــالمٍ حـــكَمٍ وخَصْمَ

تشكّتْ ما بـــها لم يدر خـــــلقٌ

ســـوى المشــكُوّ ما كانت تُسمّى

٩

باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارة بلحظ العين ، وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقام المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقطع به ويُتواصل ، ويُوعد ويهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الأوعاد ، وينبه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفُه إلا بالأقل منه ، وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بموّخر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة

من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام ، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأضحها دلالة ، وأوعاها عملا ، وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق ، وتميّز الصفات وتفهم المحسوسات ، وقد قيل ليس المُخبرُ كالمعاين ، وقد ذكر ذلك افليمون (١) صاحب الفِراسة ، وجعلها معتمدة فى الحكم .

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شُعاعاً مجلوًا صافيا ، إما حديداً مصقولا أو زجاجاً أو ماء ، أو بعض الحجارة الصافية ، أوسائر الأشياء المجلوة البراقة ، ذوات الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر منّاع كدر ، انعكس شماعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً ، وهو الذى ترى فى المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك ، ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين ، فتمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك ، والثانية بيسارك قبالة وجهك ، ثم تزويها قليلا حتى يلتقيا بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك ، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلفك ، أذ لم تجد منفذا فى التى

---

(١) افليمون Philemon أشهر مؤلف إغريقى فى علم الفراسة ، وقد ازدهر فى القرن الثانى للميلاد .

بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم ، وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظام خالف فى الإدراك ، فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد .

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانة ، لأنها نوريّة لا تُدرَك الألوان بسواها ، ولا شئ أبعد مرمى ، ولا إناى غاية منها ، لأنها تُدرَك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلاّ لاتصالها فى طبع خِلقتها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقل الركات ، وليس هذا لشئ من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب ، ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوّت قبل سماع الصوت ، وإنْ تعمّدت إدراكهما معاً وإن كان إدراكهما واحداً لمَا تقدمت العينُ السمعَ (١) .

---

(١) عرض ابن حزم لنظريته فى الرؤية تفصيلا فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » .

١٠

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك ، إذا امتزجا ، المراسلةُ بالكتب ، وللكتب آفاق .

ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكُتب ، وبحلّها في الماء ، ويمحو أثرها ، فُرب فضيحة كانت بسبب كتاب .

وفي ذلك أقول :

عزيزٌ عليَّ اليومَ قطعُ كتابِكُمْ
ولكنّه لم يُلْفَ للودّ قاطِعُ
فآثرتُ أن يَبقى ودادٌ ويَنمحي
مِدادٌ فإن الفَرعَ للأصلِ تابع
فكم من كتابٍ فيه ميتَةُ ربِّه
ولم يَدرِه إذْ نمّقتْهُ الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس ، ولعمري إن الكتاب لِلسان في بعض الأحايين ، إما لحصرٍ في الإنسان ، وإمّا لحياء ، وإمّا لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب ، وعِلم المُحب أنه قد وقع بيده ورآه ، للذة

يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يَعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ، ويدقق فى الحقائق، لايَدع المُراسلة وهو ممكن الوصول ، قريب الدار و أتىّ المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة ، ولقد أخْبرتُ عن بعض السُّقّاط الُوضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قبيح ، وضَرْب من الشّبق فاحش .

وأمّا سَقْىُ الحبْر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ، ويُقارضه محبوبه بسقى الحبر بالرّيق .

وفى ذلك أقول :

جـــوابٌ أتانى عن كتـابٍ بعثتـــهُ
فســـكَّن مُهتـاجٌ ،هيَّجَ ســـاكناً

ســقْيتُ بدَمــع العينِ لمَّـــا كتبْتُه
فَعَالَ مُحبٌ ليس فى الـودّ خائنـاً

فمازال ماءُ العينِ يمحــو سُطـورهُ
فيا ماءَ عَيْنى قد محوْتَ المحاسنا

غَـــدا بدمُوعى أولُ الخطّ بيننــا

وأضحى بدَمعِى آخرُ الخطّ بائنا

★ خبــر :

ولقد رأيتُ كتاب المُحب إلى محبوبه ، وقد قطّع في يده بسكين له ، فسال الدم ، واستمدّ منه ، وكتب به الكتاب أجمعَ ، ولقد رأيت الكتاب بعد جُفوفه فما شككتُ أنه بصبْغ اللك (١) .

---

(١) صاغ ابن قزمان هذه الفكرة زجلا ، ونلتقى بها عنده فى آخر دور من الزجل رقم ١١٢ من ديوانه :

وكن لرسولى قريب الحجاب .

وإن كان وترضى وترسل كتاب .

بدمى سطر إليك الجواب .

ونبرى عظمى مكان القلم .

١١

باب السفير

ويقع فى الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة ، وتمام الاستئناس ، إدخال السفير ، ويجب تخيُّره وارتياده ، واستجادته واستفراهه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد اللّه تعالى .

فينبغى أن يكون الرسول ذا هيئة ، حاذقاً يكتفى بالاشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويُحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما أغفله باعثه ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للأسرار حافظا ، وللعهد وفيا ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولُكَ سيفٌ فى يمينكَ فاستجدْ
حُساماً ولا تضربْ به قبل صقْلهِ
فمـن يكُ ذا سـيفٍ كهَامٍ فَضُرُّه
يعـودُ على المعْنىّ منْـه بجهـله

وأكثر ما يستعمل المحُبون فى إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملا لا يُؤبه له ، ولأيهتدى للتحفظ منه ، لصباه أو لهيئة رثة أو بذاذة فى طلعته .

وإما جليلا لا تلحقه الظّنن لنسك يظهره ، أو لسن عالية قد بلغها ، وما أكثر هذا فى النساء ، ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين ، وإنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجّامة ، والسراقة والدلّلة، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الأوصاف ، وعسير يُسر ، وبعيد قُرب ، وجموح أنس ، وكم داهية دهت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها ، وقلة الثقة بكل واحد ، والسعيد من وعظ بغيره ، وبالضد تتميز الأشياء ، أسبل اللّه علينا وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا أزال عن الجميع ظل العافية (١) .

(١) ترك هذا الباب أثراً واضحا فى الأدب الإسبانى ، فرواية لاثليستينا La Celistna ، أو القوّادة ، لمؤلفها فرناندو دى روخاس Fernando de Rojas (١٤٥٣ - ١٥٤١ م) بطلتها عجوز مهمتها التوفيق بين الرءوس فى الحرام ، وقد أفاد مؤلفها أو مؤلفوها ، من هذا الفصل مباشرة ، أو عن طريق مؤلفات إسبانية أخرى أفادت من ابن حزم، وعرضنا لهذه القضية فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

★ **خبر :**

وإنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ، ويُعقد الكتاب فى جناحها ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

تحيَّرها نوح فما خابَ ظَنُّــهُ
لديْهَــا وجاءتْ نحوَهُ بالبشائرِ

سأودِعها كُتْبى إليكِ فهاكهَــا
رَسائلَ تُهدَى فى قوادِمِ طائرِ

١٢

باب طى السر

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان ، وجحود المحب إن سُئل ، والتصنّع بإظهار الصبر ، وأنْ يُرى أنه عِزهاة خلىّ ، ويأبى السرُّ الدقيق ، ونأر الكلف المتأججة فى الضلوع ، إلا ظهوراً فى الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى الفحم ، والماء فى يبيس المدر ، وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال .

وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب المرء المسلم أن يعفَ عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن وتمكّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه ، إذ القلوب بيد مُقلّبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخِلْقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة .

وفى ذلك أقــول :

يلوُم رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى
وســيّانَ عندى فيك لاحٍ وساكتُ

يقولون : جانبتَ التصـأُونَ جُمـلةً
وأنتَ عليهــم بالشريعــةِ قــانتُ

فقــلتُ لهـم : هــذا الرّياءُ بِعيْنـِه
صُراحــاً وَزِىٌّ للمــرائين ماقِت

متى جاء تحريمُ الهوَى عن محمدٍ
وهــل منْعُهُ فى مُحكم الذكرِ ثابت

إذا لــم أُوَاقِــعْ مَحْرَماً أتَّقِى به
مَجيئ يومَ البعثِ والوجــهَ باهــت

فلستُ أبالى فى الهوى قول لائم
ســواء لعمــرى جاهرٌ أو مُخافت

وهــل يلزمُ الإنســانَ إلاّ اختيارُهُ
وهل بخبـايا اللفظ يُؤْخَذُ صامت

★ **خبـر :**

وإنى لأعرف بعض من أمتحن بشئ من هذا فسكَّنَ الوجدَ بين جوانحه ، فرام جحده إلى أن غلظ الأمر ، وعرف ذلك فى شمائله

من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرّض ، وكان مَن عرض له بشئ نجهه وقبّحه ، إلى أنْ كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوما قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره ، وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذا اجتاز بهما الشخص الذى كان يتهم بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب ، وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معانى كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه . فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره ، فقيل له ما عدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عذر من عذر ، وعذل من عذل .

ففى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما عـاش إلا لأن المـوتَ يرحمه
ممَّا يُرى مِن تباريحِ الضنى فيه

وأنا أقول :

دموعُ الصبِّ تَنْسَفِكُ   وسِــتْرُ الصــبِّ ينهتكُ
كأنّ القــلب إذ يبـدو   قطاةٌ ضَمَّهــا شَرَكُ
فيا أصـحابَنا قولوا   فإنّ الــرأىَ مشــتَرَكُ
إلى كَــمْ ذا أكَاتِمُــهُ   ومــا لِى عـنه مُتَّـرك

وهذا إنمّا يعرض عند مقاومة طبع الكتمان ، والتصاون لطبع

المحب وغلبته ، فيكون صاحبه متحيرا بين نارين محرقتين ، وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه ، وإن لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع .

وفى ذلك أقول :

دَرَى النـاسُ أنىّ فتًى عاشقٌ
كئـيبٌ مُعَنًّى ولـكن بمـن
إذا عاينـوا حـالتى أيقنوا
وإنْ فَتّشوا رجعـوا فى الظنن
كخـطّ يُرى رَسْـمُهُ ظـاهرًا
وإنْ طلبـوا شَرْحَـه لم يَبِنْ
كصَوتِ حَمـامٍ عـلى أيْكةٍ
يُرَجِّعُ بالصـوْتِ فى كل فـن
تَلَذُّ بفحـواهُ أسـماعُنا
ومعنـاهُ مُسْتعجَمٌ لم يَبِن
يقـولون : باللّهِ سَـمِّ الذى
نفَى حُبُّـه عنـك طيبَ الوسَن
وهيهـاتَ دونَ الـذى حاولوا
ذَهـابُ العُقُول وخَـوضُ الفِتَن

فهم أبدًا فى اختلاج الشكوك

بـــظنٌ كَقَطـــعٍ وقَطْـــعٍ كظـــن

وفى كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسرّ عنـــدى مـــكانٌ لو يحـــلُّ به

حيٌّ إذًا لا اهتـــدى رَيْبُ المنون لَهُ

أميتُـــهُ وحيـــاةُ السرّ ميتتُـــه

كما سُرورُ الْـمعنَّى فى الهوى الوَلَهُ

وربما كان سبب الكتمان توقّى الـمُحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة قدر المحبوب .

★ خبـر :

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزّل فيه بصبح أم المؤيّد (١) رحمه الله ، فغنّت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلها .

---

(١) كانت السيدة صبح ، أم هشام المؤيد ، مرتبطة عاطفياً بالمنصور بن أبى عامر ، على نحو ما أشرنا من قبل ، ويرجح أنها كانت عشيقته فى سنى شبابه ، وأياً ما كان الأمر ، فمن الثابت أنها كانت وراءه فى رحلة المجد التى قطعها من موظف صغير فى بلاط الخليفة ، إلى أقوى رجل فى الدولة ، ولعله أحس بأن فى الأبيات تعريضاً به .

★ خبر :

وعلى مثل هذا قُتل أحمد بن مُغيث [1] . واستئصالُ آلِ مُغيث ، والتسجيل عليهم ألا يستخدم بواحد منهم زبداً ، حتى كان سبباً لهلاكهم ، وانقراض بيتهم ، فلم يبقى منهم إلا الشريد الفالّ ، وكان سبب ذلك تغزّله بإحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير .

ويُحكى عن الحسن بن هانئ [2] أنه كان مغرما بحب محمد بن هارون ، المعروف بابن زُبيدة [3] ، وأحسّ منه ببعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه . فذُكر عنه أنه قال : إنّه كان لا يقدر أن يُديم النظر إليه إلاّ مع غلبة السكر على محمد .

وربما كان سبب الكتمان ألا يَنفِر المحبوب به ، فإنى أدرى من كان محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان

---

(١) بنو مغيث أسرة قرطبية عريقة ، تنسب إلى مغيث بن الحارث ، ويسمى مغيثا الرومى ، مولى الوليد بن عبد الملك ، ودخل الأندلس مع طارق بن زياد ، واضطلع بفتح قرطبة ، وأصبح ابنه عبد الواحد حاجباً ، أى وزيراً ، لعبد الرحمن الداخل ، ثم لهشام ابنه من بعد ، وتوفى على أيام الحكم الأول ، وخلّف أبناء ثلاثة : عبد الملك ، وعبد الكريم ، وعبد الحميد ، وقد تولوا مناصب هامة ، وبخاصة عبد الكريم ، وبقى لبيتهم جلالة إلى أمد طويل .

(٢) الحسن بن هانئ ، الشهير بأبى نواس ، الشاعر العباسى المعروف .

(٣) محمد بن هارون ، ابن هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه من ٨٠٩ إلى ٨١٣ م ، ثم قتل فى صراعه مع أخيه المأمون .

منه مناط الثريا قد تعلّت نجومها ، وهذا ضرب من السياسة ، ولقد كان يبلُغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أنْ باح إليه بما يجد ، فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب ، وتمنّع الثقة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ، ووقع التصنّع والتجنّى ، لقد كان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولو زاد فى بَوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلاّ فى الطيف ، ولا نقطع القليل والكثير ، ولعاد عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب الكتمان الحَياء الغالب على الإنسان ، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصداً ، ويكون ذا نفس أبيّة ، فيستتر بما يجد لئلا يَشمت به عدو ، أو يريهم ومَنْ يُحب هوان ذلك عليه .

١٣

باب الإذاعة

وقد تعرض فى الحب الإذاعة ، وهو مِن مُنكرَ ما يحدُث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزّيا بزىّ المحبين ، ويدخل فى عدادهم ، وهذه خلافة لا نُرضى ، وتخليج بفيض ، ودعوى فى الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الكشف غلبةُ الحب ، وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفا ولا عَدْلا ، وهذا من أبعد غايات العشق ، وأقوى تحكّمه على العقل ، حتى يمثل الحَسن فى تمثال القبيح ، والقبيح فى هيئة الحسن ، وهنالك يرى الخير شراً ، والشر خيراً ، وكم مَصون الستر ، مُسبل القناع ، مسدول الغطاء ، وقد كشف الحبُّ ستْره ، وأباح حريمه ، وأهمل حِماه ، فصار بعد الصيانة عَلَماً ، وبعد السكون مثلا . وأحب شئ إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ،

ولطالت استعانته منه ، فسَهُلَ ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعهدى بفتى من سَرَوات الرجال ، وعلْية إخوانى ، قد دُهِي بمحبة جارية مقصورة ، هام بها ، وقطعة حُبها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر ، إلى أنْ كانت هى تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه .

★خبر :

وحدّثنى موسى بن عاصم بن عمرو (١) وقال : كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله ، وقد أمرنى بكتاب أكتبه ، إذ لمحتْ عينى جارية كنت أكلَف بها ، فلم أملك نفسى ، ورميتُ الكتاب عن يدى ، وبادرتُ نحوها ، وبُهت أبى وظن أنه عرض لى عارض ، ثم راجعنى عقلى ، فمسحتُ وجهى ، ثم عدت واعتذرت بأنه غَلبنى الرُّعاف .

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب ، وفساد فى التدبير ، وضعف فى السياسة ، وما شئ من الأشياء إلاّ وللمآخذ فيهُ سنّة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، وأخَرق فى سلوكها ، انعكس عمله عليه ، وكان كَدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحثه وباء ، وكلما زاد عن وجه

---

(١) لم أهتد إلى أية ترجمة لهذه الشخصية ، أو للشخصيات الأخرى التى سوف ترد فى هذا الباب .

السّيرة انحرافاً ، وفى تجنّبها إغراقاً ، وفى غير الطريق إيغالا ، ازداد عن بلوغ مراده بعداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

ولا تسْعَ فى الأمرِ الجسيم تهاوُنـاً
ولا تســعَ جَهراً فى اليسير تُريدُهُ

وقـابلْ أفـانينَ الزمـانِ متى يَـرِدْ
عليـك فـإنّ الدهـرَ جَمٌّ وروُدُه

فأشكالُها من حُسْنِ سَعْيك يكْفِكَ الـ
ـيسـيرُ بَغيرٌ والشريد شـريده (١)

ألم تبصـر المصْـباحَ أوّلَ وَقْدِه
وإشـعالِه بالنفـخ يُطفَا وُقـودُه

وإن يَتَضَرَّمْ لفحُـه ولهيبُـهُ
فنفـخُك يُذْكيـه وتبـدو صُـدوده

★ خبر :

وإني لأعرف من أهل قرطبة ، من أبناء الكتاب وجلّة الخَدَمة ، مَن اسمه أحمد بن فتح، وكنت أعهده كثيرَ التصاون ، من بُغاة العلم ، وطلاب الأدب ، يبز أصحابه فى الانقباض ، ويفوتهم فى

(١) هكذا ورد هذا البيت فى الأصل .

الدعة لا يُنظر إلا فى حلَقة فضل ، ولا يُرى إلا فى محفل مرضىّ ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، بائنا بنفسه ، ذاهباً بها ، ثم أبعدت الأقدارُ دارى من داره ، فأول خَبر طرأ علىّ بعد نزولى شاطبة ، أنه خلع عذاره فى حب فتى من أبناء الغنّائين [1] ، يسمى إبراهيم بن أحمد ، أعرفه لا تستاهل صفاته محبة مَن بيتُه خير وتقدم ؛ وأموال عريضة ، ووفْر تالد ، وصحّ عندى أنه كشف رأسه ، وأبدى وجهه ، ورَمى رَسَنه ، وحسَر مُحياه ، وشمّر عن ذراعيه ، وصمد صمْد الشهوة ، فصار حديثاً للسمّار ، ومدافَعاً بين نقلة الأخبار ، وتُهودى ذكره فى الأقطار ، وجرت نقلته فى« الأرض راحلة بالتعجب ، ولم يحصل من ذلك إلاّ على كشف الغطاء ، وإذاعة السـر ، وشُنعة الحديث ، وقبح الأحدوثة ، وشرود محبـوبه عنه جملة ، والتحظير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنيا عن ذلك ، وبمندوحة واسعة ، ومعزل رحب عنه ، ولو طوى مكنون سرى ، وأخفى باليات ضميره ، لأستدان لباس العافية ، ولم يُنهج بُرد الصيانة ولكان له فى لقاء من بلى به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمـال وتعفف كاف ، وإنَّ حَبل العذر ليقطع به ، والحُجّة عليه

(١) وردت فى كل الطبعات العربية « الفتّانين » ، جمع فتّان ، أى الصائغ ، وبهذا المعنى ترجمها كل الذين نقلوا طوق الحمامة إلى لغاتهم ، وصححها ليفى بروفنسال « الغنائين » ، وتردد غومث عند ترجمته « طوق الحمامة » إلى الإسبانية ، بين أن تكون « الفتّانين » ، جمع فتان ، بمعنى المثير للفتن ، وبين تصحيح بروفنسال ، ثم ارتضاه أخيراً ، وترجمها فى النص الإسبانى : ابن أحد المغنين .

قائمة ، إلاّ أنْ يكون مختلطاً فى تمييزه ، أو مصاباً فى عقله بجليل ما فدّحه ، فربما آل ذلك لعذر صحيح ، وأمّا إنْ كانت بقية ، أو ثبتت مُسكة ، فهو ظالم فى تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتى هذا مفسَّراً فى باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث :

وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى المحب مِن محبوبه غدرا أو مللا أو كراهة ، فلا يجد طريق الانتصافَ منه إلاّ بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والإشتهار ، وهذا أشدّ العار وأقبح الشنار ، وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف .

وربما كان الكشف من حديثٍ يَنتشر ، وأقاويل تفشو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهور سره ، إمّا لاعجاب وإمّا لاستظهار على بعض ما يؤمله ، وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخوانى من أبناء القوّاد .

وقـرأت فى بعض أخبـار الأعراب أن نسـاءهم لا يقنعن ، ولا يصدّقن عشـق عاشق لهن حتى يشتهر ، ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوّه بذكرهن ، ولا أدرى مامعنى هذا ، على أنه يُذكر عنهن العفاف ، وأىّ عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى .

١٤

باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصرفُه طباعَه قسراً إلى طباع مَن يحبه ، وترى المرء شَرِس الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القيادة ، ماضى العزيمة ، حمىّ الأنف ، أبىّ الخسف ، فما هو إلاّ أن يتنسم نسيم الحب ، ويتورَّط غمره ، ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليانا ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلالة ، والحمية استسلاماً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فهل للوصال إلينا مَعادُ

وهل لتصاريف ذا الدهرِ حدْ

فقد أصبحَ السيفُ عبدَ القَضيبِ

وأضحى الغزالُ الأسيرُ أسدْ

وأقول شعراً ، منه :

وإنّى وإنْ تَعْتِبْ لأهْونُ هالكٍ

كذائبِ نُقْر زل من يد جهْبذِ

على أنّ قتلى فى هواك لذاذةٌ

فيا عجبٌ من هـالك متلذّذ

ومنها :

ولو أبصرَتْ أنوارَ وجهك فارسٌ

لأغناهُم عن هُرمزان ٍومَوْبِذ (١)

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى ، متبرماً بسماع الوجد ، فترى الُمحبّ حينئذ يكتُم حزنه ، ويكظِم أسفه ، وينطوى على علته ، وإنّ الحبيب مُتجنٍّ ، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب ، والإقرار بالجريمة ، والمرء منهـا برئ ، تسليماً لقوله ، وتركاً لمخالفته ، وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقـاع العتـاب عليه والسخط وهو نقى الجلد .

وأقول شعرا إلى بعض إخوانى ، ويقرب مما نحن فيـه وإن لم يكن منه :

وقـد كنتَ تلقـانى بوجـهٍ لقُـربه

تَدانٍ وللْهجـرانُ عن قُرْبه سَـخْطُ

وما تـكرهُ العَتبَ اليسـيرَ سـجيّتى

على أنه قد عِيبَ فى الشـعَرِ الوخْط

(١) يشير إلى عبادة الفرس للنار قديماً .

فقد يُتعب الإنسانُ في الفكر نفسَـهُ
وقد يَحْسنُ الخيلانُ في الوجه والنقْط

تـزِين إذا قلّتْ ، ويَفْحُشُ أمـرُها
إذا أفرطت يومـاً ، وهل يُحمَدُ الفَرْط

ومنـه:

أعِنْهُ فقد أضْـحىَ لفرْطِ هُمُـومِه
يُبكّيّ إذا القرطاس والحبر والخَط

ولا يقولن قائلا : أنّ صبر المحب على دلّة المحبوب دَناءة في النفس ، فقد أخطأ ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض بأذاه ، وليس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان ، ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء ، ولا في مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جاراً للمذالة ، وضراعة قائدة للاستهانة ، فقد ترى الإنسـان لا يكلف بأَمَته التي يملك رقّهـا ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدي عليها ، فكيف الانتصارُ منها ، وسبل الامتعاض من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين علْية الرجال الذين تُحصى أنفاسـهم ، وتُتّبع معـاني كلامهم ، فَتُوجّـه لهـا الوجوه البعيدة ، لأنهم لا يوقعونها سدى ، ولا يُلقونها هملا ، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة ، وقضـيب مُنآد ، يجفو ويرضى متى شـاء لا لمعنى .

وفى ذلك أقول :

ليس التذلُّلُ فى الهوى يُستنكرُ
فالحُبُّ فيه يَخضَعُ المُستكبرُ
لا تعجبوا من ذِلّتي فى حالة
قد ذلَّ فيها قبلىَ المُستنصر (١)
ليس الحبيبُ مماثلاً ومُكافياً
فيكونَ صبرُك ذلّةً إذ تصبر
تُفّاحةٌ وقعتْ فالم وَقْعُها
هل قَطْعها منك انتصاراً يُذْكر

★ خبر :

وحدّثنى أبو دلف الوراق ، عن مَسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمجريطى (٢) ، أنه قال ، فى المسجد الذى بشرقىّ

(١) فى الطبعات العربية « المستبصر » ، وصحتها المستنصر ، وهو الخليفة الحكم الثانى ، وكان عاشقاً لجاريته صبح ، أم ابنه الخليفه هشام المؤيد ، وفيما بعد سوف تصبح عشيقة المنصور بن أبى عامر .

(٢) مسلمة المجريطى ، فلكى ورياضى أندلسى ، توفى عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٧ م ، ومن بين مأثور كتبه : « رسالة الاسطرلاب » و « ثمار العدد » ، وملخص لزيج البتانى سماه « تعديل الكواكب » . وله ترجمة لكتاب « قبة الفلك » لبطليموس ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية فى بازل بسويسرا عام ١٥٣٦ وينسب إليه مؤلف آخر هو أقرب إلى كتب الخرافات منه إلى كتب العلم ، يسمى « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » ، ويعرف فى الترجمات الإسبانية باسم « بكتاريش pictariX » ، وهى تحريف لبقراطيش ، وهو أبقراط .

مقبرة قريش بقرطبة ، الموازى لدار الوزير أبى عمرو أحمد بن محمد بن حدير [1] رحمه الله : فى هذا المسـجد كان مرض مقدّم بن الأصفر أيام حداثته ، بعشق عجيب ، فتى الوزير أبى عمرو المذكور ، وكان يترك الصلاة فى مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد فى الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذه الحرس غير ما مرة فى الليل ، فى حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ، ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ، ويلطم خديه وعينيه ، فيسر

(١) أخطأت الطبعات العربية فى كل مرة عرضت فيها لهذا الاسم ، فذكرت أنه : « الوزير ابن عمر أحمد بن محمد حدير » ، وصححته على نحو ما فى الأصل .

وبنو حدير بيت أندلسى عريق ، من البيوتات الكبرى ، التى تقاسمت المناصب العالية ، وكان لهم دور ملحوظ فى الحياة العامة طوال أيام الدولة الأموية .

كان حدير الجد الأعلى قائما على باب السدة ، الباب الرئيسى فى قصر الإمارة فى قرطبة . على أيام الحكم الأول ، وحين اندلعت ثورة الربض عام ٢٠٢ هـ = ٨١٨ م وقضى عليها الحكم أمر حديراً أن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين فلم يستجب له ، وتولى الحكم إعدامهم بعيداً عنه .

وولى آبنه موسى الخزانة الكبرى على أيام عبد الرحمن الأوسط .

وولى حفيد له ، موسى بن محمد بن سعيد بن موسى الحجابة ، أى رئاسة الوزارة تقريباً ، لعبد الرحمن الناصر . وتوفى ٣١٩ هـ = ٩٣١ م .

وكان أبو عمر أحمد بن محمد الذى معنا فى نص الطـوق ، شـــقيقاً لموسى ، وقائمــا على ديوان المظــالم ، أيام عبـد الرحمن الناصر ، وتوفى ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م .

بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرّت عيني ، وكان على هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدّثنا مَسلمة بهـــذا الحـــديث غير مرة بحضرة عجيب ، عنـدما كان يَرى من وجـاهة مقدم بن الأصـفر وعَرْض جاهه وعافيته ، فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلّت جدا ، واختص بالمظفّر بن أبى عامر (١) اختصاصاً شديداً ، واتصـل بوالدته وأهله ، وجـرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات ، وتســهيل وجوه الخير غيرُ قليل ، مع تصرّفه فى كل ما يتصرّف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك .

★ خبر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد (٢) ، صاحب

ولم أستطع ، في ضوء ما لدى من مصادر ، تحديد شخصية أبى دلف الوراق ولا مقدم بن الأصفر .

(١) المظفر ، الابن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، ولى الحجابة بعد أبيه ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، وسنلتقى به كثيراً عبر الكتاب .

(٢) يعـرض ابن حـزم فى هذه الفقـرة لثـلاثة من أبنـاء منـذر بن سـعيد البلوطى ، وكان منذر من أشـهر الفقهاء والخطبـاء والقضـاة فى عصر الخلافة . من أصـل بربرى ، من فحص الـبلوط ، وتسـمى اليوم وادى قلعة رباح Calatrava ، ورحل إلى المشرق ، حيث أمضى عامين دارساً بين مكة والقاهرة ، وعينه عبد الرحمن الناصر قاضى الجماعة فى قرطبة ، فكان شديد الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، والقيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده ، وظل فى منصبه هذا ١٦ عاماً ، إلى أن توفى ، وخلف ثلاثة أبناء هم سعيد وحكم وعبد الملك .

الصلاة فى جامع قرطبة ، أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله ، جارية يحبها حبا شديدا ، فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إنّ لحيتك أستبشع عظَمها ، فإنْ حذفْتَ منها كان ما ترغبه . فأعمل الجلمين [1] فيها حتى لطفت ، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به ، وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر : اعرض عليها أنىّ أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجّها فى ذلك المجلس بعينه ، ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده .

فأنا أدركت سعيدا هذا ، وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة ، وانتهابهم إياها [2] وحَكَمُ المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم ، وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه ، وكان أخوه عبد الملك بن مُنذر متهما بهذا

---

(١) فى الطبعات العربية « الجملين » ، وصححتها على نحو ما فى الأصل .

(٢) كان اقتحام البرابر قرطبة عنوة ، وانتهابهم لها وتدميرهم امعالمها ، فى نهاية شوال من ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، وتعرف فى المصادر العربية بفتنة البربر ، وتسميها المصادر الأجنبية « الحرب الأهلية » ، وكانت سيئة النتائج إلى حد كبير ، وتركت فى نفس ابن حزم أثرا واضحاً ، وشكلت حياته بقوة ، وخصصتها بدراسة مفصلة فى كتابى : « دراسات عن ابن حزم » .

المذهب أيضاً ، ولى خطة الرد (١) أيام الحكم رضى الله عنه ، وهو الذى صلبه المنصور بن أبى عامر إذ اتهمه هو ، وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة ، أنهم يُبايعون سرًا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقُتل عبد الرحمن، وصُلب عبد الملك بن منذر ، وبدّد شمل جميع من اتهم ، وكان أبوهم قاضى القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضا ، وكان أخطب الناس وأعلمهم بكل فن ، وأورعهم وأكثرهم هزلا ودعابة .

وحَكَمُ المذكور فى الحياة ، وفى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة ، قد كُف بصره ، وأسن جدا .

★ خبر :

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أنى أعرفُ مَن كان سَهِر الليالى الكثيرة ، ولقى الجهد الجاهِد فقطّعتْ قلبَهُ ضروب الوجد ، ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ، ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه ، لاتعفُّفاً ولا تخوّفاً ، لكن توقُّفاً عند مُوافقة رضاه ، ولم يجد من نفسهُ مُعينا على إتيان ما لم

---

(١) فى الطبعات العربية « خطبة » وهو خطأ واضح ، وقد صححتها .
وخطة الرد أشبه ما تكون بمحاكم الاستئناف ، تعاود النظر فى أحكام القضاة إذا جدت ظروف تتطلب المراجعة ، وقد يحيل القاضى ، على صاحب خطة الرد مالا يتبين فيه وجه الحق ، وفيما بعد أدمجت فى خطة « صاحب المظالم » .

يَرَ له إليه نشاطاً وهو يجد ما يجد ، وإنى لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندَّم لعذر ظهر من المحبوب .

فقلت فى ذلك :

غافِصِ الفُرصــةَ واعلم أنَّها ... كمُضىّ البرقِ تمضى الفُرصُ

كــم أمــورٍ أمْكنَتْ أمْهلْتَهــا ... هىَ عنــدى إذ تولّتْ غُصَصُ

بادرِ الــكنزَ الــذى ألفيتَــهُ ... وانْتهــز صيْداً كبــازٍ يَقْنص

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبى المظفَّر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود [1] صديقنا ، وأنشدته أبياتاً لى فطار بها كل مطار ، وأخذها منى فكانت هجيراه .

★ خبــر :

ولقد سألنى يوما أبو عبد الله محمد بن كليب [2] من أهل القيروان أيام كونى بالمرية [3] ، وكان طويل اللسان جداً ، متقفا للســؤال فى كل فن ، فقــال لى ، وقد جرى بعض ذكر الحب

---

(١) لم أجد أية ترجمة فيما بين يدى من مصادر لأبى المظفر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود ، صديق ابن حزم هذا .

(٢) لم أهتد له إلى أية ترجمة .

(٣) فى الأصل العربى « بالمدينة » ، ولكن ابن حزم لم يعش أبداً فى مدينة قرطبة نفسها ، أو ما كان يطلق عليه اسم المدينة منها ، وإنما عاش حياته كلها فى ضواحيها ، أو بعيداً عنها ، ومن ثم رجحت أن أصلها « المرية » ، وسياق النص يدعم رأيى .

انظر مصورا مدينة قرطبة فى القرن العاشر ، الملحق بهذا الكتاب .

ومعانيه : إذا كره من أحب لقائى ، وتجنب قربى فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى فى إدخال الروْح على نفسك بلقائه وإنْ كره . فقال : لكّنى لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواى ، ومُراده على مرادى ، وأصبر ولو كان في ذلك الحَتف ، فقلت له : إنّى إنّما أحببته لنفسي ، ولا لتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلى ، وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ما تمنى به الموت ، وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إنْ بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختياراً منك أنت فيه ملوم ، لإضرارك بنفسك ، وإدخالك الحتف عليها . فقال لى : أنت رجل جدلىّ ، ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفا . فقال : وأى آفة أعظم من الحب .

١٥

باب المخالفة

وربما اتبع المحب شهوته ، وركب رأسه ، فبلغ شِفاءه من محبوبه ، وتعمَّد مسرته منه على كل الوجوه ، سخط أو رضى ، ومَن ساعده الوقت على هذا وثبت جنانه ، وأتيحت له الأقدار ، استوفى لذته جميعها ، وذهب غمه ، وانقطع همّه ، ورأى أمله ، وبلغ مرغوبه، وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنـا بلّغتُ نفسِي المُنى   من رَشـأ مازال لى مُمْرِضـاً
فمـا أبالي الكُرْهَ من طـاعةٍ   ولا أبالِي سَخَطاً مـن رِضـاً
إذا وجـدتُ المــاءَ لابُـدّ أنْ   أُطفى به مُشْعل جَمْرِ الغضا

١٦

باب العاذل

والحُب آفاتٌ .

فأولها العاذل ، والعُذّال أقسام ، فأفضلهم صديق قد أسقطتَ مؤونة التحفظ بينك وبينه ، فعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات ، وهى من الحظ والنهى ، وفى ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ولا سيما إن كان رفيقاً فى قوله ، حسن التوصل إلى ما يورد من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى ، وبالأحيان التى يزيد فيها الأمر ، والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعُّره ، وقبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من المَلامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل . ووقع لى مثل هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه ، وذلك أن أبا السرى عمار بن زياد [١] صديقنا ، أكثر من عذلى على نحوٍ نَحْوتُه ، وأعان علىّ بعض من لامنى فى ذلك الوجه

(١) التقينا به فى الباب الثالث ، وسنلتقى به مرات أخرى فيما بعد ، وهو شخصية لا تعرض لها المصادر التى بين ايدينا .

أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى ، مخطئاً كنتُ أو مصيباً ، لوكيد صداقتى ، وصحيح أُخوتى به .

ولقد رأيت من اشتد وجده ، وعظم كلفه ، حتى كان العَدل أحب شئ إليه ، ليرى العاذل عصيانه ، ويستلذ مخالفته ، ويحصّل مقاومته اللائمة ، وغلبته إياه . كالملك الهازم لعدوه ، والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، ويُسَرُّ بما يقع منه فى ذلك ، وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أُحبُّ شيءٍ إلىَّ اللـــومُ والعـــذلُ
كَىْ أسمعَ اسم الذى ذكراهُ لى أملُ
كأنّنى شــاربٌ بالعــذْل صـــافيةً
وباسمِ مولاى بعد الشرْبِ أنتقل (١)

(١) انتقل : أكل من النقل ، وهو ما يقدم مع الشراب من مشهيات .

١٧

باب المساعِد من الإخوان

ومن الأسباب المتمناة فى الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقاً مخلصاً ، لطيف القول ، بسيط الطول ، حسن المأخذ ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابراً على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوى المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيـل المداخـــل ، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخـلاق ، سرى الأعـراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صـحيح الأمانة ، مأمون الخيـانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغَنَاء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الإنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه فى خلوة فكره ، ويفاوضه فى مكتوماته ، وإن فيه

للمحب لأعظمَ الراحات . وأين هذا ؟ فإنْ ظفرت به يداك فشُدّهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلي الأحزان ، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال ، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلا ، ورأيا حسنا .

ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراءَ والدخلاءَ كي يخفّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور ، وطوّقوه من باهظ الأحمال ، ولكي يستغنوا بآرائهم ، ويستمدوا بكفايتهم ، وإلاّ فليس في قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها ، ولقد كان بعض المحبين ، لعدمه هذه الصفة من الإخوان ، وقلّة ثقته منهم ، لمـا جرّبه من النـاس ، وأنه لم يعـدم مَن باح إليـه بشئ من سرّه أحد وجهين : إمّا إزراء على رأيه ، وإما إذاعة لسره ، أقام الوحدة مقام الأنس، وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس ، ويناجي الهوى ، ويكلّم الأرض ، ويجد في ذلك راحة كما يجدها المريض في التأوّه ، والمحزون في الزفير، فإن الهموم إذا ترادفت في قلب ضاق بها ، فإن لم يُنْض منها شيئا باللسان ، ولم يسترح إلى الشكوى ، لم يلبث أن يهلك غمًا ويموت أسفاً .

وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء ، فعندهم من المحافظة على هذا الشأن ، والتواصي بكتمانه ، والتواطؤ على طيه إذا اطلعن

عليه ، ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سرّ متحابين إلاّ وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة ، مرميّة عن قوس واحدة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا لا يكون إلا فى النُّدرة ، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن .

★ خبر :

وإنى لأعلم امرأة مُوسرة ذات جوار وخَدَم، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة ، وقيل لها : إن جاريتك فلانة تعرف ذلك ، وعندها جليّة أمرها ، فأخذتها ، وكانت غليظة العقوبة ، فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يَصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء أن تبوح لها بشئ مما ذُكر لها ، فلم تفعل البتة .

★ خبر :

وإنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجل ، ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظفرت بكتـاب لفتى إلى جارية كان يَكْلَف بها ، وكان فى غير ملكها ، فعرّفته الأمر ، فرام الإنكار ، فلم يتهيـأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عُصم ؟ فلا تُبال بهذا ، فوالله لاأطلعتُ على سرّكما أحداً أبداً ، ولو أمكنتنى أن أبتاعها لك

من مالى ، ولو أحاط به كله ، لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ، ولا يَشعر بذلك أحد .

وإنك لترى المرأة الصالحة المسنّة ، المُنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالها إليها ، وأرجاها للقبول عندها ، سعيُها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مُقلّة .

وما أعلم علّة تمكن هذا الطبعَ من النساء ، إلاّ أنّهن متفرّغات البال من كل شئ ، إلاّ من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خُلقن لسواه ، والرجالُ مُقتسون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومُكابدة الأسفار ، والصيد ، وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ، ومُلاقاة الفتن ، وتحمُل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهذا كله مُتحيّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطْل ، وقرأت فى سير ملوك السودان أنّ الملك منهم يوكّل ثقة له بنسائه ، يلقى عليهنّ ضريبةً من غَزْل الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر ، لأنهم يقولون : إنّ المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحنّ إلى النكاح .

ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرَهن ، ولا جالستُ الرجال إلاّ وأنا فى حدّ الشباب ، وحين تفيّل

وجهى ، وهن علمننى القرآن ، وروّيننى كثيراًمن الأشعار ، ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وكُدى ، وإعمال ذهنى مذأول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جداً ، إلاّ تعرّف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعتُ عليها وسوء ظن فى جهتهن فُطرتُ به . فأشرفتُ من أسبابهن على غير قليل ، وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

١٨
باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيبُ ، وإنّه لحُمّى باطنة ، وبرسام مُلحّ ، وفكر مُكِبّ . والرقباء أقسام :

فأولهم مُثْقِل بالجلوس ، غير متعمد ، فى مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شئ من سرّهما ، والبوح بوجدهما ، والانفراد بالحديث ، ولقد يعرض للمُحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشدّ منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائقٌ حال دون المُراد ، وقَطَعَ متوفّر الرجاء .

★ خبر :

لقد شاهدت يوماً مُحبَّيْنْ فى مكان قد ظنّا أنّهما انفردا فيه ، وتأهّبا للشكوى ، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حِمَى ، فلم يلبثا أنْ طلع عليهما مَن كانا يستثقلانه ، فرآنى فَعَدل إلىّ ، وأطال الجلوس معى ، فلو رأيتَ الفتى المحب ، وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب ، لرأيت عجباً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطيلُ جلوساً وهو أثقلُ جالسٍ
ويُبدى حديثاً لستُ أرضى فُنونَهُ
شَمامٌ ورَضْوى واللُّكامُ ويَذْبُلُ
ولبنانُ والصَّمّانُ والحزْنُ(١) دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بَطرف ، وتوجس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فُيدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفّى بالحركات ، ويرُمق الُوجوه ، ويحصّل الأنفاس ، وهذا أعدى من الجرب ، وإنىّ لأعرف مَن هَمَّ أن يُباطش رقيباً هذه صفته .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصِلٌ لا يُغِبُّ قَصْداً أعْظِم بهذا الوصال غَمَّا
صارَ وصِرْنا لفَرْطِ مالا يَزُولُ كالاسم والمُسمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لا حيلةَ فيه إلاّ بترضيه ، وإذا أرضِيَ فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذى ذكرتْه الشعراء فى أشعارها .

ولقد شاهدتُ مَن تلطّف فى استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، ومتغافلا فى وقت التغافل ، ودافعاً عنه وساعياً له .

ففى ذلك أقول :

(١) فى الطبعات العربية « والحرب » ، وصححتها « والحزن » ، لتوائم المعنى ، وأعتقد أنها فى الأصل كذلك ، وأن « والحرب » تحريف من الناسخ .

وربَّ رقيبٍ أرقبــــوه فلــم يزلْ   على سيّدي عمْداً ليبْعدني عَنْهُ
فما زالتِ الألطافُ تحـكمُ أمرَهُ   إلى أنْ غدا خوْفِي له آمناً منه
وكان حُسـاماً سُلّ حتى يهُدّني   فعـادَ مُحبّـا ما لنعمتِـهِ كُنْـه

وأقول قطعة ، منها :

صـارَ حيـاةً وكان سَهْمَ رَدَى   وكان سمّـا فصـارَ درِياقـاً

وإني لأعرف من رقب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً ، وثِق به عند نفسه ، فكان أعظمَ الآفة عليه ، وأصلَ البلاء فيه .

وأمّا إذا لم يكن في الرقيب حيلة ، ولا وجد إلى ترضّيه سبيل ، فلا طمع إلاّ بالإشارة بالعين همساً ، وبالحاجب أحياناً ، والتعريض اللطيف بالقول ، وفي ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يقنع به المشتاق .

وفي ذلك أقول شعراً أوّله :

على سيّدي منيّ رقيبٌ محافظٌ   وفيٌّ لمـــن والاه لليس بنـــاكثِ

ومنـه :

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانة في الهوَى   ويفعلُ فيها فعْلَ بعضِ الحوادثِ
كأنَّ لـــه في قلبــــه ريبــةً ترى   وفي كُلّ عين مُخبـرٌ بالأحـــادثَ

ومنه :

على كلّ مَن حـولِي رقيبـانِ رتّبـا
وقد خصّني ذو العرشِ منهم بثالثِ

وأشنعُ ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتُحن بالعشق قديماً ، ودُهي به ، وطالت مدته فيه ، ثم عُرّيَ عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان

راغباً فى صيانة من رقّب عليه ، فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .

وفى ذلك أقول :

رقيبٌ طالما عَـرَفَ الغـــراما   وقاسَى الوَجْدَ وامْتنعَ المَناما
ولاقَى فى الهـوَى ألماً أليمـا   وكـاد الحُبُّ يُوردُهُ الحِمـــاما
وأتقنَ حيـــلةَ الصـــبِّ المُعَنَّى   ولم يُضَـعِ الإشــارةَ والكلاما
وأعْقبَـهُ التسـلّى بعــد هــذا   وصار يرى الهوى عاراً وذاماً
وصُيِّر دون مَن أهــوى رقيباً   ليُبْعِــدَ عنه صـبّاً مُسـتهاما
فــأىُّ بَلِيَّـة صـبَّتْ علينـــا   وأىُّ مصــــيبةٍ حلّت لمــــاما

ومن طريف معانى الرقباء أنى أعرف محبين مذهبهما واحد فى حُب محبوب واحد بعينه ، فلعهدى بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه .

وفى ذلك أقول :

صَبَّانِ هَيْمــانانِ فى واحـدٍ   كِلاهُمـا عن خِدْنه مُنْحـرِفْ
كالكلبِ فى الآرىِّ لا يعتـلفْ   ولا يُخلى العَيْرَ أنْ يعتلفْ (١)

---

(١) الآرى : محبس الدابة .

وقد انتقل هذا المثل إلى اللغة الإسبانية فأصبح : « ككلب الجنان ، لا يأكل ولا يدع سيده يأكل » .

١٩

باب الوشي

ومن آفات الحب الواشي ، وهو على ضربين :

أحدهما واش يريد القطع بين المتحابّيْن فقط ، وإنّ هذا لأفترهما سوءة ، على أنه السم الذّعاف ، والصاب الممقر ، والحتف القاصد ، والبلاء الوارد ، وربما لم يَنجح ترقيشه .

وأكثر ما يكون الواشي فإلى المحبوب ، وأما المحب فهيهات ، حال الَجريض دون القريض ، ومنع الحَرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشي ، وقد علم الُوشاة ذلك ، وإنما يقصدون إلى الخليّ البال ، الصائل بحوزة الملك المتعتب عند أقل سبب .

وإنّ للُوشاة ضروباً من التنقيل .

فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يُحب أنه غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المعاناة ، بطيء البُرء إلاّ أن يوافق معارضاً للمُحب في محبته ، وهذا أمر يوجب النفار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالاطلاع على بعض أسرار من يُحب ، بعد أن يكون

المحبوب ذا عقل وله حظ من التمييز ، ثم يدعه والمطاولة فإذا تكذب عنده نَقْل الواشى مع ما أظهر من الجفاء والتحفّظ ، ولم يسمع لسره إذاعة ، علم أه إنما زوّرله الباطل ، واضمحل ما قام فى نفسه .

ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه ، وحدَث فى حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلّته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى أن ضاق صدره وباح بما نقل إليه . فلو شاهدت مقام المحب فى اعتذاره ، لعلمت أن الهوى سلطان مطاع ، وبناء مشدود الأواخى ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة ، والرمى بالمقاليد ، فبعد لأىٍ ما صَلُحَ الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشى أن ما يظهر المُحبُّ من المحبة ليست بصحيحة ، وأنّ مذهبه فى ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره . وهذا فصل وإن كان شديداً فى النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذّذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما ، وقد وقع من هذا نبذ كافية فى باب الطاعة .

وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوجع الفاشى فى الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أنْ يكون المُحب فتى حسن الوجه ، حلو الحركات ، مرغوباً فيه ، مائلا

إلى اللذات ، دنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر ، سريّة المنصب ، فاقرب الأشياء سعيها فى إهلاكه ، وتصدّيها لحتفه . فكم صريع على هذا السبب ، وكم من سُقى السم فقطع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حُدَيْر ، والد أحمد المتنسك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابنى لُبْنَى ، من قبل قطر الندى جاريته .

وفى ذلك أقول محذراً لبعض إخوانى قطعة ، منها :

وهل يأمنُ النســوانَ غيْرُ مُغفَّلٍ جهولٌ لأسبابِ الردَى مُتَأَرِّضِ
وكم واردٍ حوضَ من الموتِ أسودٍ تَرشّفهُ من طيِّبِ الطعمِ أبيض

والثانى واش يسعى للقطع بين المُحبين ، لينفرد بالمحبوب ويستأثره ، وهذا أشد شىء وأقطعه ، وأجزم لاجتهاد الواشى واستنفاده جُهده .

ومن الوُشاة جنس ثالث ، وهو واش يَسعى بهما جميعاً ، ويكشف سرّهما ، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المحب مساعداً .

وفى ذلك أقول :

عجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكشفُ أمْرَنَا وما بســوَى أخبــارنا يَتنفَّسُ
وماذا عليه من عَنــائي ولوعتِي أنا آكلُ الرُمّانَ والوُلْدُ تَضرَس (١)

(١) يعكس هذا البيت ثقافة ابن حزم الواسعة ، ومعرفته بما فى الكتب الدينية الأخرى . فالبيت مقتبس من التوراة ، ونص الفقرة هناك : « الآباء أكلوا الحصرم ، وأسنان الأبناء ضرست » . أنظر : سفر حزقيال ، الإصحاح الثامن عشر .

ولابد أن أورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وأن كان خارجاً منه ، وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم ، فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا في أول الرسالة ، وما في جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النمّامون ، وإنّ النميمة لَطبْع يدُل على نتن الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، وخُبْث النشأة ، ولابد لصاحبه من الكذب .

والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمّام كذّاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإني لأسامح في إخاء كلّ ذي عَيب وإن كان عظيما ، وأكِل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه ، حاشى مَن أعلمه يكذب ، فهو عندي ماح لكل محاسنه ، ومُعَف على جميعِ خِصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى ، كذّاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلاّ أن أطلّع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرِّض لمتاركته ، وهي سمة ما رأيتها قط في أحد إلاّ وهو مزنون في نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء في ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخِ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك ، والملول فإنه أوثق ما تكون به لطول

الصحبة وتأكّدها يخذلك ، والكذّاب فإنه يجنى عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

وحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « حسن العهد من الايمان » .

وعنه عليه السلام : « لا يؤمن الرجل بالايمان كله حتى يدع الكذب فىَ المُزاح » .

حدّثنا بهذا أبو عمر أحمد بن محمد ، عن محمد بن على بن رِفاعة ، عن على بن عبد العزيز ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه . والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

واللّه عز وجل يقول : « يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعلون . كَبِرَ مَقْتًا عندَ اللّهِ أنْ تَقولوا ما لا تفْعلون »(١) .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه سئل : هل يكون المؤمن بَخيلا ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمنَ جَبانًا ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كذّابًا ؟ قال : لا » .

حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، عن أحمد بن سعيد ، عن

---

(١) سورة الصف : الآيتان ٣ ، ٤ .

عبيد اللّه بن يحيى عن أبيه ، عن مالك بن أنس ، عن صفوان بن سليم .

حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد ، عن أحمد بن سعيد ، عن عبيد اللّه بن يحيى عن أبيه ، عن مالك بن أنس ، عن صفوان بن سليم .

وبهذا الإسناد ، أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا خير في الكذب في حديث سئل فيه » .

وبهذا الإسناد عن مالك أنّه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال العبد يكّذب وينكت في قلبه نُكتة سوداء ، حتى يسودّ القلب ، فيُكتب عند اللّه من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال : « عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر ، والبرّ يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار » .

وروى أنه أتاه صلى اللّه عليه وسلم رجل فقال : يا رسول اللّه إنى أستتر بثلاث : الخمر والزنا والكذب ، فمُرنى أيّها أترك . قال أترك الكذب فذهب منه . ثم أراد الزنا ففكّر فقال : آتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟ فإنْ قلت : نعم ، حدّنى ، إنْ قلت : لا ، نقضت العهد ، فتركه . ثم كذلك فى الخمر . فعاد إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى تركت الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوءٍ ، وجالبٌ لمقت الله عز وجل ، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً : مَن إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

وهل الكُفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق ، وهو يحب الحق ، وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخـزى من كذّاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكِّدت البغضاء والإحن المردية ؤلاّ بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلا عن غيره ، بالعين التى ينظر بها من الكلب . والله عز وجل يقول : « ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة »(١) ويقول جـل من قائل : « يا أيُّهـا الذين آمَنوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فَتَبَيَّنُوا » (٢) . فسـمى النقل باسم الفسـوق . ويقول : « ولا تُطعْ

(١) سورة الهمزة ، الآية رقم ١ .
(٢)سورة الحجرات ، الآية رقم ٦ .

كلَّ حلاَّفٍ مَهين هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنميم . مَنَّاع للخيرِ مُعتدٍ أثيم عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم » (١) . والرسول عليه السلام يقول : « لا يدخل الجنة قَتَّات »(٢) ويقول : « إياكم وقاتل الثلاثة » . يعنى المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لذى الوجهين ألاّ يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يجعله من أخسّ الطبائع وأرذلها » .

ولَى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى الشاعر رحمه الله(٣) ، وقد نقل إليه رجل من إخوانى عنى كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثيرَ الوهم ، فأغضبه وصدّقه . وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ، ولكنه كان كثير المُزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول بالجبر ، شعراً منه :

ولا تَتَبَدَّلْ قالةً قد سمعتَها تُقالُ ولا تَدرِى الصحيحَ بما تدرِى

كمن قد أراقَ الماءَ للآلِ أنْ بدا فلاقىَ الردَى فى الأفْيَحِ المَهْمَهِ القفْرِ

وكتبتُ إلى الذى نقل عنى شعراً ، منه :

ولا تَزْعُمَا فى الجدِّ مَزْحًا كمولجٍ فسادَ علاجِ النفسِ طىَّ صلاحِها

(١) سورة القلم ، الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ .
(٢) قتات : نمام .
(٣) لم أهتد إلى أية ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى .

وَمَن كان نَقْلُ الزورِ أمضى سلاحِهِ كمثـــلِ الحُبــارَى تَتَّقِى بِسُلاحِها

وكان لى صديق مرة ، وكثر التدخيلُ بينى وبينه ، حتى كدح ذلك فيه ، واستبان فى وجهه ، وفى لحظه ، وطُبعتُ على التأنى والتربُص والمُسالمة ما أمكنت ، ووجدت بالانخفاض سبيلا إلى معاودة المودّة ، فكتبت إليه شعراً . منه :

ولى فى الذى أُبْدِى مرام لوانَّهــا بَدَتْ ما ادعَّى حُسْنَ الرمايةِ وَهْرِزُ (١)

وأقول مخاطباً لعُبيد الله بن يحيى الجزيرى (٢) ، الذى يُحْفَظُ لعمه الرسائل البليغة ، وكان طبْع الكذب قد استولى عليه ، واستحوذ على عقله ، وألفه ألفة النفس الأمل ، ويؤكد نقله بكذبه بالأيمان المؤكّدة المُغلظة ، مجاهراً بها ، أكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدّث من قد صحّ عنده أنه لا يصدّقه ، فلا يزجره ذلك عن أن يحدّث بالكذب :

(١) وهرز : قوّاس صائب الرماية ، فارسى الأصل ، كان مشهوراً بذلك فى الجاهلية .

(٢) لانتوفر على معلومات تساعد على تكوين فكرة واضحة عن عبيد الله بن يحيى هذا ، ولكن المصادر التاريخية تمدنا بمعلومات طيبة عن عمه أبى مروان عبد الملك بن ادريس الجزيرى ، المشار إليه فى النص ، فقد ذكر الحميدى أنه : « عالم أديب شاعر ، كثير الشعر ، غزير المادة ، معدوداً فى أكابر البلغاء ، من ذوى البديهة ، وله فى ذلك رسائل وأشعار مروية » . وكان شاعر المنصور بن أبى عامر ، ثم ابنه المظفر من بعده ، وقد سخط عليه المظفر ، واتهمه بالتآمر ، وألقى به فى السجن ، فتوفى بالمطبق فى ذى القعدة من عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٤ م .

بدا كـــلُّ ما كَتَمْتَهُ بينَ مُخْبرٍ   وحـــال أرَتْنى قُبْحَ عَقدك بَيِّنَا
وكم حالةٍ صـــارتْ بَياناً بحالةٍ   كما تُثْبِتُ الأحكامُ بالحَبَلِ الزِنا

وفيه أقول قطعة منها :

أَنَمُّ من المـــرآة فى كلِّ ما دَرَى   وأقطعُ بينَ الناسِ مِن قُضُبِ الهِنْدِ
أظنُّ المنـايا والزمان تعلَّمـــا   تَحيُّلَهُ بالقَطْـع بين ذوى الـــودِّ

وفيه أيضاً من قصيدة طويلة :

وأكْذَبُ من حُسْنِ الظنـونِ حديثُهُ   وأقْبَحُ من دَيْنٍ وفقـــرِ مُـــلازِمِ
أوامرُ ربِّ العرشِ أضْيعُ عنـــدَهُ   وأهونُ من شكوَى إلى غير راحم
تجمَّعَ فيه كـــلُّ خِزْيٍ وفَضِـحةٍ   فلم يُبْقِ شتْماً فى المقـال لشاتم
وأثقلُ من عَذْلٍ على غـــير قابلٍ   وأبردُ برداً من مدينــة سالم (١)

(١) مدينة سالم Medinaceli ، مدينة كبيرة ، لاتزال تحتفظ باسمها العربى حتى يومنا هـذا ، فى الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وعلى بعد ١٣٥ ك. م. من مدريد ، وهى من أعمال مقاطعة سورية Soria ، وتدين بعمرانها إلى بربرى من قبيلة مصمودة ، يدعى سالم بن ورعمال ، وإليه تنسب ، وكان سالم ، فيما يبدو ، من كبار قادة البربر ، ودخل الأندلس فى سن مبكرة ، وقد أصبحت المدينة مركزاً عسكرياً هاماً ، وعنى بها عبد الرحمن الناصر ، وانتدب لبنائها أكبر قواده ، وبها توفى المنصور بن أبى عامر ، عام ١٠٠٢ م ، أثناء عودته من حملة قام بها ضد قشتالة Castilla† ، وهى الحملة الخمسون من حملاته ، ودفن معه فى القبر الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، ونقش على قبره الأبيات الآتية :

آثاره تنبيك عن أخبـــاره   حتى كـــأنك بالعيـان تراه
تا الله لا يأتى الزمان بمثـــله   أبداً ولا يحمى الثغور ســـواه

غير أن تعليق صــاحب تاريخ إسبانيا المقدسة ، كان ينضح بغضاً يقول : « وفى سنة ١٠٠٢ مات المنصور ودفن فى الجحيم » .

ولقد ترددت على المدينة أكثر من مرة ، وذكرى المنصور ماتزال فى أذهان الناس ، أقاصيص وحكايات ، ولكن المدينة لا تعرف له قبراً !

وأبغضُ من بَيْنٍ وهَجــرٍ ورِقْبــةٍ   جُمِعْنَ على حَرَّانَ حَيْـرانَ هائمِ

وليس من نبه غافلا أو نصح صديقا أو حفظ مسلما أو حكى عن فاسق أو حدّث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعمد الضغائن ، منقّلاً . وهل هلك الضعفاء ، وسقط من لا عقل له ، إلا في قلّة المعرفة بالناصح من النمام ، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر ، متفاوتتان في الباطن ، إحداهما داء ، والأخرى دواء ، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما ، لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضيّ في الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء ، والتضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش .

فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ، ومضاء تقديره ، فيما يَرده من أمور دنياه ، ومعاملة أهل زمانه ، فليجعل دينه دليلا له ، وسراجاً يستضيء به ، فحيثما سلك به سلك ، وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة ، وباعث الرسول عليـه السـلام ، ومرتّب الأوامر والنواهي ، أعلم بطـريق الحق ، وأدرى بعواقب السلامة ، ومغبات النجاة ، من كل ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه في ظنه .

٢٠

باب الوصل

ومن وجوه العشق الوصل . وهو حظ رفيع ، ومرتبة سريّة ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ، بل هو الحياة المجددة (١) ، والعيش السنيّ ، والسرور الدائم ، ورحمة من الله عظيمة ، ولولا أن الدنيا دار ممَر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إنّ وصْل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة فيه ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى .

ولقد جرّبت اللذات على تصرّفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود

---

(١) منذ نشر بتروف ، المستشرق الروسى ، النص العربى لطوق الحمامة ، عام ١٩١٤ ، وتوالت ترجماته ، وعامة المستشرقين يقفون عند هذه الجملة لابن حزم : « الحياة المجددة » ، فقد كانت العنوان الذى أعطاه الشاعر الإيطالى دانتى Dante (١٢٢٥ - ١٣٢١ م) ، لأهم أعماله الأدبية : « الحياة المجددة La Vita Novs » ، أكان مجرد التقاء فكر بين عبقريين ، أم أن الأديب الإيطالى عرف كتاب الطوق ؟ سؤال فى انتظار من يجيب عليه . وهذا ما سأحاوله فى دراسة مقارنة بين طوق الحمامة لابن حزم ، والحياة الجديدة لدانتى ، مع ترجمة نص كتابه الى العربية للمرة الأولى ، وسوف تنشر قريبا بعنوان : الحب عند دانتى وابن حزم : دراسة مقارنة .

بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع في النفس ، ما للوصل لاسيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر ، حتى يتأجّج عليه الجوى ، ويتوقّد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء .

وما أصناف النبات بعد غِبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حَبيب قد رضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت في الحسن أوصافه . وإنه لمعجز ألسنة البلغاء ، ومقصّر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام .

وفي ذلك أقول :

وسائلٍ لِيَ عمّا لِي مِن العُمُرِ وقد رأى الشيبَ في الفودَيْن والعُذُر

أجبْتُهُ ساعةٌ لا شيءَ أحسبُهُ عُمراً سواها بحكْمِ العقْل والنظَر

فقال لي : كيف ذا ؟ بيِّنه لي ، فلقد أخْبَرْتَني أشنعَ الأنباءِ والخَبَر

فقلت : إنَّ التي قلبي بها عَلِقٌ قَبَلْتُها قبلةً يوماً على خَطَر

فما أعُدُّ ولو طالتْ سِنِيُّ سوى تلكَ السويعةِ بالتحقيقِ مِن عُمُري

ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شِغاف القلب ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه .

وفيه أقول قطعة ، منها :

أُسامرُ البــدرَ لمّا أبطأتْ وأرى فى نورهِ من سَنا إشراقها عَرضا

فبِتُّ مُشْترطـــا والودُّ مختلطاً والوَصلُ مُنبسطاً والهجرُ مُنقبضاً

والثانى انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإن لمبادىء الوصل ، وأوائل الأسعاف لتولّجا على الفؤاد ليس لشىء من الأشياء .

وإنى لأعرف من كـان مُمتحنا بهـوى فى بعض المنـازل المصاقبة ، فكان يصل متى شاء بلا مانع ، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زماناً طويلا ، ليلا متى أحب ونهاراً ، الى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة ، ولعهدى به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً . فقلت فى ذلك :

برغبةٍ لو إلى ربىّ دعوتُ بهـــا لــكان ذنبىَ عنـــد اللهِ مغفورًا

ولو دعوتُ بهـــا أسد الفلا لَغَدا إضرارُها عن جميع الناسِ مقصورًا

فجـــاد باللثم لِى من بَعْد مَنْعته فاهتاجَ من لوعتِى ما كـــان مغمورا

كشاربِ الماءِ كي يُطفيءِ الغليلَ به ففَصَّ فانصاع في الأجداثِ مقبورا

وقلت :

جرى الحبُّ منِّى مجرى النَفَسْ وأعطيْتُ عَينِى عِنانَ الفَرسْ

ولِى سيِّدٌ لم يزل نافـــــــرا وربُّتما جـادَ لي في الخُلَس

فقَبَّلْتُهُ طالِبًـــــا راحـــــةً فـزاد أليـــلا بقلبىِ اليَبَس

وكـــــان فـؤادى كَنَبْتٍ هَشيمٍ يَبيسٍ رمىَ فيـــه رَامٍ قَبَس

ومنهـــا :

ويا جوهرَ الصينِ سُحْقًا فقــد غَنِيتُ بيـــاقوتةِ الأنــدلسْ

★ خبــر :

وإنى لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لا علم عنده ، وكثر غمها ، وطال أسفها ، إلى أن ضَنَيَتْ بحبه ، وهو بغرارة الصِّبى لا يشعر . ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه ، لأنها كانت بكرا بخاتمها ، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافقه . فلمّا تمادى الأمر ، وكانا إلفين في النشأة ، شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى ، كانت تثق بها لتوليها تربيتها ، فقالت لها : عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه في كل هذا . ولقد كان لقنًا ذكيا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش

الكلام بوهمه ، إلى أن عيل صبرُها ، وضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردين ، ولقد كان يعلم الله عفيفًا مُتصاونًا بعيداً عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بَدرت إليه فقبلته فى فَمه ، ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيها ، كما أقول فى أبيات لى :

كأنَّها حين تخطــو فى تأوُّدِها   قضيبُ نَرجسةٍ فى الروضِ ميّاسُ

كأنّما خَلْدُها فى قلبِ عاشقها   ففيه مِن وقْعهـــا خَطْرٌ وَوَسْوَاس

كأنّما مَشْيُها مَشْىُ الحمـامةِ لا كَدٌّ يُعـــــابُ ولا بُــطءٌ به باس

فبُهت وسُقط فى يده ، وفُت فى عضده ، ووجد فى كبده وعلته وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ، ووقع شرك الرَّدى ، واشتعلت فى قلبه النار وتصعّدت أنفاسه ، وترادفت أوجاله وكثر قلقه ، وطال أرقه ، فمــا غمض تلك الليلة عينا ، وكان هــذا بدء الحب بينهما دهرًا ، إلى أن جذت جملتهـــا يدُ النوى ، وإن هــذا لمن مصائد إبليس ، ودواعى الهوى التى لا يقف لها أحد ، إلاّ من عصمه اللّه عز وجل .

ومن الناس من يقول : إنّ دوام الوصل يُودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أنى ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفّه عنه سريعًا . ولقد بلغتُ من التمكن بمن أحبُّ أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتُنى إلا مستزيدًا ، ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة .

ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنتُ أحب ، فلم أجل خاطرى فى فن من فنون الوصل ، إلاّ وجدته مقصرًا عن مرادى ، وغير شاف وجْدى ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دُنوًا ازددتُ ولوعًا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى ، فقلت فى ذلك المجلس :

وَدِدْتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمُـــديةٍ ... وأُدخلتِ فيـــهِ ثمّ أُطبِقَ فى صَدْرِى

فأصبحتِ فيـــه لا تحلِّينَ غيرَه ... إلى مُقْتضى يومِ القيـامةِ والحَشْرِ

تعيشينَ فيه ما حييتُ فإن أَمُتْ ... سكنْتِ شغافَ القلبِ فى ظُلَم القبر

ومافى الدنيا حالة تعدل محبّيْن إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البيْن ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العذّل ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبة ، وأتاح اللّه لهما رزقاً دارًا ، وعيشاً قارًا ، وزمانًا هاديًا ، وكان اجتماعُهما على ما يرضى الرّب من الحال ، وطالت صُحبتهما ، واتصلت إلى وقتُ

حلول الحِمامِ الذى لا مردّ له ، ولابد منه . هذا عطاء لم يحصّل عليه أحد ، وحاجة لم تُقض لكل طالب ، ولولا أنّ مع هذه الحال الإشفاق من بغتات المقادير المحكمة فى غيب الله عز وجل ، من حُلول فراق لم يكتسب ؛ واخترام منية فى حال الشباب أو ما أشــبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من كل داخلة .

ولقد رأيتُ مَن اجتمع له هذا كله ، إلاّ أنه كان دُهى فيمن كان يحبه بشراسة الأخــلاق ، ودالة على المَحبــة ، فكانا لا يتهنّيان العيش ، ولا تطلع الشمس فى يوم إلاّ وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخُلق ، لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، الى أن دنت النوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتب لهذا العالم .

وفى ذلك أقول :

كيف أذُمُّ النــــوَى وأظْلِمُهَا وكلُّ أخــلاقِ مَن أُحِبُّ نَوَى

قد كان يَكفى هوًى أُضيقُ به فكيفَ إذْ حَلَّ بِى نَوىً وهَوَى

وروى عن زياد بن أبى سفيان رحمه الله أنه قال لجُلسائه : من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقى من قريش ؟ قيل ؟ فأنت . قال أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل فمن أيها الأمير . قال : رجل مُسلم ، له زوجة مسلمة ، لهما كفاف من العيش ، قد رضيت به ورضى بها ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب .

ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المناظر العجيبة البـاعثة على الرقة ، الرائقة المعنى ، لا سيما إن كان هوى يتكتّم به . فلو رأيتَ المحبوبَ حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضّبه بمحبِّه ، وخجلته فى الخـروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهـه إلى غير وجهه ، وتحيّله فى استنباط معنى يُقيمه عنـد جلسـائه ، لرأيت عجبًا ، ولذة مخفيّة لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ، ولا أغوص على حياتها ، ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل ، وإنّ للمُحبين فى الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكية ، والأفكار القوية .

ولقد رأيت فى بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحقَّ بالبـاطلِ جوزتَ ما شئتَ على الغافلِ
وفيهمــا فرْقٌ صحيحٌ له عـــلامةٌ تبدو إلى العاقل
كالتِّبر إنْ تمــزجْ به فِضّةً جـازت على كلِّ فتىً جاهل
وإنْ تُصادفِ صائغًا ماهرًا ميَّزَ بَيْنَ المحْضِ والحـايل

وإني لأعلم فتى وجارية ، وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان إذا حضرهما أحد ، وبينهما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقي رأساهما وراء المسند ، ويقبِّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكإنهما إنما يتمددان من الكلل . ولقد كان بلغ من تكافيهما فى المودة أمرًا عظيمًا ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها .

وفى ذلك أقول :

ومِن أعاجيبِ الزمـــانِ التى طمَّتْ على السامعِ والقائلِ

رَغبـــــةُ مَركوبٍ إلى راكبٍ وذِلّةُ المســـئول للســـائل

وطَـــولُ مأســـورٍ إلى آسرٍ وصَوْلةُ المَقتـــولِ للقـــاتل

ما إنْ سمعنَا فى الوَرَى قبلَهَا خُضوعَ مأمولٍ إلى آمـــل

هـــل هَاهُنا وجـهٌ نراه سِـوى تواضـــعِ المَفعولِ للفـــاعل

ولقد حدثتنى امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يَجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد ، إجتمعا فى مكان على طرب ، وفى يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرَّها جرًا زائدًا فقطع إبهامه قطعًا لطيفًا ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها ، وأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه . وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

★ خبر :

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى المعروف بابن برطال ، وعمها كان قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى ، وأخوها (1) الوزير القائد ، الذى كان قتله غالبٌ وقائدين له فى الوقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ، ويوسف بن سعيد العكّى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ، ابن الوزير يحيى بن إسحاق (2) فعاجلته المنية وهما فى أغض عيشهما ، وأنضر

---

(1) فى الأصل ، وفى الطبعات العربية « وأخوه » ، وقد صححتها فى ضوء المراجع التاريخية « وأخوها » ، والهامش التالى يزيد الأمر وضوحًا .

(2) يحيى بن زكريا التميمى ، يعرف بابن برطال ، كان والد بريهة أم المنصور بن أبى عامر ، وكان ابنه زكريا ، خال المنصور ، قاضياً على بطليوس وباجة ، فى أيام الخلفاء الأول ، وتوفى عام ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م .

* وكان ابنه الثانى محمد قاضى الجماعة فى قرطبة ، من ٣٨١ هـ = ٩٩١ م الى ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م ، ثم ظهر اختلاله لكبر سنه ، فتخوف منه المنصور ، فنقله من القضاء إلى الوزارة ، ولكن ما لبث أن توفى عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٤ م .

* أما الوزير القائد الذى أشار إليه نص « طوق الحمامة » دون أن يذكر اسمه ، فقد كان أخًا لبنت زكريا التى يتحدث عنها ابن حزم ، وليس أخا القاضى كما يفهم من النص قبل تصحيحه . والمعركة التى يشير إليها ابن حزم ، وقعت عام ٣٧٠ هـ = ٩٨١ م ، بين المنصور بن أبى عامر وغالب بن عبد الرحمن ، من قواد الحكم الثانى .

* ويحيى بن إسحاق كان من قواد عبد الرحمن الناصر .

* أما القائدان الآخران ، مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكى ، فلم أهتد لهما إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذى يُخاتل به الرقباء ، ويحتفظ به من الحضر ، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدى ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعًا من النفس شهيًا .

وفى ذلك أقول :

إنّ للوصْل الخفىِّ محــلاً ليس للوصلِ المكينِ الجليِّ
لَذّةٌ تمزجُهَـــا بارتقــابٍ كمسيرٍ فى خـــلالِ النقِّ

★ خبر :

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى جليل من أهل البيوتات ، أنه كان علَق فى صباه جارية كانت فى بعض دُور آله ، وكان ممنوعا منها فهام عقله بهـا . قال لى : فتنزهنا يومًا إلى بعض ضياعنا بالسهلة ، غربى قرطبـة ، مع بعض أعمـامى ، فتمـشينا فى البساتين ، وأبعدنا عن المنازل ، وانبسطنا على الأنهار ، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يفى الجميع . قال : فأمر عمى ببعض الأغطية فألقى علىّ ، وأمرها

بالاكتنان معى ، فظُنّ بما شئت من التمكن على عين الملأ وهم لا يشعرون ، وبالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد . قال لى : فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدا . ولعهدى به ، وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضائه كلها تضحك . وهو يهتز فرحًا على بعد العهد وامتداد الزمان . ففى ذلك أقول شعرًا منه :

يضحكُ الروضُ والسحائبُ تَبكِى كحبيبٍ رآه صـــبٌّ مُعَنّى

★ **خبر :**

ومن بديع الوصل ما حدثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنازل المصاقبة له هوى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر . فكانت تقف له فى ذلك المَوضع ، وكان فيه بعض البعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى قميصها ، فخاطبها مستخبرًا لها عن ذلك ، فأجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شيء ، فوقف لك غيرى فسلم عليك . فرددت عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بينى وبينك ، فإذا رأيت يدًا مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدى فلا تجاوب .

وربما استُحْلِى الوصال ، واتفقت القلوب ، حتى يقع التخلّج فى الوصال ، فلا يُلتفت إلى لائم ، ولا يُستتر من حافظ ، ولا يُبالى بناقل ، بل العذل حينئذ يُغرى .

وفى صفة الوصل أقول شعرًا ، منه :

كم دُرْتَ حولَ الحُبِّ حتى لقـــدْ حَصلْتَ فيه كحصـــول الفراشْ

ومنه :

تَعْشُو إلى الوصْلِ دواعي الهَوَى كما سَرَى نحو سَنَا النارِ عاشْ

ومنه :

عللّنى بالوصـــلِ من سـيِّدى كمثْلِ تَعْليلِ الظَمَاءِ العِطـاشْ

ومنه :

لا تُوقفِ العـينَ على غـــايةٍ فالحُسنُ فيـه مُستزيدٌ وباشْ

وأقول من قصيدة لى :

هـــل لقتيلِ الحبِّ مِن وَادى أمْ هل لعانى الحبِّ من فَادِى

أم هل لدهـــرى عودةٌ نحوَهَا كمثْلِ يومٍ مَرَّ فى الـــوادى

ظللتُ فيـــه سـابحًا صاديًا يا عجبًا للسابحِ الصـــادى

ضَنيتُ يا مولاىَ وَجْدًا فمـــا تُبْصرُنى ألحـــاظُ عُوَّادى

كيف اهتدى الوجدُ إلى غائبٍ عن أعينِ الحاضرِ والبادى

مَلَّ مُداواتى طبيبى فقـــدْ يَرْحمنى للســقْمِ حُسَّادى

٢١

باب الهجـــر

ومن آفات الحب أيضًا الهجر ، وهو على ضروب :

فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وإنه لأحلى من كل وصل ، ولولا أن ظاهر اللفظ ، وحكم التسمية ، يوجب إدخاله فى هذا الباب ، لرجعت به عنه ، ولأجللته عن تسطيره فيه . فحينئذ ترى الحبيب منحرفًا عن مُحبه ، مقبلا بالحديث على غيره ، معرضًا بمعرض لئلا تلحق ظنته ، أو تسبق استرابته .

وترى المحب أيضًا كذلك ، ولكن طبعه له جاذب ، ونفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ منحرفًا كمُقبِل ، وساكتًا كناطق ، وناظرا إلى جهة نفسه فى غيرها .

والحاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما علِمَ أن الخافى غير البادى ، وما جَهَر به غير نفس الخبر ، وأنه لمن المشاهد الجـالبة للفتن ، والمنـاظر المحــركة للسواكن ، البـاعثة للخواطر ، المهيجة للضـمائر الجاذبة للفتوة .

ولى أبيات فى شىء من هذا أوردتها ، وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا ، منها :

يلومُ أبو العباسِ جهلاً بطبعهِ كما عَيَّر الحوتُ النعامةَ بالصدَى

ومنها :

وكم صاحبٍ أكرمتُهُ غيرَ طائعٍ ولا مُكرَهٍ إلاّ لأمرٍ تُعمِّدا

وما كان ذاك البِرُّ إلاّ لغيرِهِ كما نَصَبُوا للطيرِ بالحبِّ مِصْيَدا

وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحِكَم وفنون الآداب الطبيعية :

وسرَّاء أحشائى لمنْ أنا مؤثِر

وسَرَّاء أنبائى لمن أتحببُ

فقد يُشربُ الصابُ الكريهُ لعلّةٍ

ويُترك صفوُ الشَّهْدِ وهو مُحبَّبُ

وأعْدلُ فى إجْهاد نفسىَ فى الذى

أريدُ وإنّى فيه أشقَى وأتعَبُ

هل اللؤلؤُ المكنونُ والدُّرُّ كلُّه

رأيتَ بغيرِ الغوْصِ فى البحر يُطلب

وأصرفُ نفسى عن وجوه طِباعِها

إذا فى سواها صَحَّ ما أنا أرغب

كما نَســـخَ الله الشـــرائعَ قَبْلَنا

بما هو أدنى للصـــــلاحِ وأقرب

وألقَى سَـــجايا كلِّ خَلقٍ بمثـلها

ونعتُ ســـجاياىَ الصحيحُ المهذَّب

كما صـــار لونُ المـــاءِ لونَ إنائهِ

وفى الأصْل لونُ الماء أبيضُ مُعْجِب

ومنها :

أقمتُ ذَوِى وُدِّى مُقامَ طبائعى حَياتِى بها والموتُ منهنّ يَرْهَب

ومنها :

وما أنـــا ممن تَطَّبيهِ بشـــاشةٌ

ولا يقتضى ما فى ضميرى التحبُّبُ

أريدُ نِفـــاراً عنـــدَ ذلك باطِناً

وفى ظـاهرى أهلٌ وسـهلٌ ومَرْحب

فإنّى رأيتُ الحربَ يَعْلُو اشــتعالُهَا

ومبـــــدؤُها فى أول الأمـــرِ ملْعب

وللحيَّة الرقشــــــاءِ وَشْى ولـــونُها

عجيبٌ وتحتَ الوشْى سُـــمٌ مركّب

وإنّ فِرِنْدَ السّـــيفِ أعجبُ منظراً

وفيه إذا هُزَّ الحِمـــــامُ المُـــذرّب

وأجعَـــــلُ ذُلَّ النفس عِزَّةَ أهـــلِهَا

إذا هى نـــالتْ ما بهـــا فيه مذهب

فقد يضعُ الإنسانُ فى التربِ وَجْهَهُ

ليأتى غــداً وهو المَصــــونُ المقرَّب

فذُلٌّ يســــوقُ العـــزَّ أجودُ للفتى

من العـــزِّ يَتــــلوه من الــذلِّ مَركب

وكم ماكلٍ أربـتْ عـــــواقبُ غَيِّـــه

ورُبَّ طَـــوًى بالخِصْـــبِ اتٍ ومُعْقب

ومــــا ذاقَ عِزَّ النفس مَن لا يُـــذِلُّها

ولا التـذَّ طعْمَ الروح مَن ليس يَنصَب

ورُودُك نهــــل الماءِ مِن بَعْدِ ظَمــــأةٍ
ألذُّ مِن العــــــَـــــلُّ المكينِ وأعْذب

ومنها :

وفى كلُّ مَخلــوقٍ تراه تَفاضُـــــلٌ
فَردٌ طيّبــــاً إنْ لم يُتحْ لك أطْيـــبُ
ولا تــرْضَ ورْدَ الرَّنْــقِ إلاّ ضــــرورة
إذا لم يكن فى الأرض حاشاه مَشرب
ولا تقـــربنْ ملْحَ الميـــــاهِ فإنَّهــــا
شَــجىً والصــدَى بالحُرِّ أولى وأوجـب

ومنها :

فَخُـــذْ من جَـــداها ما تيسَّـرَ واقتنعْ
ولا تَكُ مشـــــــغولاً بمن هو يَغْــــلبُ
فما لكَ شـــــــرطٌ عنــدها لا ولا يــدٌ
ولا هىَ إنْ حَصـــــــّـــلتْ أمٌّ ولا أب

ومنها :

ولا تيأســـــنْ ممَّا يُنــــال بحيــلةٍ
وإنْ بَعُــدَتْ فالأمرُ ينــــأى ويَصْـــعُب

ولا تأمنِ الإظــــلامَ فالفجرُ طــــالعٌ

ولا تلتبسْ بالضــوْءِ فالشـمسُ تَغْرب

ومنها :

ألِحَّ فـــإنّ المـاء يكـدحُ فى الصفا

إذا طـــال ما يأتى عـــليه ويذهـــب

وكثِّرْ ولا تَفْشـــــلْ وقلِّلْ كثيـــرَ ما

فَعلّتَ فمـــــاءُ المزْنِ جَمٌّ وينضـــــب

فلو يتغـــــذّ المرءُ بالســـــمِّ قاته

وقـــــام لهُ منـــه غِـــــذاءُ مُجَرَّبٌ

ثم هَجْر يوجبه التدلل ، وهو ألذ من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه ، واستحكام البصيرة فى صحة عقده ، فحينئذ يُظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر مُحبِّه ، وذلك لئلا يصفو الدهر ألبتة ، وليأسف المحب إن كان مفرط العشق عند ذلك ، لا لما حلّ لكن مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل .

ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود ، فلما كثر ذلك قلت على

سبيل المزاح شعراً بديهياً ، ختمتُ كل بيت منه بقسم من قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ، وهي التي قرأناها مشروحة على أبي سعيد الفتى الجعفري (١) ، عن أبي بكر المقرئ (٢) ، عن أبي جعفر النحاس (٣) ، رحمهم الله ، في المسجد الجامع بقرطبة ، وهي :

تذكّـــــرتُ وُدّاً للحبيبِ كــــأنّه
لخــولّةَ أطـــلالٌ ببـرقة ثَهْمَــدِ

وعهدي بعهـــدٍ كان لي منـــهُ ثابتٍ
يلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ

وقفــتُ به لا مُوقنـــاً برجـــوعه
ولا آيســـاً أبكي وأبكي إلى الغـدِ

إلى أنْ أطالَ الناسُ عذلي وأكثروا
يقولون : لا تهـــلكْ أسـىً وتجـلّدِ

---

(١) لا تمدنا المصادر بأية معلومات عن أبي سعيد الفتى الجعفري هذا ، ولكن كلمة الفتى كانت تطلق على من يعملون في قصر الخلافة ، وهم من الخصيان عادة ، وكلمة الجعفري تومئ إلى أنه كان مولى الحاجب جعفر ابن عبد الرحمن .

(٢) لم أهتد إلى ترجمة له .

(٣) أبو جعفر النحاس، أحمد بن محمد ، من أعلام النحاة بمصر في القرن الرابع الهجري ، غزير العلم ، واسع الرواية ، كثير التآليف ، تزيد مصنفاته في رواية ياقوت على الخمسين ، وقد ضاع أغلبها . توفي في ٥ من ذي الحجة عام ٣٣٨ هـ = ٢٦ من مايو ٩٤٩ هـ .

كأن فنونَ السـخْطِ ممن أحِبُّه

خـلايا سَـفينٍ بالنواصفِ من دَدِ

كأن انقـلابَ الهجْرِ والوصـلِ مَرْكبٌ

يجـورُ به المـلاّحُ طـوراً ويهتـدى

فَوَقْتُ رضىً يتـلوهَ وَقْتُ تسـخُّطٍ

كما قَسـم التُّرْبَ المفـايلُ باليد

ويبسـم نحوى وهو غضبانُ معرضٌ

مظـاهُر سِـمْطَىْ لؤلؤ وزَبرْجَـدِ

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة ، وسرور الرضى ، يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة ، وموقعا من الروح لا يفوقه شئ من أسباب الدنيا . وهل شاهد مشاهد ، أو رأت عين ، أو قام في فكر ، ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ، وبعد عنه كل بغيض ، وغاب عنه كل واش ، واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحبّ منهما وطال ذلك قليلا ، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثَمَّ مانع من الإطالة للحديث ، فابتدأ المحبّ في الاعتذار والخضوع والتذلل ، والإدلاء بحجته من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف ، فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يرد بالعفو ،

ويستدعى المغفرة ، ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض ، يسارقه اللحظ الخفى ، وربما أدامه فيه ، ثم يبسم مخيفاً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى . ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر ، ويقبل القول ، وامتحت ذنوب النقل ، وذهبت آثار السخط ، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب، وختما أمرهما بالوصل الممكن ، وسقوط العتاب والإسعاد ، وتفرقا على هذا .

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات ، وتتلكن بتحديده الألسنة ، ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه من مُحِبٍّ أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب غضبان ، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين ، وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف ، ولا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى

أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح ، وأتحلل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنن القول فنونا ، وأتصدّى لكل ما يوجب الترضي .

والتجنّي بعض عوارض الهجران ، وهو يقع في أول الحب وآخره ، فهو في أوله علامة لصحة المحبة ، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو .

★ خبر :

وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة ، في مقبرة باب عامر ، في لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يـــزيد المصري (١) بالرصافة ، أستاذي رضي الله عنه ، ومعنا أبو بكر

---

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد الأزدي ، مصري الأصل والنشأة ، قدم قرطبة تاجراً عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ م ، وفيها أقام يتاجر في الأصواف ، ويضطلع بالتدريس ، وكان واسع الثقافة في اللغة الأدب والأنساب والأشعار ، فعظمت حلقته واتسعت ، وتكاثر عليه الطلاب ، وكان ابن حزم أحد طلابه ، وهو هنا يدعوه أستاذي ، وترك قرطبة عائدا إلى مصر عام الفتنة ، عندما اقتحم البرابر عاصمة الخلافة . وفي مصر توفي عام ٤١٠ هـ = ١٠١٩ .

عبد الرحمن بن سليمان البلوى [1] من أهل سبتة [2] ، وكان شاعراً مفلقاً ، وهو ينشد لنفسه فى صفة متجن معهود أبياتاً له ، منها :

سـريعٌ إلى ظهرِ الطريقِ وإنه   إلى نَقْضِ أسبابِ المودَّةِ يُسْرِع
يطـولُ علينـــا أن نرقِّع ودَّهُ   إذا كـان فى ترقيعِـهِ يَقْطَع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبى على

---

(١) أديب شاعر ، وخصه الضبى فى «البغية» بترجمة قصيرة ، ليست بذات أهمية .

(٢) سبتة Ceuta ، مدينة أندلسية عامرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من عدوة المغرب ، فى مواجهة الجزيرة الخضراء ، وخلال دولة الإسلام فى الأندلس كانت تكون جزءاً منه تارة ، ومن المغرب تارة أخرى . وقد استولى عليها البرتغاليون عام ١٤١٥ م ، أى قبل سقوط دولة الإسلام فى الأندلس بثلاثة أرباع القرن ، وآل أمرها إلى إسبانيا عام ١٦٤٠ م .

وكانت فى عصرها الإسلامى مزدهرة ثقافياً ، تزخر بالأدباء والعلماء والصلحاء ، وبالمساجد والمدارس ، وألف عدد من المؤرخين كتباً ورسائل فى تاريخها ، على رأسهم القاضى عياض فله كتاب : «الفنون الستة فى أخبار سبتة» . وإليها ينسب سيدى عبد الرحيم القنائى ، صاحب المزار الشهير فى مدينة قنا بأعلى مصر .

ولقد اندثر ذلك /كله الآن ، استعجم لسانها ، وعفت رسومها الإسلامية ، وأصبح سكانها البالغ عددهم ٧٦ ألفاً كلهم من الإسبان . ويرجى لها مع تحرر المغرب ، ويقظة المسلمين أن تعود فى القريب العاجل إلى الوطن الأم .

الحسين بن على الفاسى رحمه الله تعالى (١) ، وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبى يزيد ، فسمعه فتبسّم رحمه الله نحونا ، وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله فهو أولى ، هذا على جدٍّ أبى على الحسين رحمه الله وفضله ، وتقربه وبراعته ، ونسكه وزهده وعلمه . وفقلت فى ذلك :

دعْ عنكَ نقضَ مودّتى متعمِّداً ... واعقدْ حبالَ وصالِنَا يا ظالُم
ولتــرجعنَّ أردْتَــهُ أو لم ترد ... كَرْهاً لِماَ قـال الفقيــهُ العـالم

ويقع فيه الهجر والعتاب . ولعمرى إن فيه إذا كان قليلا للذة ، وأما إذا تفاقم فهو فألٌ غير محمود ، وأمارة وبينة المصدر ، وعلامة سوء ، وهى بجملة الأمر مطية الهجران ، ورائد الصريمة ، ونتيجة التجنى ، وعنوان الثقل ، ورسول الانفصال ، وداعية القلى ، ومقدمة الصد ، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله الإشفاق .

وفى ذلك أقول :

لعـلّك بَعْدَ عُتْبك أنْ تجودا ... بمـا منهُ عتبت وأنْ تَـزيدا

---

(١) صححته «أبى على الحسين» بدلا من «أبى الحسين» ، وذكر ابن بشكوال فى الصلة أن اسمه الحسن ، وأجمع كلاهما على أنه يكنى أبا على . وأورد له حواراً مع ابن حزم ، وقد وصفه بقوله : «ناهيك به سروا ودينا وعقلا وعلماً وورعـا وتهذيباً وحسن خلق » .

فكم يوم رأينَا فيه صحْواً وأسمْعنا بآخرِه الرعودا
وعاد الصحْوُ بعدُ كما علمنا وأنتَ كذَاكَ نرجو أن تعودا

وكان سبب قولى هذه الأبيات عتاب وقع فى يوم هذه صفته من أيام الربيع ، فقلتها فى ذلك الوقت ، وكان لى فى بعض الزمن صديقان ، وكانا أخوين ، فغابا فى سفر ثم قدما ، وقد أصابنى رَمَد فتأخرا عن عيادتى ، فكتبتُ إليهما ، والمخاطبة للأكبر منهما ، شعراً منه :

وكنتُ أعَددُّ أيضاً علَى أخيكَ بمُؤلمةِ السَّامعِ
ولكنْ إذا الدَّجْنُ غَطَّىَ ذُكا ء فما الظنُّ بالقمرِ الطالعِ

ثم هجر يوجبه الوُشاة ، وقد تقدم القول فيهم ، وفيما يتولّد من دبيب عقابهم ، وربما كان سبباً للمقاطعة البتة .

ثم هجر الملل . الملل من الأخلاق المطبوعة فى الإنسان ، وأحرى لمن دُهى به ألا يصفو له صديق ، ولا يصح له إخاء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلف ، ولا تطولُ مُساعدته لمحبّ ، ولا يعتقد منه ودّ ولا بغض . وأولى الأمور بالناس ألا يعدّوه منهم ، وأن يفروا عن صحبته ولقائه ، فلن يظفروا منه بطائل . ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها فى المحبوبين ، فهم بالجملة أهل التجنى والتظنّى ، والتعرض للمقاطعة . وأما من تزيا باسم الحُب وهو ملول فليس منهم ، وحقه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنْفَى عن أهل هذه الصفة ، ولا يدخل فى جملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبى عامر محمد ابن عامر (١) رحمه الله ، فلو وصف لى واصف بعضَ ما علمته منه لما صدقته .

وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة ، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم إليه ، فلا تثق بملول ، ولا تشغل به نفسك ، ولا تعنها بالرجاء فى وفائه . فإن دُفِعْتَ إلى محبته ضرورةٌ فعده ابن ساعته ، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ماتراه من تلونه ، وقابله بما يشاكله . ولقد كان أبو عامر المحدَّثُ عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان .

هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق

(١) يرد على الخاطر للوهلة الأولى أنه المنصور بن أبى عامر ، ولكن ذلك مستحيل ، لأن المنصور توفى وعمر بن حزم ثمانى سنوات ، وفى سن كهذه يستحيل أن يقص عليه الحكايات التى سوف يوردها ابن حزم فى آخر الباب نقلا عنه ، وأرجح على سبيل اليقين أنه ابن لعبد الملك المظفر ، أى أنه حفيد المنصور بن أبى عامر ، وكان يحمل اسم جده .

والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخم ، والجاه العريض .

وأما حسن وجهه ، وكمال صُورته ، فشئ تقف الحدود عنه . وتكِل الأوهام عن وصف أقله ، ولا يتعاطى أحد وصفه .

ولقد كانت الشوارع تخلو من السيَّارة ، ويتعمدون الخطور على باب داره ، في الشارع الآخذ من النهر الصغير ، على باب دارنا في الجانب الشرقي بقُرطبة ، إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفي هـــذا الدرب كـانت داره رحمـــه الله ملاصـــقة لنا ، لا لشئ إلا للنظر منه . ولقد مات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به ، ورثين له ، فخـــانهن مما أملنْه منه ، فصرن رهائن البِلىّ ، وقتلتهن الوحدة (١) .

وأنا أعرف جـــارية منهن كانت تســـمى عفراء ، عـــهدى بها لا تتســـتر بمحبتـــه حيثمـا جلســـت ، ولا تجف دموعهـــا . وكـانت قد تصـــيرت من داره إلى أبى البركات الخيـــالى صـاحب

---

(١) تقـــدم لنـا هذه الفقرة معلـومات جيـدة ومفصـلة عن بعض ألـوان الحيـاة العـــامة في قرطبـة ، وعن ســـكن ابن حـــزم وداره بخاصة .

البنيـان (١) . ولقد كان رحمه الله يُخبرني عن نفسه أنه يميل اسمه ، فضلاً عن غير ذلك .

وأما إخوانه فإنه تبدل بهم في عُمره على قصره مراراً ، وكان لا يثْبت على زى واحد كأبى بَراقش ، حيناً يكون فى ملابس المُلوك ، وحيناً فى ملابس الفتاك .

فيجب على من أمتحن بمخالطة من هذه صفته ، على أى وجه كان ، ألا يستفرغ عامة جُهده فى محبته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه ، فإذا لاحتَ له مخايل الملل قاطعه أياماً حتى نشط باله ، ويبعد به عنه ، ثم يُعاوده ، فربما دامت المودة مع هذا .

وفي ذلك أقول :

لا تـــــرجُـــــوَنَّ ملولاً ليـــــس الملـــــول بعُـــدّةْ
وُدُّ الملـــــولِ فـــــدَعْهُ عـــــاريَةٌ مســـــتردّةْ

---

(١) جاء هذا النص فى المخطوطة وفى الطبعات العربية على النحو التالى : «إلى البركات الخيال صاحب الفتيان» . وصحته : «إلى أبى البركات الخيالى صاحب البنيان» . فقد كان فى قصر الخلافة إدارة يطلق على صاحبها اسم : «صاحب البنيان» ، ولم تكن هناك خطة يطلق على القائم بها «صاحب الفتيان» . وكلمة «الخيالى» تشير إلى أنه كان مولى للسيدة خيال ، زوجة المظفر ، أكبر أبناء المنصور بن أبى عامر ، فنسب إليها . وقد تزوجت السيدة خيال ، بعد موت المظفر من القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين ، وأمير قرطبة لسنوات .

ومن الهجر ضَرب يكون متولية المحبّ ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره ، أو لثقيل يلازمه ، فيرى الموت ويتجّرع غُصص الأسى والعض على نقيف الحنظل أهون من رؤية ما يكره ، فينقطع وكبده تتقطّع .

وفي ذلك أقول :

هجرتُ من أهواهُ لا عن قلًى يا عجباً لعاشقِ الهاجر
لكنَّ عيني لم تُطقْ نظرةً إلى مُحَيَّا الرَّشأ القادر
فالموتُ أحلى مَطْعماً من هَوىً يُباحُ للواردِ والصادرِ
وفي الفؤادِ النارُ مذْكيةٌ فاعجبْ لصَبٍّ جَزِعٍ صابرِ
وقد أباحَ اللهُ في دينه تقيَّةَ المأسورِ للآسر
وقد أحلَّ الكفرِ خوفَ الردى حتى ترى المؤمنَ كالكافر

★ خبر :

ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه ، أني أعرف مَن هام قلبه بمتناء عنه ، نافر منه ، فقاسى الوجد زمناً طويلا ، ثم سَنَحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل ، أشرف بها على بلوغ أمله ، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء ، عاد الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل .

فقلت فى ذلك :

كانتْ إلى دهرىَ لي حاجةٌ
مقرونةٌ فى البعدِ بالمُشترى
فساقها باللطف حتى إذا
كانتْ من القُربِ على مَحْجرِ
أبْعدها عنِّى فعادتْ كأنْ
لم تُبْد للعينِ ولم تظهر

وقلت :

دنا أملى حتى مَدَدْتُ لأخْذِهِ
يَداً فانثنى نحوَ المجرَّةِ راحلاً
فأصبحتُ لا أرجو وقد كنتُ موقناً
وأُضْحِى معَ الشِّعْرَى وقد كان حاصِلا
وقد كنتُ محسوداً فأصبحتُ حاسداً
وقد كنتُ مأمولاً فأصبحتُ آملا
كذا الدهرُ فى كرَّاتِه وانتقالِه
فلا يأمَنَنَّ الدهرَ من كان عاقلا

ثم هَجْر القلى ، وهنا ضلّت الأساطير ، ونفدت الحيل ، وعظم البلاء ، وهو الذى خلّى العقول نواهل ، فمن دُهى بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه ، وليتعمّد ما يعرف أنه يستحسنه ، ويجب أن يجتنب ما يدرى أنه يكرهه ، فربما عطفه ذلك عليه ، إنْ كان المحبوب ممن يدرى قدر المُوافقة والرغبة فيه ، وأمّا من لم يعلم قدر هذا فلا طمع فى استصرافـه ، بل حسناتك عنده ذنوب ، فإن لم يقدر المرء على استصرافـه فليعتمد السلْوان ، وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ، ويسعى فى نيل رغبته على أى وجه أمكنه .

ولقد رأيت من هذه صفته ، وفى ذلك أقول قطعة أولها :

دُهيتُ بمن لو أدفـعُ المــوتَ دونَـهُ

لقــالَ إذاً يا ليتنِى فــى المقــابرِ

ومنها :

ولا ذنبَ لى إذ صرْتُ أحْنو ركائبِى

إلى الورْدِ والدُّنيا تُســىءُ مَصادرى

وماذا على الشمس المُنيرةِ بالضُّحى

إذا قَصَّرتْ عنها ضِعافُ البصائر

مـا أقبحَ بَعـْدَ وَصـْلٍ
وأحسنَ الوصلَ بعد هَجْرِ
كـالوفْرِ تحويـه بعد فَقْرٍ
والفقْرِ يـأتيكَ بَعْدَ وَفْرِ

وأقول :

معهـود أخـلاقِك قسمـانِ
والدهرُ فيك اليوم صِنْفانِ
فإنَّك النعمـانُ فيما مَضَى
وكـانَ للنعمـانِ يومـانِ
يومُ نعيمٍ فيه سـعْدُ الورى
ويـومُ بأسـاءَ وعـُدْوان
فيـومُ نعمـاكَ لغيرى ويـو
مـى منكَ ذو بُؤس وهِجران
أليس حبىٌّ لك مُسْتـأ هِلاً
لأن تُجـازيه بإحسـانِ

وأقول قطعة منها :

يـــامن جميـــعُ الحُســـنْ مُنتظمُ
فيـــه كنْظـم الـــدرُّ فـــى العِقـدْ
مـــا بـــال حَتْفــِي منك يطْرقُنى
قَصــــدْا ووجْهــكَ طالـــعُ الســَّعد

وأقول قصيدة أولها :

أســـاعةُ توْديعك أمْ سـاعةُ الحَشْـرِ
وليلـــهُ بَيْنـِي منك أمْ ليلـــةُ النشــْرِ
وهجـرُك تعـــذيبُ المـوحّدُ ينقضـِي
ويرجـو التـلاقيِ أمْ عـذابُ نوِي الكُفْرَ

ومنها :

ســـقى اللـــهُ أيامـــاً ولياليـاً
تحاكى لنا النّيلُوفَرَ الغضُّ فى النشْرِ
فأوراقـــهُ الأيـــامُ حُســـناً وبهجـةً
وأوْســـَطُه الليـــلُ المُقصـــرٌُ للعمُـر
لهونـــا بهـــا فـــى غَمـرةٍ وتـــألفٍ
تَمُرُّ فـــلا تـدْرى وتـــأتى فلا ندرى

فأعقبنــا منــــه زمــــانٌ كـــأنَّه

ولاشــك حُســنُ العقْـدِ أعْقِبَ بالغدر

ومنها :

فلا تيــأسِـي يــانفْس عــلَّ زمانَنــاَ

يعـــدُّ بوجهٍ مُقبـــلٌ غـيرُ مدْبرِ

كمــا صَرَفَ الرحمــــنُ مـلْك أمَيـةٌ

إليهــم ولــــؤذى بالتجمـلُ والصبر

وفى هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد ، أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى (١) رحمه الله ، فاقول :

أليسَ يُحيط الرُّوح فينــا بكل مـا

دنَا وتناءى وهو فى حُجب الصدْر

---

(١) عبد الرحمن المرتضى ، أول أموى ثار على حجابة بنى عامر وطالب بالخلافة ، ومعه ناضل ابن حزم من أجل أن تكون لهم ، وقد هزم المرتضى فى غرناطة على يد زاوى بن زيرى .
أما أبو بكر هشام بن محمد الذى يهديه ابن حزم قصيدته ، فكان الأخ الأكبر لعبد الرحمن المرتضى ، وهو آخر خليفة أموى فى قرطبة ، ولد ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م ، وبويع بالخلافة فى ٤١٨هـ = ١٠٢٧ م ، ودخل قرطبة فى ٤٢٠هـ = ١٠٢٩ م ، وأزيح عن الخلافة فى ٤٢٢هـ = ١٠٣١ م ، ليموت مغموراً فى لاردة Lérida مدينة أندلسية فى الشمال الشرقى ، بعد ذلك بخمسة أعوام .

كذا الدهْر جسم وهو فى الدّهرِ رُوحُه

مُحيطٌ بما فيه وإن شِئْتَ فاستقر

ومنها :

إتاوتُهــــا تُهـــــدىَ إليــــه ومنــّةً

تقبلُّهـــاَ منُهــْم يقـــاومُ بالشــكُر

كـــذا كــــلُّ نَهْر فى البـــلاد وإن طَمت

غزارتـُه ينصبٌ فــى لَجِج البَحْر

٢٢
باب الوفاء

ومن حميد الغرائز ، وكريم الشيم ، وفاضل الأخلاق فى الحُب وغيره الوفاء وإنه لمن أقوى الدلائل ، وأوضح البراهين ، على طيب الأصل ، وشرَف العنصر ، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات .

وفى ذلك أقول قطعة منها :

أفعالُ كلِّ امرئٍ تُنْبى بُعنصره
والعينُ تُغنيكَ عن أنْ تطلب الأثَرا

ومنها :

وهل ترى قطُّ دِفلى أنبتت عنبا
أو تذْخَرْ النحل فى أوكارها الصبْرا

وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم ، وحق واجب ، على المُحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلاَ خبيث المحتد ، لاخلاق له ، ولا خير عنده .

ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام فى أخلاق الانسان وصفاته المطبوعة والتطبع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع ، وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع ، لزدت فى هذا المكان ما يجب أن يوضع فى مثله . ولكن أنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط . وهذا أمر كان يطول جداً ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا .

★ خبر :

ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء فى هذا المعنى ، وأهواله شأناً ، قصة رأيتها عياناً ، وهو أنى أعرفُ مَنْ رضى بقطيعة محبوبه ، وأعز الناس عليه ، ومَنْ كان الموت عنده أحلى مِن هجر ساعة في جَنب طيّه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألا يكلمه أبداً ، ولا يكون بينهما خبر أو يفضح إليه ذلك السر . على أن صاحب ذلك السر . كان غائباً فأبى من ذلك ، وتمادى هو على كتمانه ، والثانى على هجرانه إلى أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية ، وهو الوفاء لمن غدر ، وهى للمحُب دون المحبوب ، وليس للمحبوب ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهى خُطّة لايُطيقها إلا جلد قوى واسع الصدر ، حر النفس ، عظيم الحِلْمْ جليل الصبر ، حصيف العقل ، ماجد الخلق ، سالم النية .

ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة ، ولكن الحال التى قدمنا تفوقها جداً ، وتفوتها بعداً ، وغاية الوفاء فى هذه الحال

تَرْكُ مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيئ المعارضة بالفعل والقول ، والتأنيّ في جزء حَبل الصحبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع في الرجعة ، ولاحت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو توجس منها أيسر علامة .

فإذا وقع اليأس ، واستحكم الغيظ حينئذ ، والسلامة مِن غُرْك ، والأمن مِن ضرّك ، والنجاة من أذاك ، وأن يكون ذكر ماسلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع . فَرعْيُ الأذمّة حق وكيدٌ ، وعلى أهل العقول ، والحنينُ إلى مامضى ، وألا ينسى ما قد فرغ منه ، وفنيت مدته ، أثبتُ الدلائل على صحة الوفاء ، وهذه الصفة حسنة جداً ، وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فما بينهم ، على أي حال كانت .

★ خبر :

ولعهدي برجل من صَفوة إخواني قد عَلق بجارية فتأكد الود بينهما ثم غدرت بعهده ، ونقَضت وُده ، وشاع خبرهما ، فَوجد لذلك وجداً شديداً .

★ خبر :

وكان لي مرة صديق ففسدت نيّته بعد وكيد مودّة لا يُكفر بمثلها ، وكان عَلِمَ كل واحد منا سرّ صاحبه ، وسقطت المئونة ،

فلما تغيّر عليّ أفشى كل ما اطلع لي عليه مما كنتُ اطلعتُ منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله فيّ قد بلغني ، فجزع لذلك ، وخشي أن أقارضه على قبيح فعلته . وبلغني ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه ، وأعلمه أني لا أقارضه .

★ خبر :

ومما يدخل في هذا الدّرج ، وإن ليس منه ، ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ، ولكنه شبيه له على ماقد ذكرنا وشرطنا ، وذلك أن محمد بن وليد بن مكسير [1] الكاتب كان مُتصلا بي ، ومنقطعاً إليّ أيام وزارة أبي رحمة الله عليه ، فلما وقع بقرطبة ما وقع [2] ، وتغيرت أحوال ، خرج إلى بعض النواحي فاتصل بصاحبها ، فعرض جاهُه ، وحدثت له وجَاهة وحال حسنة . فحللتُ أنا تلك الناحية في بعض رحلتي ، فلم يُوفّني حقي بل ثقل عليه مكاني ، وأساء معاملتي وصُحبتي ، وكلفته في خلال ذلك حاجة لم يقم بها ولا قَعد ، واشتغل عنها بما ليس في مثله شغل ، فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه ، فجاوبني مستعيباً على ذلك ، فما كلفته حاجة بعدها .

---

(١) لم أهتد إلى شخصية محمد بن وليد مكسير هذا ، ولعل لفظ « مكسير » محرّف .

(٢) يشير إلى اقتحام البربر مدينة قرطبة ، وانتهابهم لها عام ٤٠٣هـ = ١٠١٣ م .

ومما لى فى هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبيات قلتها ، منها :

وليس يُحمدُ كتمانٌ لمكتتم

لكنَّ كَتْمَكَ ما أفشاهُ مُفشيهِ

كالجُودِ بالوفرِ أسنى ما يكون إذا

قلَّ الوجود له أو ضنَّ مُعطيه

ثم مرتبة ثالثة ، وهى الوفاء مع اليأس الباتّ ، وبعد حلول المنايا ، وفجاءات المنون ، وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجل وأحسن منه فى الحياة مع رجاء اللقاء .

★ خبر :

ولقد حدّثتنى أمرأة أثق بها ، أنها رأت فى دار محمد بن أحمد ابن وهب المعروف بابن الركيزة ، من ولد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضى الله عنه ، (١) جارية رائعة جميلة ، كان لها

(١) بدر ، خادم عبد الرحمن الداخل ومولاه ، ورفيقه فى رحلته المضنية إلى شمال أفريقية تلاحقه سيوف بنى العباس ، ورسوله إلى أهل الأندلس بعد أن استقر به المقام لاجئاً فى رحاب أخواله من البربر ، وظل إلى جواره بعد أن انتصر ، وأقبلت عليه الدنيا وأصبح أول أمير أموى فى قرطبة .

أما محمد بن وهب المعروف بابن الركيزة فلم أعثر له على ترجمة .

مولى فجاءته المنية فبيعت فى تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت اللهَّ عز وجل ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن قد دَثُر ووارته الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، ويخرجها مما هى فيه فأبت ، فضربها غير مرة وأوقع بها الأدب ، فبصرت على ذلك كله ، فأقامت على امتناعها ، وإن هذا من الوفاء غريب جداً .

وأعلم أن الوفاء على المحبِّ أوجب منه على المحبوب ، وشرطه له ألزم ، لأن المحب هو البادى بالصوق والتعرض لعقد الأذمة ، والقاصد لتأكيد المودة ، والمستدعى صحة العشرة ، الأول فى عدد طلاب الأصفياء ، والسابق فى ابتغاء اللذة باكتساب الخلة ، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال ، وخطمها بأشد خطام ، فمن قسره على هذا كله إنْ لم يرد إتمامه ؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم يَنْو خَتمها بالوفاء لمن أراده عليها ، والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ، ومقصود نحوه ، ومخّير فى القبول أو الترك ، فإن قبل فغاية الرجاء ، وإن أبى فغير مستحق للذم . وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه ، والتأنى لكل مايُستجلب به من الموافقة ، وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء فى شئ ، فحظ نفسه أراد الطالب ، وفى سروره سعِى وله احتطب ، والحب يدعوه

ويَحْدُوه على ذلك ، شاء أو أبى ، وإنمـــا يَحمد الوفاء ممن يقدر على تركه .

وللوفاء شروط على المُحبين لازمة :

فأولها أن يحفظ عهدَ محبوبه ، ويرعى غيبته ، وتستوى علانيته وسريرته ويطوى شره ، وينشر خيره ، ويغطى على عيوبه ، ويحسّن أفعاله ، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ، ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفر منه ، وألا يكون طُلَعَة ثؤوباً ، ولا ملّة طَروقاً .

وعلى المحبوب إن ساواه فى المحبة مثل ذلك ، وأن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ، ولا له الا ستشاطة عليه بأن يسومه الا ستواء معه فى درجته . ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره ، وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به .

وإن كانت الثالثة وهى السلامة مما يلقى بالجملة فليقنع بمـا وجد ، وليأخذ من الأمر ما استدف ، ولا يطلب شرطاً ، ولايقترح حقاً ، وإنما له ما سنح بجده ، أو ماحان بكده ، وأعلم أنه لاَيستبين قبح الفعل لأهله ، ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه ولا أقول قولى هذا مُمتدحاً ، ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل « وأمَّا بِنِعْمة رَبِّكَ فحَدّثْ » (١) .

---

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

لقد مَنحنى الله عز وجل من الوفاء لكل من يَمُت إلىّ بلُقْيَةٍ واحدة ، ووهبنى من المحافظة لمن يتذمم منى ولو بمحادثته ساعة حظًا ، أنا له شاكر وحامد ، ومنه مُستمدّ ومُستزيد .

وما شئ أثقل علىّ من الغدر ، ولعمرى ما سمحت نفسى قط فى الفكرة فى إضرار مَن بينى وبينه أقل ذمام ، وإنْ عظمت جريرته ، وكثرت إلىّ ذنوبه ، ولَقد دَهمنى من هذا غيرُ قليل فما جزيت على السُّوءى إلاّ بالحسنى . والحمد لله على ذلك كثيراً .

وبالوفاء أفتخر فى كلمة طويلة ، ذكرت فيها ما مضّنا من النكبات ، ودهمنا من الحل وَالترحال والتحول فى الآفاق ، أولها :

ولّـى فـوَلّى جميلُ الصبر يَتبعُهُ
وصَرّحَ الدمـعُ ماتُخفيـه أضلُعـهُ

جِسـمٌ مَلـولٌ وقلب آلفٌ فـإذا
حـلّ الفراقُ عليـه فهـو مُوجِعـهُ

لـم تسـتقرّ بـه دارٌ ولا وطـنٌ
ولا تَدَفـأ منـه قطُ مَضْجعـهُ

كأنّما صيغَ مِن رهْوِ السحاب فما
تـَزال ريحُ إلـى الآفـاقِ تدفَعُـهُ

كأنَّمـا هـو تـوحيدُ تضيـق بــه

نفسُ الكفورِ فتـأبىَ حين تُودَعـُهُ

أوكوكبٌ قـاطعٌ فى الأفـقِ منتقلٌ

فالسـيرُ يُغربـهُ حينـاً ويُطلعـهُ

....

أظنــهُ لوجَزَتــهُ أو تُســــاعدُه

ألقتْ عليه انهمالَ الدمع يَتْبعُهُ (١)

بالوفاء أيضاً أفتخر فى قصيدة لى طويلة أوردتها ، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب ، فكان سبب قولى لها أن قوماً من مخالفىّ شرقوا بى ، فأساءوا العتب فى وجهى ، وقذفونى بأنى أعضّد الباطل بحجتي ، عجزاً منهم عن مُقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لى ، فقلت ، وخاطبت بقصيدتى بعض إخوانى ، وكان ذا فهم ، منها :

وخُذني عصا موسى وهاتِ جميعَهُمْ

ولــو أنَّهُمْ حيَّــاتُ ضـالٍ نَضانِضُ

---

(١) هنـــاك فجوة بين فكرة البيت الأخير ، والبيت الســابق له ، مما يقطع بأن الناســخ حذف أبياتاً بينهما ذهبت بتكامل المعنى ، وجعلت معنى البيت الأخيـر غامضـاً ، ولهذا آثرت ان أشــير إلى الحذف بسطر من النقط .

ومنها :

يُريفونَ في عيني عجائبَ جَمَّةً
وقد يتمنى الليثُ والليث رابض

ومنها :

ويَرْجونَ ما لا يَبْلغونَ كمثْلِ ما
يُرجىّ مُحالاً في الإمامِ الروافضُ (١)

ومنها :

ولو جلَدى في كلُّ قلْبٍ ومُهْجَةٍ
لَماَ أثَّرتْ فيها العيونُ المرائضُ
أبتْ عن دنىٌّ الوصْفِ ضربْة لازبٍ
كما أبتِ الفعل الحروفُ والخوافِضُ

ومنها :

ورأيى لَهُ في كلٌّ ما غاب مَسلكٌ
كما تَسلُكُ الجسمَ العروقُ النوابض
يَبِينُ مَدَبُّ النملِ في غيرِ مُشْكِلٍ
ويُسْتَرُ عنهم للقبول المرابض

(١) يشير إلى الرافضة ، وهي فرقة شيعية غالية .

٢٣

باب الغدر

وكما أنّ الوفاء من سريّ النعوت ، ونبيل الصفات ، فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها ، وإنما يسمى غدراً من البادى به ، وأمّا المقارض بالغدر على مثله ، وإن استوى معه فى حقيقة الفعل ، فليس بغدر ولا هو معيباً بذلك ، والله عز وجل يقول : « وجزاءُ سيئة سيئةٌ مثلُها » [١] وقد علمنا أن الثانية ليست بسيئة ، ولكن لما جانست الأولى فى الشبه أوقع عليها مثل اسمها . وسيأتى هذا مفسراً فى باب السلو إن شاء الله .

ولكثرة وجود الغدر فى المحبوب استغرب الوفاء منه ، فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجود فى سواهم ، وفى ذلك أقول :

قليلُ وفاءِ مَنْ يُهوَى يَجلُّ ... وعُظْمُ وفاءِ مَنْ يَهوى يَقلُّ

فنادِرَةُ الجبان أجلُّ مِمّا ... يجئُ به الشجاعُ المستَقِلُّ

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

ومن قبيح الغدر أن يكون للمحبّ سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به دونه . وفيه أقول :

أقمتُ سفيراً قاصداً فى مطــالبى
وَثِــقْتُ بـــه جَهْـلاً فضرَّبَ بيْننــا
وحـــلّ عــُرى ودّى وأثبتَ ودَّه
وأبعــدَ عنيّ كــلَّ مــا كــانَ مَمْكنا
فصرتُ شهيداً بعد ما كنتُ مُشْهِداً
وأصبحتُ ضَيْفاً بعدَ ما كان ضَيْفناً

★ خبر :

ولقد حدّثنى القاضى يونس بن عبد الله (١) قال : أذكر فى الصبى جارية فى بعض السُدَد ، يهواها فتى من أهل الأدب ، من

---

(١) يونس بن عبــد الله بن محمد بن مغيث ، يكنى أبا الوليــد ، ويعرف بابن الصفار ، قاضى الجمــاعة بقرطبة وصــاحب الصلاة والخطبــة بجامعها .

وقد تقلب فى مناصب كثيرة ، فكان قاضى بطليوس ، وخطيب مسجد الزهــراء ، وتولى خطة الرد ، وكان مشاوراً ، وأصبح وزيراً . وكان محدثاً وفقيهاً ، وعالماً بالعربية ، وله مؤلفات عديدة فى الزهد ، ويقول الشعر النفيس فى معانى الزهد وما شابهه . ولد عام ٣٣٨هـ = ٩٤٩م ، وتوفى عام ٤٢٩هـ = ١٠٣٨ م .

أبناء الملوك ، وتهواه ويتراسلان ، وكان السفير بينهما ، والرسول بكتبهما ، فتى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عُرضت الجارية للبيع أراد الذى كان يُحبها ابتياعها ، فبدر الذى كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها ، وجعل يفتش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذى كان يهواها ، مضمخاً بالغالية ، مَصوناً مُكرماً ، فغضب وقال : من أين هذا يافاسقة ؟ قالت : أنت سقته إلىّ . فقال : لعله مُحدَث بعد ذاك الحين . فقالت : ما هو إلاّ من قديم تلك التى تعرف ، قال فكأنما ألقمته حجراً ، فسقط فى يديه وسكت .

٢٤

باب البين

وقد علمنا أنه لابد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء ، وتلك عـادة الله فى العباد والبلاد ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وماشئ من دواهى الدنيا يَعدل الافتراق ، ولو سالت الأرواح به فضلاً عن الدموع كان قليلاً . وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق أقساماً :

والبين ينقسم فأولها مُدة يُوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب ، وإنهُ لشجى فى القلب ، وغصة فى الحلق ، لاتبرأ إلا بالرجعة ، وأنا أعلم مَن كان يَغيب مَن يُحب عن بصره يوماً واحداً ، فيعتريه من الهلع والجزع وشُغل البال ، وترادُف الكرب ، مايكاد يأتى عليه .

ثم بَيْنٌ منع من اللقـاء ، وتحظير على المحبوب من أن يراه محبه ، فهذا – ولو كان من تحبه معك فى دار واحدة – فهو بين : لأنه بائن عنك . وإنّ هذا ليولدّ من الحزن والأسف غير قليل ، ولقد جرّبناه فكان مُرّاً .

وفى ذلك أقول :

أرَى دارَها فى كلِّ حينٍ وساعةٍ
ولكنَّ من فى الدار عنى مُغيَّبُ
وهل نافعِى قُرْبُ الدِّيار وأهلُها
على وصْلِهمْ منِّى رقيبٌ مُرَقَّبُ
فيالكَ جار الجَنْب أسمعُ حِسَّهُ
وأعلمُ أن الصِّينَ أدنى وأقرب
كصادٍ يرى ماءَ الطَّوِىِّ بعينه
وليس إليهِ من سبيل يُسبَّب
كذلك مَن فى اللحدِ عنك مُغيَّبٌ
وما دونَه إلاّ الصفيحُ المُنصَّب

وأقول من قصيدة مطوّلة :

مَتى تشتفى نفسى أضرَّ بها الوجْدُ
وتصْقَبُ دارٌ قد طوى أهلَهَا البعْدُ
وعهدى بهندٍ وهى جارةُ بَيتنا
وأقربُ من هندٍ لطالبها الهنْدُ

بلَى إنّ فى قُربِ الديـــار لراحـــةً

كمـــا يُمسِكُ الظمآنَ أنْ يَدْنُو الوِرْدُ

ثم بَيْنٌ يتعمده المحب بُعداً عن قول الوُشاة ، وخوف أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء ، وذريعة إلى أنْ يفشو الكلام فيقع الحجابُ الغليظ .

ثم بَيْنٌ يولده المُحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان وعَذره مقبول أو مطروح على قدر الحافز له إلى الرحيل .

☆ **خبر :**

ولعهدى بصديق لى دارُه المرية ، فعنّتْ له حوائج إلى شاطبة فقصدها ، وكان نازلا بها فى منزلى مدة إقامته بها (١) . وكان له بالمرية علاقة هى أكبر همه ، وأدهى غمه ، وكان يؤمِّل بتِّها وفراغ أسبابه . وأن يُوشك الرَّجعة ، ويُسرع الأوبة ، فلم يكن إلاّ حينٌ لطيفٌ بعد احتلاله عندى ، حتى جَيَّش الموفق أبو الجيش مجاهد صـــاحب الجـــزائر الجيـــوش وقرَّب العســـــاكر ، ونابذ خيـــران

---

(١) هذه الفقرة تتصـــل بالصديق الذى أشـــار ابن حزم فى المقدمة إلى أنه اقترح عليه أن يصنِّف له رسالة « فى صفة الحب ، ومعانيه وأسبابه وأغراضه » .

صاحب المرية (١) وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتُحومِيَت السبل ، واحترس البحر بالأساطيل فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً ألبتة ، وكاد يَطفأ أسفًا ، وصار لا يأنس بِغير الوحدة ، ولا يلجأ إلاّ الى الزفير والوجوم ، ولعمرى لقد كان ممن لم أُقدّر قط فيه أن قلبه يُذعن للود ، ولا شراسة طبعه تجيب إلى الهوى .

وأذكر أنى دخلت قرطبة بعد رحيلى عنها (٢) ثم خرجتُ

---

(١) يطلق عليها فى المصادر العربية « الجزائر الشرقية » ، أو « جزائر شرقى الأندلس » ، وأصبحت تعرف منذ القرن الماضى باسم « جزر البليار » . وهى مجموعة من الجزر فى البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الأندلس ، وشاركتها على امتداد تاريخها نفس المصير ، وأشهر جزرها : ميورقة ومنورقة ويابسة .

وقد حكم أبو الجيش ، الموفق بالله ، مجاهد بن عبد الله العامرى ، خلال عصر الطوائف ، جزر البليار ودانية من عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م إلى ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م . وحكم خيران العامرى المرية من ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م إلى ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م .

ومجاهد وخيران كلاهما مولى صقلبى ، من موالى المنصور بن أبى عامر ، ولعبا فى الأحداث السياسية دوراً هاماً ، وبعد زوال العامريين ، وسقوط الخلافة ، أخذا بحظهما من التركة .

(٢) سوف يشير ابن حزم فيما بعد بإيضاح أكثر إلى هذه الرحلة ، التى قام بها إلى قرطبة ، وربما تمت فى الخفاء ، بعد أن غادرها مع دخول البربر إليها عام ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م .

منصرفًا عنها ، فضمنى الطريق مع رجل من الكتّاب قد رحل لأمر مهم ، وتخلف سَكن له ، فكان يرتمض لذلك .

وإنّى لأعلم من علَق بهوى له ، وكان فى حال شَظف ، وكانت له فى الأرض مذاهبُ واسعة ، ومناديح رَحبة ، ووجوه متصرف كثيرة ، فهان عليه ذلك ، وآثر الإقامة مع مَن يحب .

وفى ذلك أقول شعرًا ، منه :

لكَ فى البلاد مَنادِحٌ مَعلومَةٌ والسيفُ غُفل أو يَبين قِرابه

ثم بَيْن رحيلٍ وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوْبة فيه على يقين خَير ، ولا يَحدث تلاق ، وهو الخطب الموجع ، والهم المُفظع ، والحادث الأشنع ، والداء الدويّ ، وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائى هو المحبوب ، وهو الذى قالت فيه الشعراء كثيرًا .

وفى ذلك أقول قَصيدة ، منها :

وذى علّةٍ أعيا الطبيبَ علاجُهـا ستورِدُنِى لاشكٌ مَنْهلَ مَصرْعى
رضيتُ بأنْ أُضْحَى قتيل ودادِهِ كجارعِ سمٍّ فى رَحيق مُشعشع
فما لليـالى ما أقل حَيـاءَها وأوْلعَهـا بالنفسِ من كلِّ مُولع
كأنَّ زَمانِى عَبْشمىٌ يخـالُنِى أعنتُ على عثمانَ أهلَ التشيُّع

وأقول من قصيدة :

أظنّكَ تمثالَ الجنـــانِ أباحَهُ   لمُجتهدِ النسّاكِ مِنْ أوليـــائِهِ

وأقول من قصيدة :

لأبْرِدَ باللُّقيا غليلاً من الهَوى   توقّع نيرانَ الغَضَى هيمـانُهُ

وأقول شعرًا منه :

خَفيت عن الأبصارِ والوَجْدُ ظاهرٌ

فأعجبْ بأعْراضٍ تَبِينُ ولا شَخْصُ

غـــدا الفلكُ الدوّارُ حَلَقْةَ خـــاتمٍ

مُحيطٍ بمـــا فيـــه وأنتَ له فصٌ

وأقول من قصيدة :

غنيتَ عن التشبيه حُســـنًا وبَهْجةً

كما غَنِيتْ شَمس السماءِ عن الحلي

عجبتُ لنفسى بعدَهُ كيفَ لم تمُتْ

وهجـــرانُه دَفْني وفقـــدانه نَعْيى

والجَسـَـــدِ الغضُّ المُنعَّمِ كيف لمْ

تُذِبْهُ خشـــــنــاء........... (١)

وإن للأوْبة من البَيْنْ الذى تشفق منه النفس لطول مسافته ، وتكاد تيأس من العودة فيــه ، لروعة تبلغ ما لا حـــد وراءه ، وربما قتلت .

وفى ذلك أقول :

للتلاقى بعدَ الفراقِ سرورٌ كسُرور المُفيقِ حـــانتْ وفـــاتُهْ

فرحـةٌ تُبهجُ النفـــوسَ وتحيى مَن دنا منــه بالفـراقِ مماتُهْ

ربّما قـــد تكـــون داهيةُ المَوْ تِ وتودى بأهلِهِ هجمـــاتُهْ

كم رأينا من عبٍّ فى الماء عطشا نَ فزارَ الحِمــامَ وهو حياتُهْ

وإنى لأعلم من نأت دارُ محبوبه زمنًا ، ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه ، حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك .

وفى ذلك أقول :

---

(١) بياض فى الأصل

أطلتَ زمانَ البعدِ حتى إذا انقضىَ

زمانُ النّوى بالقربِ عُدتَ إلى البعـدِ

فلم يكُ إلا كرَّة الطـــــرْفِ قُرْبُكُمُ

وعـــاودكم بُعْدِي وعـــاودَنِي وَجْدِي

كذا حائرٌ فى الليل ضاقتْ وجوهُه

رأى البرقَ فى داج من الليل مُسوَدّ

فأخلَفه منـــــهُ رجـــــاءُ دوامِهِ

وبعضُ الأراجِي لا تفيـــدُ ولا تُجدى

وفى الأوبة بعد الفراق أقول قطعة ، منها :

لقد قرّتِ العينانِ بالقربِ منكُمُ　　كما سَخُنَت أيامَ يَطْوِيكُمُ البعْدُ

فلله فيما قد مضى الصبر والرضا

ولله فيما قد مضى الشكر والحمد

★ خبر :

ولقد نُعى إلىّ بعض من كنت أحب من بلدة نازحة ، فقمت فاراً بنفسى نحو المقابر ، وجعلت أمشى بينها وأقول :

وددتُ بأنّ ظهــرَ الأرضِ بَطنٌ   وأنّ البطنَ منها صارَ ظهْرا
وأنِّيَ متُّ قبــــل ورودِ خطبٍ   أتى فأثارَ فى الأكبادِ جمْرا
وأنّ دمي لمن قـــد بان غُسْلٌ   وأنّ ضلوعَ صدرى كنّ قبرا

ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بُشْرَى أتتْ واليأسُ مُسْتحكمٌ   والقلبُ فى سبْعٍ طِبــاق شــدادْ
كستْ فؤادِي خُضْرةً بعــدما   كــان فؤادى لابسًــا للحــدادْ
جلّى سوادُ الغمِّ عنيَّ كمـــا   يُجلىَ بلونِ الشمسِ لون السواد
هـــذا وما آملُ وصـــلاً سوَى   صـــدْقِ وفاءٍ بقـــــديم الوِدَاد
فالمُزْنُ قـــد تُطلبُ لا للحَيــا   لــكنْ لظلٍّ باردٍ ذى امتــداد

ويقع فى هذين الصنفين من البيْن الوداع ، أعنى رحيل المُحبّ أو رحيل المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة ، والمواقف الصعبة ، التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب كلُّ عين جمود ، ويظهر مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البيْن يجب التكلّم فيه ، كالعتاب فى باب الهجر .

ولعمرى لو أن ظريفًا يموت فى ساعة الوداع ، لكان معذورًا إذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدل الســـرور بالحزن ، وإنّها ســاعة تُرقّ القلوب القاسية ، وتُلين

الأفئدة الغلاظ . وإنّ حركة الرأس ، وإدمان النظر ، والزفرة بعد الوداع ، لهاتكةٌ حجابَ القلب ، وموصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركةُ الوجد فى ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسم ، ومواطن الموافقة والوداع ، تنقسم قسمين : أحدهما لا يتمكن فيه إلاّ بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما لعله كان لايمكن قبل ذلك ألبتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقى ، ولهذا تمنى بعض الشعراء البَيْنَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأى ، فما يفى سرورُ ساعة بحزن ساعات ، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومُعْوَج من القياس ، وإنما أثنيت على النوى فى شعرى تمنياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع . على أن تحمُّل مضض هذا الاسم الكريه ، وذلك عندما يمضى من الأيام التى لا التقاء فيها ، فحينئذ يرغب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم .

وفى الصنف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تنُوب عن بهجةِ الأنـوارِ بهجتهُ

كما تنوبُ عن النيرانِ أنفاسِى

وفى الصنف الثانى من الوداع أقول شعراً منه :

وجهٌ تخرُّ له الأنوارُ ساجدةً

والوجهُ تمٌّ فلم يَنقُصْ ولم يَزِيد

دفءٌ وشمسُ الضحى بالجَدْى نازلةٌ

وباردٌ ناعمٌ والشمسُ فى الأسدِ

ومنه :

يومُ الفراق لعَمرى لستُ أكرهُهُ

أصلاً وإن شَتَّ شملُ الروح عن جسدي

ففيه عانقتُ من أهوى بلا جَزَعٍ

وكان من قَبلهِ إن سيلَ لم تَجد

أليسَ من عَجبٍ دمعى وعَبْرتها

يومُ الوصالِ ليومِ البَيْنِ ذو حَسَدَ

وهل هَجَسَ فى الأفكار ، أو قام فى الظنون ، أشنع وأوجع من هجر عتاب وقع بين محبين ، ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح ، وانحلال عقدة الهجران ، فقاما إلى الوداع وقد نُسى العِتاب ، وجاء ماطمّ عن القُوى ، وأطال الكرى ؟

وفيه أقول شعراً ، منه :

وقد سَقَطَ العتب المقدمُ وامحَىَ

وجاءت جيوش البيْنِ تجري وتُسْرِعُ

وقد ذَعَرَ البيّنُ الصدودَ فراعَهُ

فولىَّ فما يُدرىَ له اليومَ مَوْضعُ

كذئبٍ خلا بالصيدِ حتى أضلَّه

هِزَبرٌ له من جانب الغيلِ مَطْلع

لئن سرّنى فى طَرْده الهجرَ أنَّنى

لإبعادِه عنّى الحبيبَ لَمُوجَعُ

ولا بُدَّ عندَ الموت مِن بعضِ راحةٍ

وفى غِبها المُوت الوحِيُّ المصرّعُ

وأعرف من أتى ليودّع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات ، فوقف على آثاره ساعة ، وتردّد فى الموضع الذى كان فيه ، ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال ، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله .

وإن للبيْن فى إظهار السرائر المطوية عملاً عجباً ، ولقد رأيت

من كان حبه مكتوماً ، وبما يجد فيه مستتراً ، حتى وقع حادثُ الفراق فباح المكنون ، وظهر الخفى .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

بذلتَ من الودِّ ما كان قبل
منَعْتَ وأعطيتنيه جُزافا

وما لى به حاجة عند ذاك
ولو جُدْتَ قَبْلُ بلغتَ الشغافا

وما ينفعُ الطبُّ عند الحِمام
وينفعُ قبل الردَى مِن تَلافا

وأقول :

الآن إذ حلّ الفراقُ جُدْتَ لي
بخفيِّ حبٍّ كنتَ تُبدى بُخْلَهُ

فزدتنى فى حَسْرتي أضعافَها
ويْحِي فهلاَّ كانَ هذا قَبْلَهُ

ولقد أذكرنى هذا أنى حظيت ، فى بعض الأزمان ، بمودة رجل من وزراء السلطان ، أيام جاهه ، فأظهر بعض الامتساك ، فتركته حتى ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، فأبدى لى من المودة والاخوة غير قليل ، فقلت :

بذلتَ لىَ الإعراضَ والدهرُ مقبلُ

وتبذلُ لىِ الإقبالَ والدهرُ مُعرضُ

وتبسُطُنى إذ ليس ينفعُ بسطُكُم

فهلاَّ أبحتَ البسطَ إذ كنت تَقْبض

ثم بَيْنُ الموتِ وهو الفوْت ، وهو الذي لاُيرجى له أياب ، وهو المصيبة الحالة ، وهو قاصمة الظهر ، وداهية الدهر ، وهو الويل ، وهو المغطّى على ظلمة الليل ، وهو قاطع كل رجاء ، وماَحِى كل طمع ، والمؤيس من اللقاء . وهنا حارت الألسن ، وانجذم حبل العلاج ، فلا حيلة إلا الصبر طوعاً أو كرهاً ، وهو أجل ما يبتلى به المحبون ، فما لِن دُهى به إلاّ النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل ، فهى القرحة التى لا تُنكى ، والوجع الذى لا يفَنى ، وهو الغم الذى يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته فى الثرى ، وفيه أقول :

كلُّ بيْن واقع	فمرجّى لم يَفَتْ
لا تُعجِّلْ قَنِطاً	لم يَفُتْ مَنْ لم يَمت
والذى قد مات فالـ	ـيأسُ عنه قد ثَبتْ

وقد رأينا مَن عرض له هذا كثيراً .

وعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة . وتعجلّت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشدَّ الناس كلفاً ، وأعظمهم حبّاً بجارية

لى ، كانت فيما خلا اسمها نُعْم . وكانت أمنية المتمنّى ، وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقا ، ومُوافقة لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنّا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار . وسنىٌّ حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمتُ بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تفتر لى دمعة على جُمود عينى ، وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ماسلوتُ حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمى العزيزة علىّ ، مسارعا طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عَفّى حُبّى لها على كل ما قبله ، وحرّم ما كان بعده (١) .

ومما قلت فيها:

مهذّبةٌ بيضاءُ كالشمس إنْ بدتْ
وسائرُ ربّاتِ الحِجالِ نُجومُ

أطارَ هواها القلبَ عن مستقره
فبعدَ وقوعٍ ظلَّ وَهْوَ يحوم

---

(١) سبق لابن حزم أن تحدث عن نعم هذه ، وعن قصة أخرى له معها فى الباب الثانى .

ومن مراثىّ فيها قصيدة منها :

كـأنّىَ لـم آنـسْ بألفـاظك التـى

على عُقَدِ الألبـابِ هـُنّ نـَوافثُ

ولـم أتحكّمْ فى الأمــانىِ كــأنّنى

لإفراط مــا حُكّمتُ فيهن عــابث

ومنها :

ويبدينَ إعراضــاً وهـــنّ أوالفٌ

ويُقسِمْنَ فى هَجرى وهنّ حوانثُ

وأقول أيضــاً فى قصيدة أخاطب فيها ابن عمى أبا المغيرة عبد الوهاب أحمد بن عبد الرحمن بن حزم بن غالب [1] وأقرضه ، فأقول :

قِفا فاسألا الأطلالَ أين قطينُها

أمـرتْ عليهـــا بــالبِلى الملـَوان

على دراساتٍ مقفراتٍ عَواطلٍ

كأن المغانىِ فى الخفاءِ معانى

---

(١) ابن عم ابن حزم ، ورفيقه فيما بعد وزيرين فى وزارة عبد الرحمن بن هشام المستظهر ، توفى فى طليطلة عام ٣٤٨ هـ = ١٠٤٦ م ، وكان أديباً وشاعراً ومؤلفاً ، ولدينا عنه معلومات وافرة .

واختلف الناس فى أى الأمرين أشدّ : البين أم الهجر ؟ وكلاهما مُرتقى صعب ، وموت أحمر ، وبلية سوداء ، وسنة شَهباء . وكل يستبشع من هذين ماضادّ طبعه ، فأمّا ذو النفس الأبية ، الألوف الحنانة ، الثابتة على العهد ، فلاشئ يعدل عنده مُصيبة البين ، لأنه أتى قصداً ، وتعمدتْه النوائب عمداً ، فلا يجد شيئاً يسلّى نفسه ، ولا يصرف فكرته فى معنى من المعانى ، إلاّ وجد باعثاً على صَبابته ، ومحركا لأشجانه ، وعليه لا لهُ ، وحجة لوجده ، وحاضاً على البكاء على إلفه. وأمّا الهجر فهو داعية السلو ، ورائد الإقلاع .

وأما ذو النفس التوّاقة ، الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه ، وجالبُ حتفه ، والبين له مَسلاة ومنساة .

وأما أنا فالموت عندى أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد فقط ويوشك إنْ دام أن يحدث إضراراً .

وفى ذلك أقول :

وقـالوا ارتحـلْ فلعلّ السلُّو
يكـونُ وتـرغبُ أن تَرْغبـهْ
فقلتُ الردى لـىِ قبـلَ السلو
ومَنْ يشربُ السمَّ عن تجربهْ

وأقول :

سـبىَ مهجتـى هـواهُ

وأودتْ بهـا نـواه

كـأنّ الـغرامَ ضيفٌ

وروحـى غـدا قـراهُ

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ، ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق ، وهذا وإن لم يكن عندى من المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعة على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا وفى الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً فى الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر ، إنما يأخذ الناسُ أبداً الأسهل ويتكلفون الأهون . وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة ، لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرّعوا غصة الصبر قبل وقتها ، ولعلّ ما تخوفّوه لا يكون ، وليس من يتعجل المكروه وهو على غير يقين مما يتعجل ، بحكيم . وفيه أقول شعراً ، منه :

لبس الصبُّ للصبابةِ بيْناً

ليس مَن جانَبَ الأحبةَ منّا

غنـىٌّ يعيشُ عيـشَ فقيرٍ

خوفَ فقْرٍ وفقرهُ قد أبنّا

وأذكر لابن عمى أبى المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعب

مِن الصدّ ، أبياتاً من قصيدة خاطبنى بها ، وهو ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها ، وهى :

أجزعْتَ أن أزِفَ الـرّحيلُ
وَوَلَـهْتَ أنْ نُصَّ الذميـــلُ

كـــلاَّ مُصــابُك فـــادِحٌ
وأجـــلُّ فـــراقهم جليـل

كـــذَبَ الألـــى زعمـــوا
بـــأن الصـــدَّ مرتعُهُ وَبيل

لم يعرفـــوا كُنْهَ الغليـــلِ
وقـــد تحمّلت الحُمُـــول

أمّـــا الـــفِراقُ فإنّـــهُ
للمـــوتِ إنْ أهـــوَى دليـل

ولى فى هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لا مِثْلُ يـومِك ضَحـْوَةُ التنعيم
فـــى مَنْظرٍ حَســـَن وفـــى تَنْغيمِ

قـــد كانَ ذاكَ اليـــومُ نُدْرةَ عـــاقرٍ
وصـــوابَ خاطئـــة ووُلـــدَ عَقيـــم

أيـــامَ بـَرق الـــوصلِ ليــس بخلّبِ

عنـــدى ولا رَوضُ الهَوى بهشيم

مــِنْ كــلِّ غــانيةٍ تقـــول لُديُّهـا

ســـيرى أمــــامك والإزارُ أقيمــى

كلٌّ يُجاذبُهــــا فحُمرةُ خَدِّهــا

خَجــلٌ من التـــــأخيرِ والتقديمِ

مــابي سِوىَ تلكَ العيونِ وليس فيِ

بُرْئى ســـِواها فـى الـوِرى بزعيم

مثلُ الأفــاعيِ ليس فى شئٍ سَوى

أجســــــادها إبراءُ لـدغ سـليمِ

والبين أبكى الشعراءَ على المعاهد ، فأدروُا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار ماء الشوق ، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتحبوا ، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا .

ولقد أخبرنى بعض الوراد من قرطبة ، وقد استخبرته عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث ، فى الجانب الغربى منها ، وقد امحت رسـومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ،

وارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى مُوحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحُسن ، وشماباً مفزِّعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمّقة ، والمقاصير المزيّنة ، التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب ، وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، وتؤذن بفناء الدنيا ، وتُريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد فى طلبها ، بعد أن طال مازهدت فى تركها ، وتذكرت أيامى بها ، ولَذّاتى فيها ، وشهور صباى لديها ، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى ، وفى الآثار النائية ، والنواحى البعيدة ، وقد فرّقتهن يدُ الجلاء ، ومزقتهن أكفُّ النوى ، وخيل إلى بصرى فناء تلك النصبة بعد ماعلمتُه من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التى نشأت فيما لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمتُ سمعى صوت الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التى رُبّيت بينهم فيها ، وكان ليلُها تبعاً لنهارها فى انتشار ساكنها ، والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها فى

الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عينى وأوجع قلبى ، وقرع صفاة كبدى ، وزاد فى بلاء لى ، فقلت شعراً منه (١) .

لئنْ كان أظمانــا فقد طالما سقَى

وإنْ ســاءَنا فيهـا فقد طالما سـرّا

والبيْن يولِّد الحنين والاهتياج والتذكّر . وفى ذلك أقول :

---

(١) فى هذه الفقرة يبكى ابن حزم ، فى نثر بليغ ، وعاطفة صادقة ، ما حل بمدينته قرطبة ، وما أصاب منازل أهله فيها على يد البرابر ، بعد أن اقتحموا المدينة ونهبوها عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م ، وأورد لنا ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام » تفاصيل الأحداث كاملة صفحة ١٠٩ وما بعدها ، وأتى على نص ابن حزم فى بكاء مدينته الحزينة وجاء الشعر منه فى عشرين بيتا ، واكتفى ناسخ مخطوطة الطوق ببيت واحد منها .

والنثر فى أعمال الأعلام يختلف عن النثر فى « الطوق » زيادة ونقصا . ويقول ابن الخطيب أنه وجد النص بخط ابن حزم فى خبر ذكره ، والمناسبة فيه تختلف عما فى الطوق ، ففى هذا يبكى ابن حزم ديارهم منفيا بعيدا ، حين جاءه خبرها وما حلّ بها ، وعند ابن الخطيب أنه بكاها بعد أن عاد إليها ، وألقى نظرة على خرائبها . وبين النصين بعض الاختلاف ، ومع فقدان أية مخطوطة أخرى ترجح واحدا من النصين على الآخر ، يصعب التفضيل بينهما ، والجزم أقرب إلى إرادة المؤلف . ولهذا آثرت أن أحتفظ بنص الطوق كما هو ، وألحقت بآخر الكتاب النص كما أورده ابن الخطيب ، ليوازن القارئ بينهما إذا شاء .

ليتَ الغرابَ يُعيدُ اليومَ لى فعسى
يَبين بينهمُ عنّى فقد وقفا
أقولُ والليلُ قد أرخَى أجلّتَهُ
وقد تألّى بألاّ ينقضِى فوفَى
والنجمُ قد حارَ فى أفقِ السماءِ فما
يمضِى ولا هو للتغوير مَنصرِفا
تخالُهُ مخطئاً وخائِفاً وجِلاً
أوْ راقباً موعدا أو عاشقاً دَنِفا

٢٥

باب القنوع

ولا بد للمحب ، إذا حُرم الوصل ، من القنوع بما يجد ! وإن في ذلك لمتعللا للنفس، وشغلا للرجا ، وتجديداً للمنى ، وبعض الراحة . وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكن :

فأولها الزيارة ، وإنها لأمل من الآمال ، ومن سرى ما يسنح في الدهر مع ما تبدى من الخفر والحياء لما يعلمه كل واحد منهما مما في نفس صاحبه . وهي على وجهين :

أحدهما أن يزور المحبّ محبوبه ، وهذا الوجه واسع .

والوجه الثانى أن يزور المحبوب مُحبّه ، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر وفى ذلك أقول :

فـإنْ تنـــأ عنّى بالوصـــالِ فــإننى
سأرضَى بلحظِ العينِ إنْ لم يكنْ وصلُ
فحســـــبىَ أنْ ألقـاكَ فى اليوم مرّة
وما كنتُ أرضىَ ضعفَ ذا منك لى قبل

كـــذا هِمـّـةُ الـــوالى تكــونُ رفيعـةً

ويرضى خلاصَ النفسِ إنْ وقع العزل

وأمَّا رجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال ، وإن كنت أنا أقول فى قصيدة لى :

فها أنــا أُخْفى وأقنعُ راضيــاً

برجع سلامٍ إنْ تيسَّرَ فى الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبة إلي ما هو أدنى منها . وإنما تتفاضل المخلوقات فى جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها .

وإنى لأعلم من كان يقول لمحبوبه : عدنى واكذب ، قنوعاً بأن يسلي نفسه فى وعده ، وإن كان غير صادق . فقلت فى ذلك :

إنْ كان وصلُكَ ليـس فيه مَطمعٌ

والقربُ ممنوعٌ فعِـدْنى واكـذبِ

فعســى التعلّلُ بالتقائك مُمسِكٌ

لحيـــاةِ قلـــب بالصُّدود مُعـــذَّب

فقد يُســـلّى المجـدبينَ إذا رأوْا

فى الأفقِ يلمعُ ضــوْء بَرْقٍ خُلَّب

ومما يدخل فى هذا الباب شئ رأيته ورآه غيرى معى ، أنَّ رجلا من إخوانى جرحه من كان يُحبه بمدية ، فلقد رأيته وهو يُقبِّل مكان الجُرح ، ويندُبه مرة بعد مرة .

فقلت فى ذلك :

يقولون : شَجَّكَ مَن همْتَ فيه

فقلتُ : لعمرىَ ما شجَّني

ولكنْ أحسَّ دمى قُربهَ

فطارَ إليه ولم ينثنِ

فيا قاتلى ظاملاً مُحسناً

فديتُك من ظالمٍ مُحسنِ

ومن القنُوع أن يُسَرَّ الإنسان ويَرضى ببعض آلات محبوبه ، وإنَّ لَه من النفس لموقعا حسنا ، وإن لم يكن فيه إلاَّ ما قص اللّه تعالى علينا ، من ارتداد يعقوب بصيراً حين شَم قميص يوسف عليهما السلام .

وفى ذلك أقول :

لمَّا مُنعتُ القربَ من سيِّدى

ولجَّ فى هجرى ولم يُنصفِ

صِرْتُ بإبصـاريَ أثوابـَهُ

أو بعض مـا قد مسـّهُ أكْتفى

كذاكَ يعقـوبُ نبى الهـدى

إذ شفَّهُ الحزنُ على يوسف

شـمَّ قميصـاً جاء مِن عندِه

وكـان مكفوفاً فمنـهُ شـَفِى

وما رأيت قط متعاشقين إلاّ وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعَنبر ، مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمصطلكى وبالشمع الأبيض المصفى ، ولُفَّتْ فى تطاريف الوَشْى والخز وما أشبه ذلك ، لتكون تذكرة عند البين .

وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر استعمالها ، فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أرَى رِيقَهـا مـاءَ الحيـاة تيقُّناً

على أنهَا لم تُبقِ لى فى الهوَى حَشَا

★ خبر :

وأخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر ، أنه رأى

ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية [1] ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوما فى بعض المتنزهات ماشياً ، وامرأة خلفه تنظر إليه . فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثر فيه مشيه ، فجعلت تقبّله وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله .

وفى ذلك أقول قطعة ، أولها :

يلومونني فـى مَوْطِئ خُفِّهِ خطـا
ولو علموا عادَ الـذى لامَ يَحْسُدُ

فيا أهل أرضٍ لاتجودُ سحابُها
خُذوا بوصاتى تستقلّوا وتحمدوا

خذوا من تراب فيه موضعُ وَطئه
وأضمنُ أن المَحْل عنكم يُبعّـــد

فكـلُّ تـراب واقعٌ فيـه رجلـهُ
فذاك صعيدٌ طَيّبٌ ليـس يُجحـد

---

(١) لا تمدنا المصادر بأية معلومات عنها ، فقط يتحدث ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، الترجمة رقم ٤٥٣ ، فى إيجاز شديد عمن يدعى : سليمان بن أحمد بن محمد الأندلسى ، من أهل سرقسطة ، يكنى أبا الربيع ، وكانت له رحلة إلى المشرق . وثمة إحتمال بأن يكون سليمان هذا هو الذى يشير إليه ابن حزم .

كـــذلك فعِل الســامرىٌ وقــد بـدا

لعينيـــه مــن جبريــل إثــرٌ ممجّد

فصيّر جوفَ العِجل مِن ذلك الثرى

فقـــام لـــه مِنـــه خـــوارٌ ممــدّد

وأقول :

لقـد بُوركتْ أرضٌ بهـا أنت قـاطنٌ

وبورِكَ من فيها وحَلّ بهـا الســعدُ

فأحجــارُها دُرٌّ وســـعدانُها وردٌ

وأمواهُهــــا شـــهدٌ وتربتُها نَدّ

ومن القنوع الرضا بمزَار الطيف ، وتسليم الخيال . وهذا إنما يحدث عن ذكر لايفارق ، وعهد لايحول ، وفكر لا ينقضى ، فإذا نامت العيون ، وهدأت الحركات سرى الطيف . وفى ذلك أقول :

زار الخيــالُ فتىً طـالتْ صَبابتــهُ

على احتفاظٍ من الحُرّاس والحفظهْ

فبتُّ فـــى ليلتى جـــذلانَ مُبتهجــاً

ولــذّةُ الطيفِ تُنسى لـــذّة اليقظـه

وأقول :

أتَى طيفُ نُعْمٍ (١) مَضْجعى بعد هَدْأةٍ
والليلِ سلطانٌ وظلٌ ممدّدُ
وعهدِى بها تحتَ الترابِ مُقيمةٌ
وجاءتْ كما قد كنتُ من قبل أعهد
فعدْنا كما كنّا وعاد زماننا
كما قد عهدْنا قبلُ والعودُ أحمدُ

وللشعراء فى علة مزار الطيف أقاويل بديعة المرمى مخترعة ، كلٌّ سبق إلى معنى من المعانى ، فأبو إسحاق بن سيّار النّظام رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقّب على بهاء الأبدان . وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى جعل علّته أنّ نكاح الطيف لايفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده . والبُحترى جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده ، وعلّة زواله خوف الغرق فى دموعه .

وأنا أقول من غير أن أمثل شعرى بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة ، وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء

(١) نعم : الجارية التى كان يعشقها ابن حزم ، وتحدث عنها فى الفصل السابق ، انظر الهامش رقم ٥ .

بهم ، وجريا فى ميدانهم ، وتتبعاً لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا ، أبياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطّعة :

أغـارُ عليك مـن إدْراكِ طَرْفـى
وأشـفقُ أنْ يُذيبك لمْس كفّى

فـأمتنعُ اللقـاءَ حـذارَ هـذا
وأعتمـدُ التـلاقى حـين أغْفَى

فروحـى إنْ أنـمْ بك ذو انفرادٍ
مـن الأعضـاءِ مُسـتترٌ ومخْفى

وَوَصْلُ الـروح ألطفُ فيك وَقْعـاً
من الجسم المواصل ألْفَ ضِعْف

وحال المزُور فى المنام ينقسم أقساماً أربعة :

أحدهما محبّ مهجور قد تطاول غمه ، ثم رأى فى هجعته أن حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ، ثم استيقظ فأسف وتلهّف ، حيث علم أن ما كان فيه أمانى النفس وحديثها .

وفى ذلك أقول :

أنت فى مشـرقِ النهـارِ بخيلٌ
وإذا الليـلُ جـنَّ كنتَ كريمـا

تجعلُ الشمسَ منك لى عِوَضاً هيـ

ـهاتَ ماذا الفعالُ منك قويما

زارنى طيفُـكَ البعيـدُ فيـأتى

واصلاً لـى وعـائداً ونديمـا

غير أنىٌ منعتنى مـن تمـام الـ

عيش لكنْ أبحتَ لـي التشـميما

فكـأنِّى من أهل الاعراف لا الفر

دَوْس دارى ولا أخـافُ الجحيمـا

والثانى محب مواصل مشفق من تغير يقع ، قد رأى فى وسنه أن حبيبه يهجره فاهتّم لذلك هماً شديداً ، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الاشفاق .

والثالث محب دانى الديار يرى أنّ التنائى قد فدحه ، فيكترث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحاً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

رأيتك فـى نـومى كـأنّكَ راحـلٌ

وقمنا إلى التـوديع والدمعُ هـاملُ

وزال الكَرى عنّى وأنت معانقى

وغَمّـــى إذا عـاينتُ ذلك زائـل

فجددتُ تَعْنيقـاً وضمًّا كـأنّنى

عليـكَ مـــن البيْنِ المفرّق واجـل

والرابع محب نائى المزار ، يرى أن المزار قد دنا ، والمنازل قد تصاقبت ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى ، ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح ، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم ، وقد جعلت فى بعض قولى علة النوم الطمع فى طيف الخيال .

فقلت :

طاف الخيالُ على مستهترٍ كَلِفٍ

لولا ارتقابُ مزارِ الطيفِ لم يَنمِ

لا تعجبوا إذ سرَى والليلُ مُعتكرٌ

فنورُهُ مُذهــبٌ فى الأرض للظلمِ

ومن القنوع أن يقنــع المحبّ بالنظــر إلى الجـــدران ، ورؤيـــة الحيطـــان التى تحتوى على من يحبّ ، وقد رأينـــــا من هذه صفته . ولقد حـــــدثنى أبو الوليد أحمد بن محمد بن إســـحاق

الخازن [١] رحمه الله ، عن رجل جليل ، أنه حدث عن نفسه بمثل هذا .

ومن القنوع أن يرتاح المحبّ ، إلى أنْ يرى مَن رأى محبوبه ، ويأنس به ، ومَن أتى من بلاده ، وهذا كثير . وفي ذلك أقول :

تَوحَّشَ مــن سُكّانه فكــأنَّهمْ
مســاكنُ عــادٍ أعقبتْهُ ثمــودُ

ومما يدخل في هذا الباب أبيات لي ، موجبها أني تنزهت أنا وجماعة من إخواني ، من أهل الأدب والشرف ، إلى بستان لرجل من أصحابنا ، فجلنا ساعة ، ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى . فتمددنا في رياض أريضة ، وأرض عريضة للبصر فيها منفسح ، وللنفس لديها مسرح ، بين جداول تطرد كأباريق اللجين ، وأطيار تغرد بألحان تزرى بما أبدعه معبد و الغريض [٢] . وثمار مهدلة قد ذللت للأيدى ، ودنت للمتناول ، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها ، فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج ، والثياب

(١) أبو الوليد أحمد بن محمد بن إسحاق ، والد أبي بكر محمد ، الذى عرفنا به في الباب الثاني ، وكان أبو بكر صديقاً وبوداً لابن حزم . وكلمة الخازن تومىء إلى وظيفته ، أى القائم على الشئون المالية في دار الخلافة .

(٢) معبد ، أبو عباد معبد بن وهب ، زنجي الأب ، مولى لعبد الرحمن بن قطن في المدينة المنورة ، وعمل في شبابه صيرفياً ، ثم احترف الموسيقى فيما بعد ، وأصبح مغني الأمراء من بني أمية في المشرق ، ويصفه إسحاق = الموصلي بأنه « من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة ، وأحسنهم خلقاً ، وهو فحل المغنيين » . وتوفي عام ١٢٥ هـ = ٧٤٣ م .

المديجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ، وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات ، لها خرير يقوم ويهدأ ، ونواوير مونقة ، مختلفة الألوان ، تصفقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجسج ، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا ، في يوم ربيعي ذي شمس ظليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق ، والمزن اللطيف ، وتارة تتجلى ، فهي كالعذراء الخفرة ، والخريدة الخجلة ، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها ، حذر عَيْنٍ مُراقِبَة . وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحادث أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرض لي بذلك ، وتداعبنا حيناً ، فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكّرها بعد انصرافنا وهي :

ولـمَّا تروَّحْنــــاً بأكناف روْضة ٍ
مهدَّلةِ الأفنــانِ في تُرْبِها النَّدِي

وقـد ضَحكتْ أنوارُهــا وتضوَّعتْ
أســـــاوِرُها في ظــلّ فَيْءٍ ممـدّد

وأبدتْ لنا الأطيارُ حُسْنَ صَرِيفها
فــمن بين شــــاك ٍشَــجْوَهُ ومغرِّد

● الغريض ، ويكنى أبا يزيد ، أو أبا مروان ، والغريض لقب معناه المغنى المجيد ، وهو من أصل بربرى ، وكان مولى للأخوات المعروفات باسم العبلات في مكة ، وتحول فيما بعد إلى ولاء السيدة سكينة بنت الحسين ، وحين حرم والى مكة الغناء والموسيقى التجأ إلى اليمن ، وتوفي عام ٩٨ هـ = ٧١٧ م .

والمـــاءِ فيمـــا بيننـــا مُتصرّفٌ

والعـينِ مُرتـــادٌ هنـــاك واليــد

وما شــئتَ من أخلاقِ أروعَ ماجدٍ

كريمِ الســـجايا للفخــار مُشيِّــد

فياليتنى فى السجن وهو معانقى

وأنتم معا فى قصر دار المجدّد(١)

تنغّص عنـــدى كل مــاقد وصفْتهُ

ولـم يَهْننى إذْ غــابَ عنى سيّدى

فمــن رامَ منَّا أن يبــدِّل حَالـــه

بحـــالِ أخيـــه أو بمـلكٍ مُخلـّد

فلا عــاش إلاّ فـى شــقاءٍ ونكبةٍ

ولا زالَ فــى بُؤْســىَ وخزْىٍ مردَّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين .

وهذه الوجوه التي عددت وأوردت فى حقائق القناعة هى الموجودة فى أهل المودة ، بلا تزيُّد ولا إعياء .

---

(١) قصر المجدد : من القصور التى بناها عبد الرحمن الناصر إلى جانب قصر الزهراء ، القصر الرئيسى فى مدينة الزهراء .

وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم ، وإبانة اقتدارهم على المعانى الغامضة ، والمرامى البعيدة ، وكلٌ قال على قدر قُوة طبعه ، إلاّ أنه تحكّم باللسان ، وتشدّق فى الكلام ، واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح فى الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما . ومنهم من قَنع باستوائهما فى إحالة الليل والنهار بهما ، وأشباه هذا ، وكلٌ مبادر إلى احتواء الغاية فى الاستقصاء ، وإحراز قصب السبق فى التدقيق .

ولى فى هذا المعنى قول لايمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولاً ، ولا وراءه مكاناً ، مع تبيينى علة قرب المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بَعيدٌ قلتُ حسبى بأنّه
معِى فى زمان لا يطيقُ مَحِيدا
تَمُرُّ علّى الشمسُ مثلَ مُرُورِها
به كلَّ يومٍ يَستنيرُ جديدا
فمنْ ليس بينى فى المسير وبينَه
سوى قطعِ يومٍ هل يكونُ بعيدا
وعِلم إلـهِ الخلقِ يجمعنا معاً
كفى ذا التدانى ما أريدُ مَزيدا

فبينت كما ترى أنى قانع بالاجتماع مع من أحب فى علم الله ، الذى السموات والأفلاك والعوالم كلها ، وجميع الموجودات ، لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ، ولا يشذ عنه منها شئ .

ثم اقتصرت من علم الله تعالى على أنه فى زمان ، وهذا أعم مما قاله غيرى فى إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً فى البادى إلى السامع ؛ لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان اسم موضوع لمرور الساعات ، وقطع الفلك وحركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها ، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلى ، وليس هكذا الزمان فإنهما بعض الزمان . وإنْ كان لبعض الفلاسفة قول إن الظل متماد ، فهذا يخطئه العيان ، وعللُ الردِّ عليه بينة ليس هذا موضعها .

ثم بيّنت أنه وإن كان فى أقصى المعمور من المشرق ، وأنا فى أقصى المعمور من المغرب ، وهذا طول السكنى ، فليس بينى وبينه إلا مسافة يوم ، إذا الشمس تبدو فى أول النهار المشارق وتغرب فى آخر النهار فى آخر لمغارب .

ومن القنوع فصل أورده وأستعيذ بالله منه ومن أهله ، وأحمده على ما عرّف نفوسنا من منافرته ، وهو أن يضل العقل جُملة وتفسد القريحة ، ويتلف التمييز ، ويهون الصعب ، وتذهب الغيرة ، وتعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب . وقد عرض

هذا لقوم . أعاذنـا الله من البلاء . وهذا لا يصلح إلا مع كلبية فى الطبع ، وسقوط من العقل الذى هو عيار على ما تحته ، وضعف حس . ويؤدى هذا كله حب شديد معم ، فإذا اجتمعت هذه الأشياء . وتلاحقت بمزاج الطبائع ، ودخول بعضها فى بعض . نتج بينهما هذ الطبع الخسيس ، وتولدت هذه الصفة الرذلة ، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح . وأما رجل معه أقل همة ، وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا ، ولو مات وجداً ، وتقطع حبا .

وفى ذلك أقول زارياً على بعض المسامحين فى هذا الفصل :

رأيتكَ رَحبَ الصدرِ ترضَى بمــا أتى
وأفضــلُ شــيءٍ أنْ تلينَ وتَسْــمَحا

فحظُّك مــن بعضِ السـواني مفضّلٌ
على أن يحوزَ المِلْكُ من أصلِها الرحى

وعضوَ بعيرٍ فيه فى الوزنِ ضعفُ مـا
تُقَدِّرُه فى الجدْى فـاعْصِ الذى لَحا

ولَعْبُ الـــذى تهــوَى بسَيفيْنِ مُعجِبٌ
فكُنْ ناحيــاً فى نحــوِه كيفمـا نَحا

٢٦

باب الضنى

ولابد لكل محب صادق المودّة ، ممنوع الوصل ، إمّا بِبَيْنٍ وإمّا بهجر وإمّا بكتمان واقع لمعنى ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جداً ، موجودا أبداً والأعراض الواقعة من المحبة غيرُ العلل الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق ، والمتفرس الناقد .

وفى ذلك أقول :

يقولُ لِيَ الطبيبُ بغير علمٍ
تـداوَ فـأنتَ يـاهـذا عليلُ
ودائِي ليس يدريـه سـوائي
وربٌّ قـــادرٌ مـــلكٌ جليـل
أأكتمُـــهُ ويكشـــفُهُ شـهيقٌ
يـُـلازمني وإطراقٌ طـويل
ووجهٌ شـاهداتُ الحزنِ فيه
وجسمٌ كالخيالِ ضَنٍ نحيل

وأثبتُ ما يكـون الأمُر يومـاً

بـلا شـكٍّ إذا صـحَّ الدليـل

فقـلتُ لـه أبِـنْ عنّـى قليلاً

فـلا واللّهِ تعرفُ مـا تقـول

فقـال أرى نُحـولاً زادَ جِـدّاً

وعلّتُكَ التـى تشـكو ذُبـول

فقلتُ له الذبولُ تَعِلُّ منه الـ

جـوارحُ وهى حُمَّى تستحيل

وما أشـكو لعمرُ اللّـهِ حمَّى

وإنَّ الحرَّ فـى جسـمى قليل

فقـال أرى التفاتـاً وارتقابـاً

وأفكـاراً وصمتـاً لا يـزول

وأحَسـبُ أنها السوداء فانظرْ

لنفسِـكَ إنهّـا عـرَضٌ ثقيـل

فقلتُ لـه كـلامُك ذا محـالٌ

فمـا للدّمـع مـن عَيْنى يَسيل

فأطــرقَ باهتــاً ممّــا رآه

ألاَ فى مِثلَ ذا بُهــتَ النبيــل

فقلتُ له دوائــى منه دائــى

ألاَ فى مثل ذا ضلّتْ عقــول

وشاهدُ ما أقولُ يرى عيــاناً

فُرُعُ النبتِ إنْ عكِسَتْ أُصول

وتِرياقُ الأفاعى ليــس شئٌ

سواهُ بِبرءِ ما لــدَغتْ كَفيـل

وحدثنى أبو بكر محمد بقى الحجرى (١) ، وكان حكيم الطبع عاقلا فهيما ، عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره ، أنه كان ببغداد فى خان من خاناتها ، فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها . فلما خلا بها نظرت إليه وكانت بكراً ، وهو قد تكشف لبعض حاجته، فراعها كبر أيره ، ففرت إلى أمها وتفادت منه ، فرام بها كل من حواليها أن تُرد إليه ، فأبت وكادت أنْ تموت ، ففارقها ثم

(١) شــخصية لم أهتد إليها ، ولا أجــد لها فيما بين يدى من مصادر خبرا .

ندم ، ورام أن يراجعها فلم يمكنه ، واستعان بالأبهرى [1] وغيره ، فلم يقدر أحد منهم على حيلة فى أمره ، فاختلط عقله ، وأقام فى المارستان يعاني مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد ، ولقد كان إذا ذكرها يتنفس الصعداء .

وقد تقدم فى أشعارى المذكورة فى هذه الرسالة ، من صفة النحول مفرّقاً ما استغنيت به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوف الإطالة . والله المعين والمستعان .

وربما ترقّت إلى أن يغلب المرء على عقله ، ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس .

★ خبر :

وإنى لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وقد بلغ حُبُّ فتى من إخوانى جدا من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط . واشتهر الأمر وشاع جداً حتى علمه الأباعد ، إلى أن تدوركت بالعلاج وهذا إنما يتولد

(١) الأبهرى : أبو بكر محمد بن عبد الله ، من كبار علماء المذهب المالكى ، وكان ثقة ثبتاً مشهوراً ، تفقه ببغداد ، وشرح المختصرين الكبير والصغير لابن عبد الحكم ، وكان القيم برأى مالك فى العراق على وقته ، وترك من المؤلفات : كتاب الأصول ، وكتاب إجماع أهل المدينة ، وكتاب الرد على المازنى ، وغير ذلك . وتوفى ببغداد عام ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م . وبعد موته ضعف مذهب مالك فى العراق .

عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت الفكرة وتمكّن الخلط السوداويّ ، خرج الأمر عن حدّ الحب إلى حدّ الوله والجنون ، وإذا أغفل التداوى فى الأول إلى المعاناة ، قَوِىَ جداً ، ولم يوجد له دواء سوى الوصال .

ومن بعض ما كتبت إليه قطعة ، منها :

قد سلَبْتَ الفؤادَ منها اختلاساً
أىُّ خلقٍ يعيش دون فؤاد

فأغثْها بالوصل تَحْىَ شريفاً
وتَفُزْ بالثوابِ يَومَ المعاد

وأراها تَمْتاضُ إنْ دام هذا
من خَلاَخِيلها حُلَىَ الأقياد

أنتَ حقًا متيّم الشمسِ حتَّى
عِشْقُها بْين ذا الورَى لك بادي

★ خبر :

وحدثنى جعفر ، مولى أحمد بن محمد بن حُدير ، المعروف بالبلبينى (١) : أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن حدير،

(١) لم أهتد إلى شخصية جعفر المولى ، ونسبته البلبينى محرفة دون ما شك ، وتحتاج إلى تصحيح .

وذهاب عقله ، اعتلاقه بجارية لأخيه ، فمنعها منه ، وباعها لغيره ، وما كان فى أخوته مثله ، ولا أتم أدباً منه .

وأخبرنى أبو العافية ، مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة ، أن سبب جنون يحيى بن محمد (١) بن أحمد بن عباس بن أبى عبدة (٢) بَيْعُ جارية له كان يجد بها وجْداً شديداً ، كانت أمه باعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات .

---

(١) سقطت كلمة « بن محمد » من كل الطبعات العربية .

(٢) بنو عبدة ، بيت آخر أندلسى عريق ، من البيوتات الكبيرة التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الأندلس ، على أيام دولة بنى أمية ، وفى عصر الطوائف . وينسبون إلى حسان بن مالك ، أبو عبدة ، وكان جدهم الأعلى ، عبد الله بن جابر والد حسان ، مملوكاً لمروان بن الحكم ، وأبلى يوم وقيعة مرج راهط بلاء حسناً فأعتقه .

وقد دخل أبو عبدة الأندلس سنة ١١٣ هـ = ٧٣١ م ، أى قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل بخمس وعشرين سنة . ولما توطد عبد الرحمن بالأندلس استوزر أبا عبدة واستقوده ، فاستعمله على إشبيلية . ومازال أبناؤه من بعده فى نفس مكانته من أمراء وخلفاء بنى أمية ، فاستعملوهم وزراء وقواداً وعمالاً .

وقد تفرع من بيت أبى عبدة بيت بنى جهور ، أمراء قرطبة على عهد دول الطوائف ، على خلاف فى سلسلة النسب بين المؤرخين ، لا يتسع لها المجال هنا ، وكانوا أكثر الأمراء اعتدالا وعدلا ، فنعمت قرطبة على أيامهم بالاستقرار والأمن . وقد ذهبت دولتهم على يد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية ، حين استولى عليها عام ٤٦٣ هـ = ١٠٦٤ م ، وضمها إلى إمارته . ولدينا عن بنى عبدة أخبار وافرة فى عدد من المصادر والمراجع ، :

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا ، وصارا في القيود والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهابهم لها . فتوفى رحمه الله . وأما يحيى بن محمد فهو حيّ على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه ، وقد رأيته أنا مراراً ، وجالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوى (١) ، وكان يحيى لعمرى حلواً من الفتيان نبيلا .

وأمّا مَن دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ، ولكن لم نسمهم لخفائهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد انبتّ الرجاء ، وانصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد في الدماغ ، وتلفت المعرفة ، وتغلبت الآفة . أعاذنا الله من البلاء بطوله ، وكفانا النقم بمنه .

---

(١) مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا الخيار ، وكان ظاهرى المذهب ، توفى عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٤ م .

٢٧

باب السلو

وقد علمنا أنّ كل ماله أول فلا بد له من آخر ، حاشى نعيم الله عز وجل ، بالجنة لأوليائه ، وعذابه بالنار لأعدائه . وأمّا أعراض الدنيا فنافذة فانية ، وزائلة مضمحلة ، وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين : إمّا اخترام منية ، وإما سلّو حادث .

وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرّفة معها فى الجسد ، فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعمل فى طاعة الله تعالى ، أو للرياء فى الدنيا ، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة فى لقاء شكلها للأنفة المستحكمة المنافرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة فى الضمير ، وهذا أصحّ السلّو . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً .

والسلو المتولّد من الهجر وطوله إنما هو كاليأس ، يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها ، فيفتر نزاعها ، ولا تقوى رغبتها .

ولى فى ذم السلو قصيدة ، منها :

إذا مـارنتْ فالحيُّ مَيْتٌ بلحظِهـا
وإنْ نَطقتْ قلتُ السـلامُ رطـابُ
كأنَّ الهوَى ضـيفٌ ألمّ بمهجتِي
فلحمِي طعامٌ والنجيـعُ شـرابُ

ومنها :

صبورٌ على الأزْمِ الذى العزُّ خَلْفَهُ
ولو أمْطرتْهُ بالحـريقِ سـحاب
جَزوعاً من الراحاتِ إنْ أنتجتْ له
خُمُولاً وفى بعضِ النعيمِ عـذابُ

والسلو فى التجربة الجميلة ينقسم قسمين :

سلو طبيعى ، وهو المسمى بالنسيان ، يخلو به القلب ، ويفرغ به البال ، ويكون الانسان كأنه لم يحب قط ، وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لأنه حادث عن أخلاق مذمومة ، وعن أسباب غير موجبة استحقاق النسيان . وستأتى مبيّنة إن شاء الله تعالى . وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح .

والثانى سلو تطبّعى ، قهر النفس ، وهو المسمى بالتصبّر ، فترى المرء يُظهر التجلّد وفى قلبه أشد لدغاً من وخز الإشفى ، ولكنه

يرى بعض الشر أهون من بعض ، أو يحاسب نفسه بحجة لا تصرف ولا تكسر ، وهذا قسم لا يذم آتيه ، ولا يلام فاعله ، لأنه لا يحدث إلاّ عن عظيمة ، ولا يقع إلاّ عن فادحة ، إمّا لسبب لا يصبر على مثله الأحرار ، وإما لخطب لا مرد له تجرى به الأقدار ، وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناس لكنه ذاكر ، وذو حنين واقف على العهد ، ومتجرّع مرارات الصبر ، والفرق العامى بين المتصبر والناسى ، أنك ترى المتصبّر وإن أبدى غاية الجلد ، وأظهر سبّ محبوبه والتحمّل عليه ، لا يحتمل ذلك من غيره .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

دعــونِى وسـبِّى للحبيبِ فإنّنــى
وإن كنتُ أُبدِى الهجرَ لَستُ معادياً
ولكــنْ ســـبِّى للحبيــب كقــولهمْ
أجــــادَ فلقَّاه الإلـــهُ الداوهيـــا

والناسى ضدّ هذا ، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها ، وقوة تمكّن الحب من القلب أو ضعفه ، وفى ذلك أقول ، وسميت السالى فيه المتصبّر ، قطعة منها :

ناسِى الأحبَّةِ غيرُ مَن يسلوهُمُ
حُكْمُ المقَصِّرِ غيــرُ حُكْمِ المقصرِ

ما قاصرٌ للنفسِ غير مُجيبِهَـــا

ما الصابرُ المطبــوعُ كالمتصبرِّ

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة ، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يعذر السالى ويذم .

فمنها الملل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإنَّ مَن كان سلّوه عن ملل فليس حبه حقيقة ، والمتسم به صاحب دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ، ومبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناسٍ مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإنْ كان يشبه الملل ففيه معنى زائد ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول ، وصاحبه أحق بالذم .

ومنـها حياء مركّب يكون فى المحب ، يحـول بينه وبين التعريض بما يجده ، فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلى جديد المودة ، ويحدث السلو . وهذا وجه إنْ كان السالى عنه ناسياً فليس بمنصف ، إذ منه جاء سبب الحرمان ، وإن كان متصبراً فليس بملوم ، إذ آثر الحياء على لذة نفسه . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحياء من الإيمان ، والبذاء من النفاق » .

وحدثنا أحمد بن محمد ، عن أحمد بن مُطَرِّف ، عن عبيد الله ابن يحيى ، عن أبيه ، عن مالك ، عن سلمة بن صفوان الزرقى ، عن زيد بن طلحة بن ركانة ، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء » .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب ، وابتداؤها مِن قِبَله ، والذمّ لاصق به فى نسيانه لمن يحب .

ثم منها أسباب أربعة هى من قبل المحبوب ، وأصلها عنده . فمنها :

الهجر ، وقد مر تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول ، وكثير العتاب ، واتصلت المفارقة ، يكون باباً إلى السلّو .

وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر فى شىء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا مَن مال إلى غيرك دون أن يتقدم لك معه صلة من الهجر أيضاً فى شىء ، إنما ذاك هو النفار . وسيقع الكلام فى هذين الفصلين بعد هذا إن شاء اللّه تعالى .

لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتنقيل واش ، أو لذنب واقع ، أو لشىء قام فى النفس ، ولم يمل إلى سواك ، ولا أقام أحداً غيرك مقامك . والناسى فى هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ؛ لأنه لا تقع حالة تقيم العذر فى نسيانه ، وإنما هو راغب عن وصلك ، وهو شىء لا يلزمه . وقد تقدم من أذمة الوصال وحق أيامه ، مايلّزم التذكر ويوجب عهد الألفة ، ولكن السالى على جهة التصبّر والتجلّد هاهنا معذور ، إذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ، ولا للمراجعة دلالة . وقد

استجاز كثير من الناس أن يسموا هذا المعنى غدراً ، إذ ظاهرهما واحد ، لكن علتيهما مختلفتان ، فلذلك فرقنا بينهما فى الحقيقة .

وأقول في ذلك شعراً ، منه :

فكـــونوا كمن لم أدرِ قطُّ فإنَّنى
كـــآخَرَ لم تـــدْرُوا ولم تَصِـلوهُ

أنا كالصدَى ما قـال كلٌّ أجيبهُ
فما شِئتمُوهُ اليـومَ فاعتمــدوه

وأقول أيضاً قطعة ، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم ، واستيقظت فأضفت إليها البيت الرابع :

ألاَ لِلّهِ دهـــرٌ كنـــتَ فيـــه
أعزَّ علىَّ مِن روحــي وأهلـــي

فما بَرِحتْ يدُ الهجرانِ حتـــىَّ
طـواك بنـــانُها طىَّ السجلّ

سقانِى الصبرَ هجرُكُم كما قــدْ
سقانى الحبَّ وصلُكُم بِســَجْل

وجدتُ الوصلَ أصل الوجدِ حقًّا
وطولَ الهــجْرِ أصـــلاً للتسـلِّى

وأقول أيضاً قطعة ، منها :

لو قِيلَ لي مِن قَبْلِ ذا
أنْ سوف تسلُو مَنْ تَوَدّْ
لحلفتُ ألفَ قسامةٍ
لا كانَ ذا أبدَ الأبدْ
وإذا طويلُ الهجرِ ما
معهُ من السُلوانِ بُدْ
لِلّهِ هجرُكَ إنّه
ساعٍ لبرئِيَ مُجْتهد
فالآنَ أعجبُ للسلـ
ـوّوكنتُ أعجبُ للجَلَدْ
وأرى هواك كجَمْرةٍ
تحتَ الرَّمادِ لها مَدَدْ

وأقول :

كانت جهنّمُ فى الحشَى من حُبِّكمْ
فلقد أراها نارَ إبراهيمَا

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التى هى من قِبَل المحبوب ، فالمتصبر

من الناس فيها غير مذموم . لما سنورده إن شاء الله في كل فصل منها .

فمنها نِفار يكون في المحبوب ، وانزواء قاطع للأطماع .

★ خبر :

وإني لأخبرك عني [1] : أني ألفت في أيام صباي ، ألفةَ المحبة، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ؛ وكانت غايةً في حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودَماثتها ، عديمة الهزل ؛ منيعة البذل ، بديعة البشر ،

(١) هذه القصة الجميلة التي سوف يرويها ابن حزم عن حب له ، أول ما عرف من كتاب الطوق ، وشاعت على نحو واسع ، ويعود الفضل في ذيوعها إلى المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) فلم تكد عينه تقع عليها ، حتى أخذ بها ، وترجمها في فرنسية رقيقة ، عذبة وصافية ، في كتابه : « تاريخ مسلمي إسبانيا » وعنه ترجمها إلى الألمانية المستشرق الألماني فون شاك في كتابه : « شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية » وترجمناه إلى العربية ، وصدر الجزء الأول منه بعنوان « الشعر العربي في إسبانيا وصقلية » والجزء الثالث بعنوان « الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، وصدرا عن دار المعارف بالقاهرة . وحين ترجم الأديب الإسباني خوان باليرا (١٨٢٧ - ١٩٠٥) هذا الكتاب إلى اللغة الإسبانية أعطى القصة العذوية نفسها ، ورغم ذلك قام المستشرق الإسباني الشاب فرانسيسكو بونس بويجس (١٨٦٣ - ١٨٩٩) بترجمتها مرة ثانية من اللغة العربية مباشرة ، وقد أثارت القصة جدلاً كبيراً حول عفة ابن حزم ، وعذرية الحب في الأندلس ، ودرسنا ذلك تفصيلاً في كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

مُسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ؛ مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد مَن أمَّها ، تزدان فى المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو .

على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة ، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شىء ألبتة .

فلعهدى بمُصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ، ودخلة أخى رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بُستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها(١) ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب

(١) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة .

وأنا بينهن ، فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه ، أنساً بقربها ، متعرضاً للدنّو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب ، وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره .

وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنّهنّ كنّ عدداً كثيراً . وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب ، لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . واعلم أنّ قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار .

ثم نزلن إلى البستان ، فرغب عجائزنا [1] وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فأمرتُها ، فأخذت العود وسوته

---

(١) تطلق كلمة « عجوز » فى لهجة أهل الأندلس ، على أية امرأة متزوجة . مهما كانت شابة ، فهى تتوقف على زواج الفتاة ، دون نظر إلى السن ، فكل متزوجة - حتى لو ترملت أو انفصلت عن زوجها فيما بعد - عجوز . والكلمة مستخدمة بهذا المعنى ، حتى يومنا هذا ، فى المغرب والجزائر وتونس ، وبخاصة فى المناطق التى استقبلت عدداً كبيراً من مهاجرى الأندلس ، حين طردوا من وطنهم بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، وقد تم الطرد النهائى للإسبان المسلمين عام ١٦١٣ م .

بخفر وخجل لاعهد لى بمثله ، وإن الشىء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنّى طربتُ إلى شمس إذا غربتْ
كانتْ مغاربُها جوفَ المقاصيرِ
شمسٌ ممثّلةٌ فى خَلْق جاريةٍ
كأنّ أعطافَها طىُّ الطوامير
ليستْ من الإنس إلاّ فى مناسبةٍ
ولا من الجنّ إلاّ فى التصاوير
فالوجهُ جوهرةٌ والجسمُ عَبْهرةٌ
والريحُ عنبرةٌ والكلُّ من نور
كأنّها حين تخطو فى مجاسدها
تخطو على البيضِ أو حدّ القوارير

فلعمرى لكأنّ المضراب إنما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا . وهذا أكثر ما وصلتُ إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

لا تَلُمْهَــا على النفــارِ ومَنْــعِ
الوَصْلِ ما هــذا لهــا بنكير
هل يكون الهــلالُ غيرَ بعيــدٍ
أو يكــونُ الغــزال غيرَ نَفُـور

وأقول :
مَنَعْتِ جمــالَ وجهِــك مُقْلَتيَّــا
ولفظُــكِ قد ضننــتِ به عليَّــا
أراكِ نــذرتِ للرحمــن صومــا
فلســتِ تكلِّمين اليــوم حيًّــا
وقــد غنَّيْت للعبــاس شــعراً
هنيئــا ذا لعبَّــاسٍ هَنيًّــا
فلو يلقــاك عبــاسٌ لأضــحى
لفــوزٍ قاليــاً وبكــمْ شَجيًّا

ثم انتقل أبى رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة ، فى ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث ، فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك .

ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب ، والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها ، وعمت الناس ، وخصتنا ، إلى أن تُوفِّى أبى الوزيرُ رحمه الله ، ونحن فى هذه الأحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة .

واتصلت بنا تلك الحال بعده ، إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها ، وقد ارتفعت الواعية (١) ، قائمة فى المأتم وسط النساء ، فى جملة البواكى والنوادب ، فلقد أثارت وجدا دفيناً ، وحرّكت ساكناً ، وذكرتنى عهداً قديماً ، وحبا تليداً ، ودهراً ماضياً، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالى ، وأخباراً بوالى ، ودهوراً فوانى ، وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجدّدت أحزانى ، وهيجت بلابلى . على أنى كنت فى ذلك النهار مرزأ مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى ، وتوقّدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا فلباه مجيباً . فقلت قطعة قطعة منها :

يُبَكّى لميتٍ مــاتَ وهـــوَ مكّــرمُ
وللحَىُّ أولى بالدمــوع الــذوارفِ

(١) الواعية : الصراخ والصوت ، لا الصارخة .

فيا عجباً من آسف لامرىء ثوى
وما هُوَ للمقتول ظُلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وغابت علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة ، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر .

ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميّزها حتى قيل لى هذه فلانة ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض الماء الذى كان يُرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبىء عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا ، وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لابد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك .

وإنما النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يُهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : إنّ حسن الرجال أصدق صدقاً ، وأثبت أصلا ، وأعتق جودة ، لصبره على مالو لقى بعضه

وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكِنّ .

وإني لو نلت منها أقل وصل ، وأنست لي بعض الأنس ، لخولطت طرباً ، أولمت فرحاً ، ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني .

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحِبُهُ في كلا الوجهين معذور وغير ملوم ، إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الأنفة والعزة تَسلّى ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً ، أو كبيراً منقطعاً ، احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه ، ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذي لا يحتمله أحد ، ولا يغضي عليه كريم ، وهو المسلاة حقاً . ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً ، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ، ولولا أن القلوب بيد مقلّبها لا إله إلاّ هو ، ولا يكلف المرء صرف قلبه ، ولا إحالة استحسانه ، لولا ذاك لقلت أن المتصبِّر في سلوه مع الغدر يكاد أن

يستحق الملامة والتعنيف . ولا أدْعَى إلى السلّو عند الحُر النفس ، وذوى الحفيظة ، والسرىّ السجايا ، من الغدر ، فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة ، خسيس الهمة ، ساقط الأنفة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَـــواك فلســـتُ أقربُهُ غُـــرُورٌ
وأنتِ لكـــلّ من يـــأتى ســـريرٌ

ومـــا أنْ تَصْبــرينَ على حبيـــبٍ
فحـــولكِ منهـــمُ عـــددٌ كثيـــر

فلـــو كنتُ الأميـــر لما تعـــاطىَ
لقـــاءَكِ خـــوفَ جمعهمُ الأميـــر

رأيتـــكِ كالأمـــانِى مـــا على مَن
يلُم بهـــا ولو كثُـــروا غُـــرور

ولا عنهـــا لمن يـــأتِى دفـــاعٌ
ولو حَشَـــدَ الأنـــامَ لهم نفيُر

ثم سبب ثامن ، وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنّه من الله تعالى ، وهو اليأس ، وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بيْن لا يرجى معه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابيْن بعلّة المحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها .

وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر . وعلى المحب القاسى ، فى هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة ، من الفضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل .

وإن لليأس لعملا فى النفوس عجيباً ، وثلجاً لحر الأكباد كبيراً . وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وآخراً فالتأنى فيها واجب ، والتربص على أهلها حسن ، فيما يمكن فيه التأنى ، ويصح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع ، وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر .

وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكى على الدمن ، ويثنون على المثابر على اللذات ، وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانىء فى هذا الباب وافتخر به ، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، تحكما بلسانه ، واقتداراً على القول .

وفى مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خلِّ هذا وبادر الـــدهرَ وارحــلْ
فى ريــاضِ الرُّبَـى مَطِىَّ العقارِ

واحْدُها بالبــديعِ من نغمــاتِ الـ
ـعــودِ كَيْمــاً تُحَثُّ بالمــزمار

إنَّ خيــراً من الوقوفِ على الــدا
رِوقــوفُ البنــانِ بالأوتـــار

وبدا النرجسُ البديعُ كصبٍّ

حائرُ الطرفِ مائلاً كالمدار

لونُه لونُ عاشقٍ مُستهامٍ

وهو لا شكَّ هائمٌ بالبَهَار

ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا فى الشعراء : « ألم تَرَ أنَّهمْ فى كلِّ وادٍ يَهيمونَ ، وأنَّهمْ يقولونَ مالا يَفْعلونَ » [1] . فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ .

وكان سبب هذه الأبيات أن ضنَّى العامرية ، إحدى كرائم المظفرْ عبد الملك بن أبى عامر [2] ، كلفتنى صنعتها فأجبتها ، وكنت أجلها ، ولها فيها صنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً . ولقد أنشدتها بعض إخوانى من أهل الأدب فقال سروراً بها: يجب أن توضع هذه فى جملة عجائب الدنيا .

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) لم أجد فيما بين يدى من مصادر ما يزيدنى معرفة بضنى العامرية هذه ، ابنة المظفر . أما أبوها فهو الابن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، وخليفته فى الحجابة ، وعرضنا له أكثر من مرة .

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هى من المحب ، اثنان منها يُذمّ السالى فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يُذم السالى فيه ولا يذم المتصبِّر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها واحد يُذم الناسى فيه ولا يُذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم ، وثلاثة لا يذم السالى فيها على أى وجه كان ناسياً أو متصبِّراً ، وهى النفار والجفاء والغدر . ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل ، وهو اليأس إما بموت أو بيْن أو آفة تزمن . والمتصبِّر فى هذه معذور .

وعنى أخبرك ، أنى جُبلت على طبيعتين لا يهنئنى معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما ، وأود التثّبت من نفسى أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلوّن ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته . وعزة نفس لا تقرّ على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغيّر المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأُجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوّم الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسى تصبّرت ، وفى القلب ما فيه .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

لى خلّتان أذاقانى الأســىَ جُرَعاً

ونَغصا عيشــتى واستَهْلكا جلَــدِى

كلتــــاهما تطّبينى نحـــو جِبْلتِها

كالصَّيدِ ينشبُ بين الذئب والأســد

وفاءُ صدق فما فــارقتُ ذامقـــة

فزالَ حُـــزنى عليــه آخِـر الأبَد

وعِزّةٌ لا يحـــلّ الضيْمُ ســـاحتَها

صرامةٌ فيه بالأمــوال والــــــولدِ

ومما يشبه ما نحن فيه ، وإن كان آيس منه ، أن رجلا من إخوانى كنت أحللته من نفسى محلّها ، وأسقطت المؤونة بينى وبينه ، وأعددته ذخراً وكنزاً ، وكان كثير السمع من كل قائل ، فدب ذو النميمة بينى وبينه ، فحاكوا له ، وأنجح سعيهم عنده ، فانقبض عما كنت أعهده ، فتربّصت عليه مدة فى مثلها أوب الغائب ، ورضى العاتب ، فلم يزدد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

٢٨

باب الموت

وربما تزايد الأمر ، ورق الطبع ، وعظم الإشفاق ، فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء فى الآثار : من عشق فعف فمات فهو شهيد .

وفى ذلك أقول ، منها :

فـإنْ أهـلكْ هـوىً شـهيداً وإنْ تَمُتْنْ بَقيتُ قَريـرَ عَـيْنِ
روَى هـذا لنـا قـومٌ ثِقاتٌ ثووْا بالصدقِ عَنْ جَرْحٍ ومَيْنِ

ولقد حدثنى أبو السرى عمّار بن زياد صاحبنا ، عمن يثق به ، أن الكاتب ابن قزمان أمتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخى الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان أسلم غاية فى الجمال ، حتى أضجره لما به ، وأوقعه فى أسباب المنية . وكان أسلم كثير الإلمام به والزيارة له ، ولا علم له بأنه أصل دائه ، إلى أن توفى أسفاً ودنفا (١) .

---

(١) أسلم بن عبد العزيز ، أسمه كاملا : أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز وينتهى به نسبه إلى أبان بن عمرو ، مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان أسلم من كبار فقهاء الأندلس ، جلس إلى بقى بن مخلد ، وسمعه زمنا طويلاً ، ورحل إلى الشرق عام ٢٦٠هـ = ٨٧٣م =

قال المخبر : فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال : هلا أعلمتنى ؟ فقلت : ولم ؟ قال كنت والله أزيد فى صلته وما أكاد أفارقه ، فما علّى فى ذلك ضرر .

وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن ، مع حظ من الفقه وافر ، وذا بصارة فى الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغانى وتصرّفها ، وهو صاحب تأليف فى طرائف غناء زرياب

= حـاجاً وتوقف فى القاهرة فدرس على أعلام المالكية ، ثم عاد إلى قرطبة ، وتولى فيها قضاء الجماعة مرتين وله كتاب فى « أغانى زرياب » كان مشهوراً على أيامه ، ضاع ولم يصلنا . توفى فى شهر رجب من عام ٣١٩ هـ = يولية ٩٣١ .

• هاشم بن عبد العزيز ، أخو أسلم وكبيره ، وكان هاشم خاصاً بالأمير محمد بن عبد الرحمن : يؤثره بالوزارة ، ويرشحه مع بنيه ، ومفرداً ، للقيادة والإمارة ، وولاه كورة جيان وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع فى سواه من أهل زمانه ، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة ، وقرض الأشعار البديعة ، إلى ماله من القديم والبيت والسابقة . ونكبه المنذر بن محمد لأشهر من خلافته ، بعد أن ولاه الحجابة ، أى رئاسة الوزارة تقريباً ، وأظهر عنه الرضا ، لأشياء حقدها عليه فى خلافة أبيه محمد ، فحسبه ، ثم قتله ، وهدم داره ، ونكل بأسرته ، ولم تخل دار بقرطبة من بكاء عليه ، فقد كان رحمة مبسوطة للعامة والخاصة وكان مصرعه سنة ٢٧٣هـ = ٨٨٧م .

• ابن قزمان . إحمد بن قزمان ، الشهير بابن كليب الكاتب ، كان شاعراً أندلسـياً نحوياً متفقهاً ، وكـان يعشق أسـلم ، وأوقف شـعره عليه ، حتى =

وأخباره ، وهو ديوان عجيب جـدًا . وكان أحسـن الناس خَلْقاً وخُلُقاً ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب الغربى من قرطبة .

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء ، فعزف عنها لشئ بلغه فى جهتها لم يكن يوجب السخط فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً ، وما فارقها النحول والأسف ، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها ، ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة .ولقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها ، أنّها لقيتها وهى قد صارت كالخيط نحولاً ورقة ، فقالت لها أحسب هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : واللّه لا نسيته أبداً ، وإن كان جفانى بلا سبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرا .

= فشت أخباره ، وجرت بها الألسنة ، وتنوشدت فى المحافل ، ومات بسبب حبه هذا كما فى القصة التى معنا ، ويظن أنه من أسلاف الشاعر الزجال ابن قزمان الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى .

• رواية ابن حزم لقصة ابن قزمان لأسلم بن عبد العزيز ، موجزة جداً وغامضة ، وأشك فى أن يد الناسخ قد امتدت إليها بالتلخيص ، ربما ورعا منه ، لأن تفاصيلها تضع يدنا على جانب غير محبب للورعين .

ولكن الضبى فى كتابه « البغية » ، وداود الانطاكى فى كتابه « تزيين الأسواق » أورد القصة تفصيلا ولا يتسع المقام لإيرادها هنا ، ولكن درسناها فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

وأنا أخبرك عن أبى بكر رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قَنْد[1] ، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور بن أبى عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها ، وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، تُغْضِبُ كل واحد منهما الكلمة التى لا قدر لها ، فكانا لم يزال فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام .

وكانت قد شفّها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كلفها به ، حتى صارت كالخيال المتوسم دنفا ، لا يلهيها من الدنيا شئ ، ولا تسر من أموالها ، على عَرْضها وتكاثرها ، بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها ، إلى أن توفى أخى رحمه الله فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام ، فى اليوم الذى أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً .

---

(١) ليس لدينا معلومات عن هذه الأسرة غير ما يقدمه ابن حزم هنا ، وكل ما نعرفه عنها ، أن عاتكة كانت رائعة الجمال ، وأن أباها قند كان مولى عبد الرحمن الناصر ، وأنه أصبح فى عهد المنصور بن أبى عامر قائد الثغر الأعلى ؛ ومقره مدينة سالم ، ويجب ألا نخلط بينه وبين مولى آخر لعبد الرحمن الناصر ، كان يحمل الاسم نفسه قند الأكبر ، وكان قائماً على خطة المواريث ، وتوفى عام ٣٠٤ هـ = ٩١٦ م .

ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوّى صبرى ، ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته ، إلاّ سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنتُ هذا الذى ما كنتُ أتخوّف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به .

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدرت ، غفر الله لها ورضى عنها .

وأمّا خبر صاحبنا أبى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطبنى (١) : فإنه كان رحمه الله

---

(١) بيت الطبنى ، أسرة قرطبية شهيرة ، ينسبون إلى طبنة ، قاعدة منطقة الزاب فى المغرب ، وتمتد جنوب مدينة قسنطينة الحالية ، بين شط هدنة وجبال أوراس ، ونزلت بها جماعات من مهاجرة العرب منذ أيام الفتح الأولى ، واختلطوا بالنازلين هناك من البربر ، ومعظمهم من هوارة . وكان الزاب الأعلى من الناحية الإدارية تابعاً لولاية أفريقية ، أى تونس الحالية ، ولهذا كان عربه يعدون أنفسهم من عرب أفريقية . أما الزاب الأسفل فكان معدودا فى المغرب الأوسط ، أى الجزائر الحالية .

وكان أول من طرأ على الأندلس منهم ، أبو مضر زيادة الله بن على التميمى ، على أيام المنصور بن أبى عامر ، ومالبث أبو مضر أن أصبح بأدبه وظرفه نديم المنصور . وقد استقر به المقام فى قرطبة ، وترك خلفا صالحاً وكثيراً ، فكان من أبنائه وأحفاده شعراء وأدباء وعلماء ورجال دولة ، وقد جمع ابن بسام فى كتابه : « الذخيرة » شطراً كبيراً من أشعارهم ، وأخبارهم متناثرة فى شتى مصادر تاريخ الأندلس .

كأنه قد خُلِقَ الحسن على مثاله ، أو خُلِقَ من نفس كل من رآه ، لم أشهد له مثلا حُسْناً وجمالا وخلقاً ، وعفة وتصاوناً وأدباً ، وفهماً وحلماً ووفاء ، وسؤدداً وطهارة وكرماً ، ودماثة وحلاوة ولباقة ، وإغضاء وعقلا ومروءة ، وديناً ودراية ، وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعراً مفلقاً ، حسن الخط ، وبليغاً مفنّناً ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمـان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى ، أستاذى فى هذا الشأن .

وكان بينه وبين أخيه أثنا عشر عاماً فى السن ، وكنت أنا وهو متقاربين فى الأسنان ، وكنا ألفين لا نفترق ، وخدنين لا يجرى الماء بيننا إلاّ صفاء ، إلى أن ألقت الفتنة جرانها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا فى الجانب الغربى بقرطبة ، ونزولهم فيها ، وكان مسكن أبى عبد الله فى الجانب الشرقى ببلاط مغيث ، وتقلّبت بى الأمور إلى الخروج عن قرطبة ، وسكنى مدينة المرية ، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً ، وآخر ما خاطبنى به رسالة فى درجها هذه الأبيات :

ليتَ شعْرى عن حَبْلِ وُدِّكَ هل يمـ
سـى جديـداً لدىَّ غَـيْـرَ رَثيثِ
وأرانـــى أرَى مُحيـَّاكَ يومـاً
وأنـــاجيك فـــى بـَلاَط مُغيث

فلو انَّ الديارَ يُنهضــهاَ الشـوْ

قُ أتــاكَ البــلاطُ كالمســتغيثِ

ولو أنَّ القلـوبَ تَسْطيعُ ســيْراً

ســار قلبي إليكَ سَيْرَ الحثيث

كُنْ كما شئت لى فإنى مُحِبٌّ

ليس لى غيرُ ذكركمْ من حديث

لَكَ عنــدى وإنْ تناســيتَ عَهْدٌ

فــى صميمِ الفــؤادِ غيرُ نكيثِ

فكنّا على ذلك إلي أن انقطعت دولة بنى مروان ، وقُتل سليمان الظافر أمير المؤمنين (١) وظهرت دولة الطالبية (٢) ، وبويع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملّكها ، واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلّبين والثوار فى أقطار الأندلس .

---

(١) يلقب عادة بسليمان المستعين .

(٢) الطالبية ، نسبة إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، لأنهم ينتسبون إلي أدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب ، وكان إدريس يذهب بنسبه إلى الإمام على ، فهم علويون إذن ، وكانت بداية دولتهم فى الأندلس الأخوين عليا والقاسم ابن أبى حمود بن أبى العيش ، وقد عينهما الخليفة المستعين حاكمين على منطقة العدوة أى مضيق جبل طارق بشاطئيه الأوربى والإفريقى ، فاستقر علّى حاكماً فى مدينة سبتة ، وذهب القـــاسم =

وفى إثر ذلك نكبنى خيران صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من البالغين – وقد انتقم الله منهم – عنى وعن محمد بن إسحاق صاحبى ، أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ، ثم أخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر[1] ، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن هذيل التجيبى ، المعروف بابن المُقَفل[2] . فأقمنا عنده شهوراً فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم معروفاً ، وأتمهم سيادة .

ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية[3] عند ظهور أمير المؤمنين

= حاكما على الجزيرة الخضراء ، ولما قوى مركزهما أخذ يمهدان للاستيلاء على الخلافة . وهكذا اقتحم على بن حمود مدينة قرطبة فى ٢٢ محرم ٤٠٧ هـ = أول يوليو ١٠١٦ م ، وعزل المستعين وقتله ، وأخاه عبد الرحمن وأباه الحكم ، وتولى الخلافة متلقباً بالناصر لدين الله . وكان ذلك بداية غروب شمس الخلافة فى الأندلس .

(١) حصن القصر Aznalcazar قرية صغيرة ، ماتزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة إشبيلية .

(٢) لم أهتدله إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٣) بالنسية Valencia مدينة ، ومحافظة ، كبيرة فى شرقى إسبانيا ، على شاطئ البحر المتوسط وهى مشهورة بخصبها ، ومزارعها الواسعة ، وبساتينها المثمرة ، وقد تأصلت فيها الحضارة العربية منذ وقت =

المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، وساكنّاه بها . فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الواحد بن محمد بن مَوْهِب القبرىّ (١) صديقنا ، فنعى إلىّ أبا عبد الله بن الطبنى وأخبرنى بموته رحمه الله ، ثم أخبرنى بعد ذلك بمديدة القاضى أبو الوليد يونس بن محمد المُرَادى ، وأبو عمر وأحمد ابن محرز (٢) : أن أبا بكر مصعب بن

= مبكر ، وازدهرت على نحو واضح ، وكانت منذ أيام الفتح الأولى ... عدد كبير من الأسر العريقة ، وموطن عدد من كبار الشعراء ، تميزوا بنهج فنى محدد ، فهم يصدرون فى إلهامهم عن الطبيعة ، ومنها اتخذوا مادة إبداعهم الشعرى . كابن خفاجة ، وابن الزقاق ، والرصافى وابن عميرة ، وغيرهم ، وتعرضت لغزو السيد القنبيطور ، فاقترن اسمه بها ، وقد سقطت نهائياً فى يد الكاثوليك بقيادة خايمة الأول ملك أرجون الملقب بالفاتح سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م .

(١) أبو شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبرى ، نسبة إلى بلدة قبرة Cabra، وتقع جنوبى قرطبة ، وإليها ينسب مقدم بن معافى القبرى ، مخترع الموشحات . وقد ترجم الضبى فى كتابه « البغية » لأبى شاكر ، وذكر أنه فقيه ومحدث وأديب وخطيب وشاعر ، وأورد له أبياتا من الشعر برواية ابن حزم ، وأنه نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م .

(٢) عن أبى الوليد يونس بن محمد المرادى ، انظر : الباب ٢٣ ، الهامش ٢

وأما أبو عمرو أحمد بن محرز ، فلم أستطع الاهتداء له إلى أية ترجمة فى المصادر المختلفة .

عبد الله الأزدى ، المعروف بابن الفرضى (١) ، حدثهما ، وكان والد مصعب هذا قاضى بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدى ، وكان مصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً ، أيام طلبنا الحديث على والده ، وسائر شيوخ المحدّثين بقرطبة ، قالا : قال لنا مصعب :

سألت أبا عبد الله بن الطبنى عن شبب علته ، وهو قد نحل ، وخفيت محاسن وجهه بالضنى ، فلم يبق إلا عين جوهرها ، المخبر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يطيّره النفس ، وقرب من الانحناء ، والشجا بادٍ على وجهه ، ونحن منفردان ، فقال لى : نعم ، أخبرك أنى كنت فى باب دارى بغدير ابن الشماس (٢) فى حين دخول على بن حمود قرطبة ، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيت فى جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صور قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلى ، وهام به لبى ، فسألت عنه فقيل لى : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن

---

(١) مصعب بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى ، يكنى أبا بكر، من أهل قرطبة ، وهو والد القاضى أبى الوليد بن الفرضى ، صاحب كتاب: « تاريخ علماء الأندلس » ، الذى قتل فى فتنة قرطبة .

وكان مصعب أديباً إخبارياً محدثاً شاعراً ، ولى الحكم بالجزيرة وتوفى بعد عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م .

(٢) حى فى قرطبة .

قرطبة ، بعيدة المأخذ ، فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمرى يا أبا بكر لا فارقنى حبّه أو يوردنى رمسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته ، لكننى أضربت عن أسمه لأنه قد مات ، والتقى كلاهما عند الله عز وجل ، عفا الله عن الجميع .

هذا على أنّ أبا عبد الله ، أكرم الله نزله ، ممن لم يكن له ولُه قط ، ولا فارق الطريقة المثلى : ولا وطئ حرماً قط ، ولا قارف منكراً ، ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان فى طبقتنا مثله .

ثم دخلت أنا قرطبة ، فى خلافة القاسم بن حمود المأمون ، فلم أقدم شيئاً على قصد أبى عمرو القاسم بن يحيى التميمى (١) ، أخى عبد الله رحمه الله ، فسألته عن حاله ، وعزيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه منى . ثم سألته عن أشعاره ورسائله ، إذ كان الذى عندى منه قد ذهب بالنهب فى السبب الذى ذكرته فى صدر هذه الحكاية ، فأخبرنى عنه أنه لما قربت وفاته ، وأيقن بحضور المنية ، ولم يشكّ فى الموت ، دعا بجميع شعره ، وبكتبى

---

(١) أبو عمرو القاسم بن يحيى التميمى ، أخو أبى عبدالله محمد بن يحيى التميمى ، الذى تحدثنا عنه فى الهامش رقم ٥ من هذا الباب ، وأورد له الضبى فى البغية ترجمة موجزة .

التى كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلّها ، ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : يا أخى دعها تبقى . فقال : إنى أقطعها وأنا أدرى أنى أقطع فيها أدبا كثيراً ، ولكن لو كان أبو محمد بعينى حاضراً لدفعتها إليه ، تكون عنده تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ، ولا أحىّ هو أم ميت . وكانت نكبتى اتصلت به ، ولم يعلم مستقرى ، ولا إلى ما آل إليه أمرى .

فمن مراثىّ له قصيدة ، منها :

لــئن ســتَرَتْكَ بطــونُ اللحودِ
فَــوَجْدِى بَعــدَكَ لا يَســتَتِرْ

قَصَدتُ ديارَكَ قصدَ المشُوقِ
ولِلــــدهْرِ فينــا كـرُورٌ ومَـرّْ

فألفيتُهــاَ منـكَ قفراً خــلاءً
فأكســبتُ عَيْنِي عليـكَ العبَرْ

وحدثنى منكَ أبو القاسم الهمذانى[1] رحمه الله قال : كان

---

(١) سوف يتحدث عنه ابن حزم فيما بعد ، فى الباب التاسع والعشرين ، الهامش رقم ٣١ ، وسوف يذكرنا أنه كان حيًا فى قرطبة عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، ومع ذلك يتساءل ، هل هو القاسم محمد بن على ابن البواق الهمدانى ، الذى ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، رقم ٢٣٥ ، وأورد عنه سطوراً قليلة ، وذكر له أبياتاً من الشعر فى الزهد ، وقال عنه إنه توفى ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م ؟

معنا ببغداد أخ لعبد الله ابن يحيى بن أحمد دحون الفقيه (١) ، الذى عليه مدار الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجل مقداراً ، ما كان فى أصحابنا ببغداد مثله ، وأنه اجتاز يوماً بدرب قطنة ، فى زقاق لا ينفذ ، فدخل فيه فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه ، فقالت له : ياهذا ، إن الدرب لا ينفذ ، قال : فنظر إليها فهام بها . قال : وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها . وخشى الفتنة فخرج البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله ، وكان فيما ذكر من الصالحين .

★ حكاية :

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البربر ، أن رجلاً أندلسياً باع جارية ، كان يجد بها وجدا شديد ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع ، فلما حصلت عند المشترى كادت نفس الأندلسى تخرج فأتى إلى الذى

---

(١) عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموى ، يعرف بابن دحون ، ويكنى أبا محمد ، من أهل قرطبة ، كان من جلة الفقهاء وكبارهم ، عالماً بالفتوى ، عارفاً بالشروط وعللها ، بصيراً بالأحكام ، مشاوراً فيها . وكان أستاذاً لابن حزم وتوفى ٤٣١ هـ = ١٠٤٠ م .

وثمة فقيه آخر كان يعرف بابن دحون أيضاً ، وله المكانة نفسها ، ولكنه توفى ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م .

ابتاعها منه ، وحكمه فى ماله أجمع وفى نفسه ، فأبى عليه ، فتحمـل عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد . فكاد عقله أن يذهب . ورأى أن يتصدى إلى الملك ، فتعرض له وصاح ، فسمعه فأمر بإدخاله ، والملك قاعد فى علية له مشرفة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته ، واسترحمه وتضرع إليه ، فرق له كما تراه ، وأنا شفيعه إليك فأبى وقال : أنا أشد حباً لها منه . وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا فى أسوأ من حالته .

فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم ، فأبى ولج واعتذر بمحبته لها ، فلما طال المجلس ، ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسعاف ، قال للأندلسى : ياهذا ، مالك بيدى أكثر مما ترى ، وقد جهدت لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شراً مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى اللّه عليك ، فقال له الأندلسى : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ، ما أستطيع لك أكثر .

فلما يئس الأندلسى منها جمع يديه ورجليه ، وانصب من أعلى العلية إلى الأرض ، فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل، ففضى أنه لم يتأذ فى ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك ، فقال له : ماذا أردت بهذا ؟ فقال أيها الملك . لا سبيل

لى إلى الحياة بعدها ، ثمَ همَّ أن يرمى نفسه ثانية فَمنع .

فقال الملك : اللّه أكبر ، قد ظهر وجه الحكم فى المسألة ، ثم التفت إلى المشترى فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته ، وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن اللّه عز وجل وقاه فأنت قم فصحح حبك ، وترام من أعلى هذه القصبة ، كما فعل صاحبك ، فإن مت فبأجلك ، وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هى فى يدك ، ويمضى صاحبك عنك . وإن أبيت نزعت الجارية منك رغما ودفعتها إليه .

فتمنع ثم قال : أترامى . فلما قرب من الباب ، ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقرى ، فقال له الملك : هو واللّه ما قلت ، فهمّ ثم نكل، فلما لم يقدم قال له الملك : لا تتلاعب بنا ، ياغلمان ، خذوا بيديه ، ، ارموا به إلى الأرض ، فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك ، قد طابت نفسى بالجارية ، فقال : جزاك اللّه خيرا . فاشتراها منه ، ودفعها إلى بائعها : وانصرفا .

٢٩

باب قبح المعصية

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ، ويعصون عقولهم ، ويتبعون أهواءهم ، ويرفضون أديانهم ، ويتجنبون ما خص الله تعالى عليه ورتّبه فى الألباب السليمة ، من العفة ، وترك المعاصى ، ومقارعة الهوى ، ويخالفون الله ربهم ، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة ، فيواقعون المعصية فى حبهم . وقد علمنا أن الله عز وجل ركب فى الإنسان طبيعتين متضادتين :

إحداهما لا تشير إلاّ بخير ، ولا تحض إلاّ على حسن ، ولا يتصور فيها إلاّ كل أمر مرضى ، وهى العقل ، وقائده العدل .

والثانية ضدٌ لها لا تشير إلاّ إلى الشهوات ، ولا تقود إلاّ إلى الردَى ، وهى النفس ، وقائدها الشهوة ، والله تعالى يقول : « إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ » (١) وكنّى بالقلب عن العقل فقال : « إنّ فى ذلك لذكرَى لمنْ كـانَ له قلبٌ أو ألقَـى السمْعَ وهو شـهيدٌ » (٢) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة ق ، الآية ٣٧ .

وقال تعالى : « وحبَّبَ إليْكُمُ الإيمانَ وزيَّنهُ فى قُلوبِكُمْ »[1] وخاطب أولى الألباب .

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان ، وهما قوّتان من قوى الجسد الفعال بهما ، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين ، ففى كل جسد منهما حظه ، على قدر مقابلته لهما فى تقدير الواحد الصمد ، تقدّست أسماؤه ، حين خلقه وهيّأه . فهما يتقابلان أبداً ، ويتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقلُ النفس ارتدع الإنسان ، وقمع عوارضه المدخولة ، واستضاء بنور اللّه ، واتبع العدل ، وإذا غلبت النفسُ العقل عميت البصيرة ، ولم يتضح الفرق بين الحسن والقبيح ، وعظم الالتباس ، وتردى فى هوة الردى ومهواة الهلكة . وبهذا حسن الأمر والنهى ، ووجب الاكتمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء .

والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، وموصل ما بينهما . وحامل الالتقاء بهما ، وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلاّ مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ، ونفاذ التمييز ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن . ومداخلة الناس جملة ، والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له فى

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٧ .

النساء، ولا جارحة له تعينه عليهن وقديماً ورد : « من وقى شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقى شر الدنيا بحذافيرها » . واللقلق : اللسان . والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج .

ولقد أخبرني أبو حفص الكاتب . وهو من ولد روح بن زنباع الجذامي ، أنه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير ، وقد سئل عن هذا الحديث فقال : القبقب : البطيخ .

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا وهب بن مسرة ، ومحمد بن أبي دَليم عن محمد بن وضاح ، عن يحيى بن يحيى [(١)]،

(١) تضم سلسلة الإسناد هذه خمسة من الأندلسيين :

- أحمد بن محمد بن أحمد بن برد ، أبو عمر ، ويقول الحميدى عنه في «الجذوة » إنه رآه بالمرية بعد عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ، يزور ابن حزم في بيته ، أثناء إقامة هذا هناك ، أكثر من مرة ، وأورد له الضبي في « البغية » أبياتاً رقيقة من الشعر ، في وصف الطبيعة وفي الغزل . وسنلتقي به ثانية بعد قليل في حديث آخر .

- وهب بن مسرة بن مفرج التميمي ، يكنى أبا الحسن ، من وادي الحجارة مدينة قائمة حتى الآن شرقي مدريد ، درس الحديث ، وأصبح أستاذاً يدرس مدونة سحنون ، ومسند ابن أبي شيبة ، وأورد لنا فهرسة بشيوخه ، وتفسيراً للقرآن ، وضاعت كلها فيما أعلم . وتوفي عام ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م .

- عبدالله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم ، يكنى أبا محمد ، من قرطبة ، عمل قاضياً لمدينة إلبيرة ، ثم المرية ، وشغل منصب القضاء في قرطبة ، حيث توفي عام ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م .

- محمد بن وضاح ، أبو عبدالله ، قرطبي المولد والنشأة ، وقف نفسه على درس الحديث وتدريسه ، ورحل إلى المشرق ، ودرس على الإمام أحمد بن حنبل، وجاء معه في أحد رحلاته بمسند ابن أبي شيبة ، وكتبا أخرى في الحديث ، عمر طويلاً ، وتوفي عام ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م . =

عن ملك بن أنس ، عن زيـد بن أسـلم ، عن عطاء بن يسـار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل : « من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة . فسئل عن ذلك فقال : ما بين لحييه وما بين رجليه » .

وإني لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء ، فأطيل العجب من ذلك ، وإن لي قولا لا أحول عنه : الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء . وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثمّ من مانع إلا وقع في شرك الشيطان ، واستهوته المعاصي ، واستفزّه الحرص ، وتغَوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضيا ، وحكما نافذا لا محيد عنه ألبتة .

ولقد أخبرني ثقة صدق من إخواني ، من أهل التمام في الفقه والكلام والمعرفة ، وذو صلابة في دينه ، أنه أحبَّ جارية نبيلة أديبة

= يحيى بن يحيى الليثي ، أشهر الفقهاء وأقوامهم نفوذاً في عصر الإمـارة ، ينحدر من أصول بربرية ، ولد في قرطبة ، ورحل إلى المشرق طلباً للعلم ، وتتلمذ على الإمام مالك ، وقد أعجب الأسـتاذ بطالبه ، وأطلق عليه لقب « عاقل الأندلس » . وجاء القاهرة ودرس فيها على أعلام المالكية ، وأمضى ثماني سنوات بين المدينة والقاهرة ، وعاد إلى وطنه بعلم وفير . ورفض أن يتولى أي منصب رسمي ، ولكن نفوذه كان أكبر من أي موظف ، وابن حزم يجعله ثالث اثنين بلغ نفوذهما قدراً كبيراً ، في عزل القضاة وتعيينهم وأثر بالتالي في الاتجاه الثقافي : أبو يوسف في العراق ، وسحنون في المغرب ، ويحيى في الأندلس . وتوفي يحيى عام ٢٣٤ هـ = ٨٤٩ م .

ومعلوماتنا عنه وفيرة ، ولا يخلو مصدر أندلسي من الإشارة إليه .

ذات جمال بارع ، قال : فعرضتُ لها فنفرت ، ثم عرضتُ فأبت ، فلم يزل الأمر يطول وحبها يزيد ، وهى لا تطيع ألبتة ، إلى أن حملنى فرط حبى لها مع عمىً الصبا على أن نذرتُ أنى متى نلت منها مرادى أنْ أتوب إلى الله توبة صادقة . قال : فما مرّت الأيام والليالى حتى أذعنت بعد شماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيت بعهدك ؟ فقال . أى والله ، فضحكت .

وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول فى أسماعنا ، من أن فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا ، يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله ، فلا يُمنع من ذلك . وينكرون على من تعرّض له بكلمة ، ويقولون له : أتحرم رجلاً مسلماً التوبة .

قال : ولعهدى بها تبكى وتقول : والله لقد بلغتنى مبلغاً ما خطر قط لى ببال ، ولا قدرت أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ، غلطاً بعيداً ، والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من

الرجال من لا يداخل أهل الفسوق . ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدّى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات ، والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة فى الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأنْ تُحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .

وأمّا امرأة مهملة ، ورجل متعرض ، فقد هلكا وتلفا . ولهذا حَرُمَ على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تأمّل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر » . وإن فيما ورد من النهى عن الهوى بنص التنزيل لشيئاً مقنعاً . وفى ايقاع هذه الكلمة ، أعنى الهوى . اسماً على معان . واشتقاقها عند العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويتها إلى هذه المقامات . وإن المتمسك عنها مقارع لنفسه ، ومحارب لها .

وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حسها ، إلاّ وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ، مخالفيْن لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها ، وهيئة تقبلها ، لائحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لا خفاء به .

والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء .

وأمّا إظهار الزينة ، وترتيب المشى ، وإيقاع المزاح عندخطور المرأة بالرجل ، واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان ، والله عز وجل يقول : « قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُروجَهُمْ » [(١)] وقال تقدست أسماؤه : « ولاَ يَضْرِبْنَ بأرجُلِهِنَّ ليعلمَ ما يخفينَ من زِينَتِهِنّ » [(٢)] . فلو لا علم الله عز وجل برقة إغماضهن فى السعى لإيصال حبّهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن فى التحيّل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض ، الذى ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرُّض فكيف بما دونه .

ولقد أُطلعت من سر معتقد الرجال والنساء فى هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظنا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة رُكِّبت فِيَّ .

وحدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا أحمد ، حدثنا أحمد بن على ابن رفاعه ، حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سـلام عن شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الغيرة من الايمان » . فلم أزل باحثاً

(١) سورة النور ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة النور ، الآية ٣١ .

عن أخبارهن ، كاشفاً عن اسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبهاً على عورات يُستعاذ بالله منها ، لأوردت من تنبههن فى الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تذهل الألباب .

وإنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا ، يعلم الله وكفى به عليماً ، أنى برىء الساحة سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجزة ، وأنى أقسم بالله أجل الإقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضى أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحّاف المعافرى ، وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى ، عن القاضى بمصر بكر بن العلاء ، فى قول الله عز وجل : « وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »[1] ، أن لبعض المتقدمين فيه قولا ، وهو أنّ المسلم يكون مخبراً عن نفسه ، بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه ، التى هى من أعظم النعم ، ولا سيما فى المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه .

وكان السبب فيما ذكرته . أنى كنت وقت تأجج نار الصبا ، وشرة الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة ، مقصورا محظرا علىّ بين

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

رقباء ورقائب ، فلما ملكتُ نفسى وعقلت ، صحبتُ أبا على الحسين بن على الفاسى ، فى مجلس أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى ، شيخنا وأستاذى رضى اللّه عنه ، وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالماً ، ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً ، لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً ودينا وورعاً فنفعنى اللّه به كثيراً ، وعلمت موقع الإساءة ، وقبح المعاصى ، ومات أبو على رحمة اللّه فى طريق الحج .

وقد ضمنى المبيت ليلة ، فى بعض الأزمان ، عند امرأة من بعض معارفى ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها ، من اللاتى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خريدةٌ صاغَهـــا الرحمنُ من نـُور
جلّتْ ملاحتُهــــاَ عن كـــلّ تَقْديرِ

لو جاءني عملي في حُسْنِ صورتها
يومَ الحسابِ ويومَ النفْخ في الصُّور
لكنتُ أحظىَ عبادِ الله كلِّهمُ
بالجنتيْنِ وقُربِ الخرّدِ الحور

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وقد طبّق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية . فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسيّ الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار ، خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان . ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدّى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل ، وفي ذلك أقول :

لاتُتْبعِ النفسَ الهوىَ ودعِ التعرُّضَ للمِحنْ
إبليسُ حيٌّ لم يَمُتْ والعينُ بابٌ للفِتَنْ

وأقول :

وقائلٍ ليَ هذا ظنٌّ يزيدك غَيًّا
فقلتُ دعْ عنك لومي أليسَ إبليسُ حيًّا

وما أوردَ اللّه تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب ، وداود بن إيشى رسل اللّه عليهم السلام ، إلاّ ليعلمنا نقصاننا وفاقتنا إلى عصمته ، وأنّ بنيتنا مدخولة ضعيفة ، فإذا كانا صلى اللّه عليهما ، وهما نبيان رسولان ، أبناء أنبياء رسل ، ومن أهل بيت نبوّة ورسالة، متكررين فى الحفظ ، مغموسين فى الولاية ، محفوفين بالكلاءة ، مؤيدين بالعصمة ، لا يجعل للشيطان عليهما سبيل ، ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق ، وبلغا حيث نصّ اللّه عز وجل علينا فى قرآنه المنزل ، بالجبلة الموكلة ، والطبع البشرى ، والخلقة الأصيلة ، لا يتعمد الخطيئة ولا القصد إليها ، إذ النبيون مبرءون من كل ما خالف طاعة اللّه عز وجل ، لكنه استحسان طبيعى فى النفس للصور ، فمن ذا الذى يصف نفسه بملكها ، ويتعاطى ضبطها ، إلا بحول اللّه وقوته .

وأول دم سفك فى الأرض فدم أحد ابنى آدم على سبب المنافسة فى النســاء ، ورســـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقـول : « باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء » وهذه امرأة من العرب تقول ، وقد حبلت من ذى قرابة لها ، حين سئلت : ما ببطنك يا هند ؟ فقالت: قرب الوساد وطول السواد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلُمْ مَن عرَّضَ النفْسَ لما ليس يَرْضَى غيرُهُ عند المِحَنْ

لا تُقَرِّبْ عَرْفَجاً من لَهبٍ   ومتى قرَّبْتَهُ قامتْ دُخَنْ
لا تُصرِّفْ ثقةً فى أحدٍ   فَسَدَ الناسُ جميعاً والزمَنْ
خلقَ النِّسْوانُ للفحلِ كما   خُلِقَ الفحلُ بلا شكٍّ لَهنْ
كلُّ شكلٍ يتشهَّى شكلَه   لا تكُنْ عنْ أحدٍ تنْفِى الظِّنَنْ
صفةُ الصالحِ مَن إنْ صُنْتَهُ   عن قبيحٍ أظْهرَ الطوعَ الحسَنْ
وسواهُ مَن إذا ثقَّفْتَه   اعملَ الحيلةَ فى خَلْعِ الرسَنْ

وإنى لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له ، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب ، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التربّص فلم يأته . فلما كان بعد ذلك ، اجتمع به داعية فعدّد عليه ، وأطال لومه على إخلافه موعده ، فاعتذر ووری . فقلت أنا للذى دعاه : أنا أكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول : « ما أخْلَفْنَا موْعدكَ بملكنا ولكنّا حُمِّلْنَا أوْزاراً من زِينَةِ القومِ »(١) ، فضحك من حضر . وكُلّفتُ أن أقول فى ذلك شيئاً فقلت :

وجرحُكَ لى جُرْحٌ جُبَارٌ فلا تَلُمْ
ولكنَّ جُرْحَ الحبِّ غيرُ جُبَارِ

---

(١) سورة طه ، الآية ٨٧ .

وقد صارتِ الخيلانُ وَسْطَ بياضِهِ

كَنيلُوفَرٍ حَفَّتْهُ روضُ بَهارِ

وكم قال لى من مُتُّ وَجْداً بحبِّهِ

مقالةَ مَحْلولِ المقالةِ زارى

وقد كثُرتْ منِّى إليه مطالبٌ

أُلِحُّ عليه تارةً وأُدارى

أما فى التوانى ما يبرِّد غُلَّةً

ويُذْهِبُ شَوْقاً فى ضلوعِك سارى

فقلتُ له لَو كانَ ذلك لم تكنْ

عداوةُ جارٍ فى الأنامِ لجارِ

وقد تَتَراءَى العَسْكَرانِ لدى الوغَى

وبينهما للموتِ سُبْلُ بوار

ولى كلمتان قلتهما معرِّضاً ، بل مصرِّحاً ، برجل من أصحابنا كنا نعرفه كلنا ، من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل ، واقتفاء آثار النساك ، وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء ، باحثاً مجتهداً ، وقد كنا نتجنب المزاح بحضرته ، فلم يمض الزمن حتى مكّن الشيطان من نفسه ، وفتك بعد لباس النسّاك ، وملك إبليس من

خطامه فسوّل له الغرور ، وزيّن له الويل والثبور ، وأجرّه رسنه بعد إباء ، وأعطاه ناصيته بعد شماس ، فخبّ في طاعته وأوضع ، واشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة ، ولقد أطلت ملامه ، وتشددت في عذله ، إذ أعلن بالمعصية بعد استتار ، إلى أت أفسده ذلك ضميره عليّ ، وخبثت نيته لي ، وتربّص بي دوائر السوء ، وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجراراً إليه، فيأنس به ، ويظهر له عداوتي ، إلى أنْ أظهر اللّه سريرته ، فعلمها البادي والحاضر ، وسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ، ومنتاباً للفضلاء ، ورذل عند إخوانه جملة . أعاذنا اللّه من البلاء ، وسترنا في كفايته ، ولا سلبنا ما بنا من نعمته ، فياسوءتاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم أن الخذلان يحل به ، وأن العصمة ستفارقه ، لا إله إلا اللّه ، ما أشنع هذا وأفظعه . لقد دهمته إحدى بنات الحرس ، وألقت عصاها به أم طبق ، من كان للّه أولا ثم صار للشيطان آخرا .

ومن إحدى الكلمتين :

أمّا الغلامُ فقــد حــانتْ فضيحَتُهُ

وإنّه كــان مَستوراً فقــد هُتكا

مازالَ يضحـك من أهْلِ الهوَى عجباً

فالآنَ كلُّ جهـولٍ منه قد ضَحِكا

إليـكَ لا تَلْحُ صبّاً هائمـــاً كَلِفـاً

يرى التهتُّكَ في دين الهوَى نسُكا

قد كان دهراً يُعـاني النُسْكَ مجتهداً

يُعَدُّ في نُسْكِهِ كلُّ امرئٍ نُسُكـاً

ذو مَخْبَرٍ وكتـــــابٍ لا يُفـــارقه

نحوَ المحدِّثِ يسعىَ حيثُ ما سلَكا

فاعتـاضَ مِن سُمْرِ أقـلامٍ بَنانَ فتًى

كـأنَّهُ مِن لُجَيْنٍ صِيغ أو سُبِكـا

يا لائمي سَفَهاً في ذاكَ قِـــلٌ فـلم

تَشْهَدْ جبِيَنْينِ يومِ الملتقَى اشْتَبَكَا

دَعْنـِي و وِرْدِيَ في الآبـــارِ أطْلُبهُ

إليكَ عنيٌ كـذا لا أبتغي البِرَكـا

إذا تعفَّفْتَ عفَّ الحـبُّ عنـــكَ وإنْ

تركْتَ يومـاً فإنَّ الحبَّ قد تَركا

ولا تحـــلُّ من الهجــرانِ مُنْعقــداً
إلاَّ إذا مـا حلَّلتَ الأزْرَ والتِكَكـا
ولا تُصحِّــحُ للســــلطانِ مملكـــةً
أو تدخُلُ البرْدُ عن إنفاذِهِ السِكَكا
ولا بغيرِ كثيرِ المسْـــحِ يـــذهبُ مـا
يعلُو الحديدَ من الأصداءِ إن سُبِكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكاماً جيداً، واختصر كتاب الأنبارى فى « الوقف والابتداء » [1] اختصاراً حسناً ، أعجب به من رآه من المقرئين ، وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده ، والمتولى لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين ، مثابراً على النسخ مجتهداً به . فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً به ، وباع أكثر كتبه ، واستحال استحالة كلية ، نعوذ بالله من الخذلان ، وقلت فيه كلمة ، وهى التالية للكلمة التى ذكرت منها فى أول خبره ، ثم تركتها .

---

(١) القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، المتوفى عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦م ، من أهل الأنبار ، سكن بغداد ، ووقف نفسه على العلم ، وعرف بالأدب والأخبـار ، ولدينا من مؤلفاته : شرح المفضليات ، وخلق الإنسان ، والأمثال ، وغريب الحديث ، وشرح القصائد السبع الطوال .

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى (١) فى كتاب « اللفظ والإصلاح » : أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة ، مع علو طبقته فى الكلام ، وتمكنه وتحكمه فى المعرفة ، تسبَّب إلى ما حرَّم الله عليه من فتى نصرانى عشقه ، بأن وضع له كتاباً فى تفضيل التثليث على التوحيد . فياغوثاه ! عياذك يارب من تولُّج الشيطان ، ووقوع الخذلان .

وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، كمثل مادهم عبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الجزيرى ، فإنه رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً فى الحصول على بغيته من فتى كان عقله . نعوذ بالله من الضلال ، ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا ، وإطابة أخبارنا، حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمر به المحافل ، وتصاغ فيه الاشعار ، وهو الذى تسميه العرب الديوث . وهو مشتق من التدييث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعير مديث ، أى مذلل . ولعمرى إن الغيرة

---

(١) أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، كان معتزلياً ، ثم صار شيعياً ، ثم تغير إلى الإلحاد ، وله مؤلفات تمثل ذلك الاضطراب الذى عاش فيه ، وتوفى عام ٣٠٢ هـ = ٩١٦ م .

لتوجد فى الحيوان بالخلقة ، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مصاب .

ولقد كنت أعرف هذا المذكور مستوراً إلى أن استهواه الشيطان، ونعوذ بالله من الخذلان .

وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الخولانى (١) :

ياجاعلاً إخـراج حُرٌ نسـائه

شَرَكاً لصيْدِ جاذرِ الغـزْ لاَن

إنِّى أرَى شـرَكاً يُمزَّقُ ثـم لا

تَحْظَى بغيرِ مذلَّةِ الحـرْمان

وأقول أنا أيضاً :

أباحَ أبو مَرْوانَ حُرَّ نسـائهِ

ليبلُغَ ما يهوَى من الرشَأ الفَرْدِ

فعاتَبْتُهُ الديُّوثَ فى قُبْح فعلـهِ

فأنشدنِى إنشادَ مُسْتَبصِرٍ جلْدِ

لقد كُنتُ أدركْتُ المنَى غَيْر أنَّنِى

يُعَيِّرنِى قومِي بإدراكِها وحْدِى

(١) لم أهتد له إلى ترجمة له فيما وقفت عليه من مصادر .

وأقول أيضا :

رأيتُ الجزيــرىَّ فيمــا يُهانِى
قليلَ الرشــادِ كثيرَ السـفَاهِ
يبيعُ ويبتـاعُ عِرْضاً بِعَـرضٍ
أمورٌ وجــدُّكَ ذاتُ اشـتباهِ
ويأخذُ ميمــاً بإعطـاءِ هـــاءِ
ألاَ هكــذا فليكنْ ذُو النـواهِـي
ويبدلُ أرضـــاً تُغذِّى النبــاتَ
بأرضٍ تُحَفُّ بشـوْكِ العِضاَهِ
لقد خـابَ فى تَجْرِهِ ذو ابتياعِ
مَهَبُّ الرياحِ بمجْـرَى الميــاهِ

ولقد سمعته فى المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة ، كما يُستعاذ به من الخذلان .

ومما يشبه هذا أنى أذكر أنى كنت فى مجلس فيه إخوان لنا ، عند بعض مياسير ، أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً ، من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته ، وغمزاً استبشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ، وصاحب المجلس

كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه ، وحـــركته بالتصريح فلم يتحرك ، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن . وهما هذان :

إنَّ إخــــوانَهُ المقيـمينَ بالأمْـ
س أتــوْا للــزناءِ لا للْغنِــاءِ
قطعوا أمـــرَهُمْ وأنتَ حمـــارٌ
مــوقَرٌ مـِن بــــلادَةٍ وغبـاء

وأكثرت من إنشادهن حتى قال لى صاحب المجلس : قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما ، فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هو أم متغافل ، وما أذكر أنى عدت إلى ذلك المجلس بعدها .

وقلت فيه قطعة منها :

أنتَ لا شكَّ أحسـنُ النـاسِ ظنّا
ويقينــــاً ونيَّـــــةً وضميـراً
فانتبهْ إنَّ بعضَ مَنْ كان بالأمـ
سِ جليســـاً لنا يُعانى كبيراً
ليسَ كلُّ الركوعِ فاعلم صـــلاةً
لاَ ولاَ كلُّ ذىِ لحاظٍ بصيــراً

وحدثني ثعلب بن موسى الكلاداني قال : حدثني سليمان بن أحمد الشاعر (١) قال : حدثتني امرأة اسمها هند كنت رأيتها في المشرق ، وكانت قد حجّت خمس حجّات ، وهي من المتعبّدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لي : يا ابن أخي ، لا تحسن الظن بامرأة قط ، فإني أخبرك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل : ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا ، وأنا خامسة نسوة كلهن قد حججن ، وصرنا في مركب في بحر القلزم ، وفي بعض ملاحي السفينة رجل مضمر الخلق ، مديد القامة ، واسع الأكتاف ، حسن التركيب ، فرأيته أول ليلة قد أتى إلى إحدى صواحبي فوضع إحليله في يدها وكان ضخماً جداً ، فأمكنته في الوقت من نفسها . ثم مر عليهن كلهن في ليال متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تعني نفسها ، قالت : فقلت في نفسي : لا نتقمن منك ، فأخذت موسى وأمسكتها بيدي ، فأتى في الليل على جاري عادته ، فلما فعل كفعله في سائر الليالي سقطت الموسى عليه فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له ، وقد أمسكته ، لا زلتَ أو آخذ نصيبي منك . قالت العجوز : فقضى وطره وأستغفر الله .

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكتابة لعجبا ، ومن بعض ذلك قولي حيث أقول :

---

(١) لم أجد فيما بين يدي من مصادر ترجمة لثعلب بن موسى ، أما سليمان بن أحمد الشاعر ، فقد عرض لنا من قبل مرتين وعرفنا به .

أتاني وماءُ المُزْنِ في الجوِّ يسفكُ
كمحضِ لُجَيْن إذ يمدُّ ويُسْبكُ

هلالُ الدياجي انحطَّ من جوِّ أُفْقه
فَقُلْ في محبٍّ نالَ ما ليس يُدْرَك

وكان الذى إنْ كُنتَ لي عنهُ سائلاً
فمالِي جوابٌ غَيْرَ أنِّيَ أضْحكُ

لفرطِ سروري خِلْتُني عنه نائماً
فيا عجباً مِن مُوقنٍ يَتَشكَّك

وأقول أيضاً قطعة منها :

أَتَيْتني وهلالُ الجوِّ مُطَّلِعٌ
قُبَيْلَ قَرْعِ النصارَى للنواقيسِ

كحاجبِ الشيخ عمَّ الشيْبُ أكثَرهُ
وأَخْمص الرِّجْلِ في لُطْفٍ وتَقْويس

ولاحَ في الأفْقِ قوسُ الله مكتسياً
مِن كلِّ لونٍ كأذنابِ الطواويس

وإنّ فيما يبدو إلينا من تعادى المتواصلين فى غير ذات الله تعالى بعد الألفة ، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ،

وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم فى صدورهم ، لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولا سليمة ، وآراء نافذة ، وعزائم صحيحة ، فكيف بما أعدّ الله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفى دار الجزاء ، ومن الكشف على رءوس الخلائق ، «يَوْمَ تروْنَها تذهلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهاَ ، وترَى الناسَ سكارَى وما هُمْ بِسكَارَى ، ولكنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد »(١) . جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته .

ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاماً عن الأعراض فى الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كُدر القطا وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبى عامر (٢) ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش فى الحجر .

ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم،

---

(١) سورة الحج ، الآية ٢

(٢) ابن المظفر عبد الملك ، وحفيد المنصور بن أبى عامر .

وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ؛ وما لا يتولد مثله عن النحول والتراث ، وقتل الآباء وسبى الأمهات . وتلك عادة الله فى أهل الفسق ، القاصدين سواه ، الآمّين غيره ، وذلك قوله عز وجل : « ياليتنى لم أتخذْ فلاناً خليلاً ، لقد أضلَّنِى عن الذكْرِ بعـد إذْ جآءَنِى »(١) .

فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى ، فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور (٢) ، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر (٣) ، فلما أُسِرَ هشام وقتل ،

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢٨ .

(٢) ليست لدينا أية معلومات عن خلف مولى يوسف هذا .

(٣) أحداث الخلافة الأموية فى الأندلس عشية سقوطها كثيرة ومتشابكة ، ولا يجدى معها تعريف موجز ، لقد وثب المهدى : محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر على الخلافة ، وأسقط دولة العامريين ، ثم زاحمه فيها سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين ، وحاول هشام بن سليمان الملقب بالرشيد أن ينتزعها لنفسه ، والواقعة التى يشير إليها ابن حزم هنا ، كانت بين هشام بن سليمان الرشيد ، وبين محمد المهدى ، وحدثت فى شوال ٣٩٩ هـ = يونية ١٠٠٩ م ، وكانت الدائرة فيها على الرشيد ، فقد ظفر به المهدى وقتله .

وهرب الذين وازروه ، فَرّ خلف فى جملتهم ونجا . فلما أتى القسطلات (١) لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة ، فكرّ راجعاً ، فظفر به أمير المؤمنين المهدى ، فأمر بصلبه . فلعهدى به مصلوباً فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل .

ولقد أخبرنى أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث (٢) رحمة الله ، أن سبب هروبه إلى محلة البرابر ، أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية يكلف بها ، تصيّرت عند بعض مَن كان فى تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف فى تلك السفرة .

وهذان الفصلان وإنْ لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذى يستوى فى فهمه العالم والجاهل ، فكيف من العصمة التى لا يفهمها من ضعفت بصيرته . ولا يقولن امرؤ : خلوتُ ، فهو وإنْ انفرد فبمرأى ومسمع عن علاّم الغيوب الذى « يعلَم خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصدُورُ » (٣) . و « يَعْلَمُ السرَّ وأَخْفَى » (٤) و « ما يكونُ مِن نَجْوَى

(١) لم تمر علىّ فى مكان آخر من المصادر الأندلسية التى بين يدى ، ومن ثم لم أستطع تحديد موقعها ، ولعل تحريفاً أصاب اللفظ عند كتابته .

(٢) من بني الليث ، أسرة قرطبية قديمة من أصل بربرى ، من زناتة ، كان يشغل الكثير من أفرادها عدداً من المناصب الهامة ، خلال الدولة الأموية .

(٣) سورة غافر ، الآية ١٩ .

(٤) سورة طه ، الآية ٧ .

ثلاثة إلاّ هو رابِعُهُمْ ، ولا خَمْسةٍ إلاّ هو سَادِسُهُمْ ، ولا أدْنَى من ذلك ولا أكْثَر إلاّ هو مَعَهُم ، أينمـــا كانوا (١) ، وهـو « عليمٌ بذات الصـدور » . وهو« عالم الغيب والشهادة » ، « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » . (٢) . وقال : « ولقد خَلَقْنا الإنسانَ ونعلمُ ماتُوَسْوِسُ به نفسُه ، ونحنُ أقربُ إليهِ مِن حبلِ الوريدِ . إذْ يَتلقَّى المُتَلقِّيَانِ عنِ اليمينِ وعنِ الشمالِ قَعِيدٌ ، مايَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتيد » (٣) .

وليعلم المستخف بالمعاصى ، المتكل على التسويف ، المعرض عن طاعة ربه ، أن إبليس كان فى الجنة مع الملائكة المقربين ، فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد ، وعذاب الخلد ، وصيِّر شيطاناً رجيماً ، وأُبعِدَ عن رفيع المكان ، وهذا آدم صلى الله عليه وسلم ، بذنب واحد أخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها . ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين .

أفترى هذا المغتر بالله ربه ، وبإملائه ليزداد إثماً ، يظن أنّه أكرم على خالقه من أبيه آدم ، الذى خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته ، الذين هم أفضل خلقه عنده ؟ أو عقابه أعز عليه من عقوبته إياه ؟ . كلا ، ولكن استعذاب التمنِّى ، واستيطاء

(١) سورة المجادلة ، الآية ٧ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٨ .
(٣) سورة ق ، الآيات : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

مركب العجز ، وسخف الرأى ، قائدة أصحابها إلى الوبال والخزى ، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نَهْيِ الله تعالى ، ولا حام من غليظ عقابه ، لكان فى قبيح الأحدوثة عن صاحبه ، وعظيم الظلم الواقع فى نفس فاعله ، أعظم مانع ، وأشد رادع ، لمن نظر بعين الحقيقة ، واتبع سبيل الرشد ، فكيف والله عز وجل يقول : « ولا يَقْتلُونَ النفْسَ التى حرَّمَ اللّهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يَزْنونَ ، ومَنْ يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أثَاماً ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً »[1] .

وحدثنا الهمذانى ، فى مسجد القمرى[2] ، بالجانب الغربى من قرطبة ، سنة إحدى وأربعمائه : حدثنا ابن سيبويه ، وأبو إسحاق البلخى ، بخراسان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ، قالا : حدّثنا محمد بن يوسف : حدّثنا محمد بن إسماعيل : حدّثنا قتيبة بن سعيد : حدّثنا جرير عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد الله وهو ابن مسعود : قال رجل : « يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ . قال : أن تدعو لله ندًا وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم

---

(١) سورة الفرقان ، الآيتان ٦٨ و ٦٩ .

(٢) لا يوجد فى مساجد قرطبة مسجد يحمل اسم « مسجد القمرى » ، ونظن أنها تصحيف عن كلمة « العمرى » وكان فى قرطبة مسجد يحمل هذا الاسم .

أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » فأنزل اللّه تصديقها : « والذينَ لا يَدْعونَ مع اللّه إلهاً آخرَ ، ولا يَقْتلونَ النفس التى حرَّمَ اللّهُ إلاَّ بالحقِّ ، ولاَ يزنونَ » [1] . وقال عز وجل : « الزانيةُ والزانِى فاجْلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلْدة ، ولا تأخُذْكُمْ بهما رأْفَةٌ فِى دينِ اللّهِ ، إنْ كُنتمْ تُؤمِنُونَ باللّهِ » [2] .

حدثنا الهمدانى ، عن أبى إسحاق البلخى ، وابن سيبويه ، عن محمد بن يوسف ، عن محمد بن إسماعيل ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيب المخزوميين ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل ، عن يحيى بن بكير ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة ، وسعيد بن المسيب ، فقال : « يا رسول اللّه : إنى زنيت ، فأعرض عنه ، ثم ردّ عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال فهل أحصنت قال : نعم . فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم : اذهبوا به فارجموه » .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٣ .
(٢) سورة النور ، الآية الثانية .

قال ابن شهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبدالله قال : كنت فيمن رجمه ، فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب ، فأدركناه بالحرة (١) فرجمناه .

حدثنا أبو سعيد ، مولى الحاجب جعفر ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، عن أبى بكر المقرىء ، عن أبى جعفر النحاس ، عن سعيد ابن بشر ، عن عمرو بن رافع ، عن منصور ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلْد مائة ، وتغريب سنة ، والثيّب بالثيّب جلّد مائة والرجم » .

فيا لشنعة ذنب أنزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه ، والعنف بفاعله ، والتشديد لمقترفه . وتشدّد فى ألاّ يرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبة رجمه ، وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا ينقضه إلاّ ملحد ، أنّ الزانى المحصن عليه الرجم حتى يموت .

فيا لها قتلة ما أهولها ، وعقوبة ما أفظعها ، وأشد عذابها ، وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت .

---

(١) الحرة : موضع قريب من المدينة

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبى الحسن ، وابن راهوية ، وداود وأصحابه [1] ، يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبفعل على رضى الله عنه ، بأنه رجم امرأة محصنة فى الزنا بعد أن جلدها مائة ، وقال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله . والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعى ، لأن زيادة العدل فى الحديث مقبولة .

وقد صح فى أجماع الأمة المنقول بالكافة ، الذى يصحبه العمل عند كل فرقة ، وفى أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة ، حاشى

---

(١) الحسن بن أبى الحسن يسار ، مولى زيد بن ثابت ، نشأ بالمدينة ، وحفظ القرآن ، ولازم الجهاد والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين ، حدث عن كثير من الصحابة ، وكان ثقة حجة مأمونا ، ناسكاً واسـع العلم ، توفى ١١٠ هـ = ٧٢٨ م .

● إسحق بن إبراهيم بن راهويه ، فقيه شافعى ، صاحب كتاب « الجامع الكبير » ، وأستاذ داود الظاهرى ، توفى عام ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م .

● أبو سليمان ، داود بن على بن خلف الأصبهانى ، المعروف بالظاهرى ، ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ هـ = ٨١٥ م ، وكان فى بدء حياته أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعى ، وصنف فى فضائله كتابين ، وإليه انتهت رياسة العلم فى بغداد ، ثم انتحل لنفسه مذهباً خاصاً ، أساسه العمل بظاهر الكتاب والسنة ، ما لم يدل دليل منهما ، أو من الإجماع ، على أنه يراد به غير الظاهر ، فإن لم يوجد نص عمل بالإجماع ، ورفض القياس رفضاً باتاً . وله فى تفسير مذهبه والدفاع عنه مصنفات كثيرة ، وتوفى ٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م .

طائفة يسيرة من الخوارج لا يعتد بهم ، أنه لا يحل دم امرىء مسلم إلا بكفر بعد إيمان ، أو نفس بنفس ، أو بمحاربة لله ورسوله ، يشهر فيها سيفه ، ويسعى فى الأرض فساداً مقبلا غير مدبر ، وبالزنا بعد الإحصان . فإن حدّ ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته ، وقطع حجته فى الأرض ، ومنابذته دينه ، لجرم كبير ، ومعصية شنعاء ، والله تعالى يقول : « إنْ تجتنبوا كبائِر ما تُنْهَوْنَ عنهُ نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم » [1] ، و « الذين يَجْتنبونَ كبائِر الإثْمِ والفواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ إنّ ربَّك وَاسعُ المغفرةِ » [2] ، وإن كان أهل العلم اختلفوا فى تسميتها ، فكلهم مجمع ، مهما اختلفوا فيه منها ، أن الزنا يقدم فيها ، لا اختلاف بينهم فى ذلك ، ولم يوعد الله عز وجل فى كتابه بالنار بعد الشرك إلاّ فى سبع ذنوب ، وهى الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوصاً ذلك كله فى كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا فى الذنوب الأربعة التى تقدم ذكرها ، فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتداً قُبِلَ منه ، ودرىء عنه الموت . وأما القتل فإن قبل الولىّ الدية فى قول بعض الفقهاء ، أو عفا فى

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

قول جميعهم ، سقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد فى الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقْدر عليه هُدِر عنه القتل ، ولا سبيل فى قول أحد مؤالف أو مخالف فى ترك رجم المحصن ، ولا وجه لرفع الموت عنه ألبتة .

ومما يدل على شنعة الزنا ما حدّثنا القاضى أبو عبد الرحمن : حدّثنا القاضى أبو عيسى ، عن عبيد الله بن يحيى ، عن أبيه يحيى بن يحيى ، عن الليث ، عن الزهرى ، عن القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب فى زمانه ناساً من هذيل ، فخرجت جارية منهم ، فأتبعها رجل يريدها عن نفسها ، فرمته بحجر فقضت كبده ، فقال عمر : هذا قتيل الله ، والله لا يودى أبداً .

وما جعـــل الله عز وجل فيه أربعـــة شـهود ، وفى كل حكم شـاهدين ، إلاّ حياطة منه ألاّ تشيع الفاحشة فى عباده ، لعظمها وشنعتها وقبحها ، وكيف لا تكون شنيعة ، ومن قذف بها أخاه المسلم ، أو أخته المسلمة ، دون صحة علم أو تيقن معرفة ، فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تضرب بشرته ثمانين سوطاً .

ومالك رضى الله عنه يرى ألا يؤخذ فى شىء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلاّ فى قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه أمر أن يجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزان ولا أمّى بزانية فى حديث طويل .

وبإجماع من الأمة كلها ، دون خلاف من أحد نعلمه ، أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو يا قاتل النفس التى حرم الله ، لما وجب عليه حد ، احتياطاً من الله عز وجل ألاّ يثبت هذه العظيمة فى مسلم ولا مسلمة .

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً ، أنه لا حد فى الإسلام إلاّ والقتل يغنى عنه وينسخه إلاّ حد القذف ، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل . قال الله تعالى : « والذينَ يَرمُون المُحصنَاتِ ثمَّ لم يأتوا بأربعة شُهداءَ فاجلِدوهُمْ ثمانينَ جلْدةً ولا تَقْبلوا لهمْ شهادةً أبداً ، وأولئكَ هُم الفاسقونَ ، إلاَّ الذين تابوا » (١) . وقال تعالى : « إنَّ الذينَ يَرمون المُحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعنُوا فى الدنيا والآخرة ولهمْ عذابٌ عظيم » (٢) . وروىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الغضب واللعنة المذكوران في اللعان إنهما مُوجبتان » .

---

(١) سورة النور ، الآية ٤ و ٥ . (٢) سورة النور ، الآية ٢٣ .

حدثنا الهمدانى ، عن أبى إسحاق ، عن محمد بن يوسف ، عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : حدّثنا سليمان ، عن ثور بن يزيد ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، وأكْل الربا ، وأكْلُ مال اليتيم ، والتولّى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وإنّ فى الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذى عظم الله أمره ، مالا يهون على ذى عقل ، أو من له أقل خلاق ! ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف الله عن البكرين ، وشدّد على المحصنين . وهذا عندنا ، وفى جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل ، حكما باقياً لم ينسخ ولا أزيل ، فيترك الناظر لعباده الذى لم يشغله عظيم ما فى خلقه ، ولا يحيف قدرته كبير ما فى عوالمه ، عن النظر لحقير ما فيها ، فهو كما قال عز وجل : « الحَيُّ القيُّومُ لا تأْخُذُه سِنةٌ ولاَنَوْم » (١) . وقال : « يَعْلَمُ ما يَلِجُ فى الأرضِ وما يَخْرُج منها وما يَنْزِلُ من السماءِ وما يَعْرجُ فيها » (٢) . وقال : « عالم الغيب لاَ يعزبُ عنه مِثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض » (٣) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .
(٢) سورة سبأ ، الآية ٢ .
(٣) سورة سبأ ، الآية ٣ .

وإن أعظم ما يأتى به العبد هتك ستر الله عز وجل فى عباده .

وقد جاء فى حُكْم أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فى ضربه الرجل الذى ضم صبيًّا حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنيّة . ومن إعجاب مالك رحمة الله باجتهاد الأمير الذى ضرب صبياً مكنّ رجلاً من تقبيله حتى أمنى الرجل ، ضربه إلى أن مات ، ما ينسى شدة دواعى هذا الشأن وأسبابه . والتزيّد فى الاجتهاد ، وإن كنا لا نراه، فهو قول كثير من العلماء ، يتبعه على ذلك عالم من الناس .

وأما الذى نذهب إليه فالذى حدثناه الهمدانى ، عن البلخى ، عن الفريرى ، عن البخارى قال : حدّثنا يحيى بن سليمان ، حدّثنا ابن وهب قال : أخبرنى عمرو أنّ بكيراً حدّثه عن سليمان بن يسار ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه عن أبى بردة الأنصارى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يُجْلَد فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود الله عز وجل » . وبه يقول أبو جعفر محمد بن على النسائى الشافعى رحمة الله .

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيع ، قال الله تعالى : « أَتَأْتونَ الفاحشَةَ ما سَبَقَكُمْ بها مِن أحدٍ مِن العالمينَ » (١) . وقد قذف الله فاعلية بحجارة من طين مُسَوَّمة . ومالك رحمه الله يرى علَى الفاعل والمفعول به الرجم أحصنا أو لم يحصنا ، واحتج بعض المالكية فى

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٨٠ .

ذلك بأن الله عز وجل يقول فى رجمه فاعلية بالحجارة : « وما هى من الظالمين ببعيد » [1] فوجب بهذا أنه من ظلم الآن بمثل فعلهم قريبت منه ، والخلاف فى هذه المسألة ليس هذا موضعه .

وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السرى [2] أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق فيه بالنار . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى [3] اسم المحروق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدى [4] ، أحرقه بالنار أبو بكر الصديق ، لأنه يؤتى فى دبره كما تؤتى المرأة .

وإنّ عن المعاصى لمذاهب للعقل واسعة ، فما حرّم الله شيئاً إلا وقد عوّض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

---

(١) سورة هود ، الآية ٨٣ .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم السرى ، المعروف بالزجاج ، العالم اللغوى والنحوى الشهير ، تلميذ المبرد ، توفى عن ثمانين عاما تقريباً ، سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .

(٣) أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ولد فى البصرة لأبوين يهوديين عام ١١٠ هـ = ٧٢٨ م ، وكان تلميذاً للعالم الجليل أبى عمرو بن العلاء ، وعرف بميوله الخارجية والشعوبية ، وألف فى النحو واللغة والأمثال ، وله كتاب فى مثالب العرب ، وآخر فى « أيام العرب » ، كان مصدراً رئيسياً لأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » ، ولابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » ، وتوفى فى البصرة عام ٢٠٩ هـ = ٨٢٥ م .

(٤) شجاع بن ورقاء الأسدى : لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من المصادر.

وأقول فى النهى عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقـــولُ لنفســِي ما مُبِينٌ كحـــالكٍ
وما الناسُ إلاّ هـــالكٌ وابن هالكِ

صُنِ النفسَ عمَّا عابَها وارفُضِ الهوَى
فإنَّ الهوَى مفتــاحُ بابِ المهالك

رأيتُ الهوَى سَهْلَ المبــادِى لذيــذَهَا
وعُقباهُ مُرُّ الطعمِ ضَنْكُ المســالك

فما لذةُ الإنسانِ والمـــوتُ بعـــدَها
ولو عاش ضِعْفَيْ عُمْرِ نوح بن لامِك

فلا تَتَّبِـــعْ داراً قليـــلاً لباثُهَـــا
فقد أنذرَتْنَا بالفنـــاءِ المُواشِـك

وما تـــرْكُهَا إلاَّ إذَا هِـــىَ أمْكنَـــتْ
وكم تاركٍ إضمـــارُهُ غيرُ تارك

فما تاركُ الآمالِ عُجْبـــاً جُـــؤاذِراً
كتاركِها ذاتِ الضروُعِ الحـواشِك

وما قابِلُ الأمرَ الذى كـــان راغبـــاً
بشهوةِ مُشْتـــاقٍ وعقلِ مُبـــارَك

لأجْدَى عبـــادَ اللّهِ بالفـــوزِ عِنــدَهُ

لدى جَنَّةِ الفِرْدوْسِ فوقَ الأرائك

ومن عرفَ الأمــــرَ الذى هو طـــالِبٌ

رأى سبباً ما فى يَـدىْ كلٍّ مالك

ومن عرفَ الـرحمنَ لم يعصِ أمـــرَهُ

ولو أنَّهُ يُعْطَى جميعَ الممـــالك

سبيلُ التُّقى والنُسـك خيْرُ المســالكِ

وســالكُها مُسْتبصرٌ خيرُ سالك

فما فقد التنغيص من عـاج دُونـهـا

ولا طاب عيشٌ لامرىء غيرِ ماسك

وطوبى لأقـــوامٍ يؤمـــون نحـــوها

بخفَّــةِ أرواح ولـينِ عـــرائك

لقـــد فقدوا غِلَّ النفـــوس وفُضِّلُوا

بعزٍّ ســـلاطين وأمْنِ صعـالك

فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما اشتهوا

وفازُوا بدار الخلْدِ رَحْبِ المبارك

عَصوْا طاعة الأجســـاد فى كل لـــذّةٍ

بنورٍ مجلٍّ ظلمةَ الغىِّ هـــــاتك

فلولا اعتـــدادُ الجســـم أيقنتَ أنهمْ

يعيشون عيْشاً مثلَ عيشِ الملائك

فيــــاربٌ قدِّمْهُم وزدْ فى صـــلاحهمْ

وصـــــلِّ عليهمْ حيثُ حلُّوا وبَارِكِ

ويانفسُ جِـدِّى لا تمـــلِّىِّ وشـمِّرِى

لنيلِ ســـــرور الدهرِ فيما هنالك

وأنتِ متى دمَّرْت سعْيَك فى الهـــوى

علِمْتِ بــــأنَّ الحقَّ ليس كـــذلك

فقد بيَّنَ اللهُ الشـــريعة للـــــورى

بأبْينَ مِن زُهْرِ النجـــومِ الشوابك

فيانفسُ جِدِّى فى خَلاصك وانفـُــذى

نفاذَ الســيوفِ المُرْهَفاتِ البواتِك

فلوْ أعملَ الناْس التفكُّر فِى الــــذى

له خُلِقُوا ما كـــان حىٌّ بِضاحِكِ

٣٠

باب فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الانسان فى حبه التعفّف ، وترْك ركوب المعصية والفاحشة ، وألاّ يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم فى دار المقامة ، وألا يعصى مولاه المتفضل عليه الذى جعله مكاناً وأهلا لأمره ونهيه ، وأرسل إليه رسله ، وجعل كلامه ثابتا لديه ، عناية منه بنا ، وإحسانا إلينا .

وإن من هام قلبه ، وشغل باله ، واشتد شوقه ، وعظم وجده ، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته ، وأن يقهر دينه ، ثم أقام العدل لنفسه حصنا ، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء ، وذكرها بعقاب الله تعالى ، وفكر فى اجترائه على خالقه وهو يراه ، وحذْرها من يوم المعاد ، والوقوف بين يدى الملك العزيز ، الشديد العقاب ، الرحمن الرحيم الذى لا يحتاج إلى بينة ، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علاّم الغيوب ، « يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاّ مَنْ أتَى اللّهَ بِقلبٍ سليم » (١) ، « يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيْرَ الأرضِ والسمواتُ » (٢) ، « يومَ تَجدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .   (٢) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بينها وبينَهُ أَمداً بعيداً » [1] ، يوم « وعَنَتِ الْوجُوهُ للحيِّ القيُّوم وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً » [2] ، يوم « وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ولا يَظْلُم رَبُّكَ أَحَداً » [3] ، يوم الطامة الكبرى ، « يوم يَتَذكَّرُ الإنسانُ ما سعَى وبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمَنْ يرى ، فأما مَنْ طغى وآثَر الحياةَ الدُّنياَ فإنَّ الجحيمَ هي المأوَى . وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّهِ ونهى النفْسَ عَنِ الهوَى فإنّ الجنَّةَ هي المأوَى » [4] ، واليوم الذى قال الله تعالى فيه : « وكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمناهُ طائِرَهُ فى عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لهُ يومَ القيامَةِ كتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً . اقرأْ كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليَوْمَ عليْكَ حَسِيباً » [5] . عندها يقول العاصى : « يا وَيْلَتَنَا ! ما لِهذا الكتابُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها » [6]

فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضى ، وطوى كشحه على أحد من السيف ، وتجرّع غصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرها عما طمعت فيه ، وتيقّنت ببلوغه ، وتهيأت له ، ولم يحل دونها حائل ، لحرّىّ أن يسرَّ غداً يوم البعث ، ويكون من المقربين فى دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع ، وأن يعوّضه اللّه من هذه القرحة الأمن يوم الحشر .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٠ . (٢) سورة طه الآية ١١١ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ٤٩ . (٤) سورة النازعات ، الآيات :٣٥ إلى٤١ .
(٥) سورة الإسراء الآيتان : ١٣ و ١٤ . (٦) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

حدثنى أبو هارون بن موسى الطبيب [١] قال : رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة ، قد تعبدّ ورفض الدنيا ، وكان له أخ فى اللّه قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله ، فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً . ونزل الشاب فى داره مع امرأته ، وكانت غاية فى الحسن ، وتِرْباً للضيف فى الصبى ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفوات الوقت ، وأن زوجها لا يمكنه المجىء تلك الليلة ، تاقت نفسها إلى ذلك الفتى ، فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا اللّه عز وجل ، فهمّ بها ثم ثاب إليه عقله ، وفكّر فى اللّه عز وجل ، فوضع إصبعه على السراج فتفقع ثم قال : يانفس ذوقى هذا ، وأين هذا من نار جهنم فهال المرأة ما رأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة فى الإنسان ، فعاد إلى الفعلة الأولى . فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار [٢] .

---

(١) لم أستطع تحديد شخصية الطبيب أبى هارون بن موسى ، ويبدو أنه يهودى ، ولم أجد له أية ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٢) هذه القصة تشبه حكاية وردت فى كتاب « حياة الآباء » لمؤلفه روزفيد ومؤداها أن راهباً مسيحياً من طيبة ، أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة إغراء من امرأة عارية .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أو ترى أن اللّه تعالى يضيع له المقام ؟ كلاّ إنه لأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدثتنى امرأة أثق بها ، أنها علقها فتى مثلها من الحسن وعلقته ، وشاع القول عليهما ، فاجتمعا يوماً خاليين فقال : هلمى نحقق ما يقال فينا ، فقالت : لا واللّه لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ قول اللّه : « الأخِلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلاَّ المتقين » (١) . قالت فما مضى قليل حتى اجتمعنا فى حلال (٢) .

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى ، أنه خلا يوماً بجارية كانت له مفاركة فى الصبى ، فتعرضت لبعض تلك المعانى فقال لها : كلا ، إنّ مِن شُكْرِ نعمة اللّه فيما منحنى من وصالك ، الذى كان أقصى آمالى ، أن أجتنب هواى لأمره ، ولعمرى إن هذا لغريب فيما خلا من الأزمان ، فكيف فى مثل هذا الزمان الذى قد ذهب خيره وأتى شره .

وما أقدّر فى هذه الأخبار - وهى صحيحة - إلاّ أحد وجهين لاشك فيهما : إمّا طبع قد مال إلى غير هذا الشأن ، واستحكمت

(١) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .
(٢) نقل داود الأنطاكى عن ابن حزم هذه القصة ، فى كتابة « تزيين الأسواق » ص ٨ .

معرفته بفضل سواه عليه ، فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ، ولا في يوم ولا يومين ، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم ، وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكنّ الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك ، نظراً لهم ، وعلماً بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح ، واستدعاء الرشد ، لا إله إلا هو .

وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت ، وخاطر تجرّد انقمعت به طوالع الشهوة في ذلك الحين ، لخير أراد عز وجل لصاحبه ، جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه . آمين .

وحدّثني أبو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء (١) ، عن رجال من بني مروان ثقات (٢) ، يسندون الحديث إلى أبي العباس الوليد بن غانم (٣) ، أنه ذكر أنّ الإمام

---

(١) أورد له الضبي في « البغية » ترجمة موجزة ، لم يزد فيها عن القول : « من أهل الأدب ، مشهور بالفضل » . الترجمة رقم ٢٢٥ .

(٢) بنو مروان ، أي أسرة بني أمية التي حكمت الأندلس ، إمارة وخلافة ، من ٧٥٥ م إلى ١٠٣١ م .

(٣) أبو العباس ، الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، من كبار رجال الدولة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ م - ٨٨٦ م) تولى له خطتي الوزارة والمدينة ، وقاد جيش الصائفة لابنه عبد الرحمن بن محمد ، وكان كاتباً مرسلاً بليغاً ، وابناه محمد وعبد الرحمن من أهل الأدب والبلاغة والشعر وقد توفي وليد في شعبان عام ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م في رواية ابن حيان ، وعام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م في رواية ابن الأبار .

عبـــد الرحمن بن الحكم [1] غاب في بعض غزواته شهوراً ، وثقف القصر بابنه محمد [2] الذى ولى الخلافة بعده ، ورتبه فى السطح ، وجعل مبيته ليلاً وقعوده نهاراً فيه ، ولم يأذن له فى الخروج ألبتة : ورتّب معه فى كل ليلة وزيراً من الوزراء ، وفتى من إكابر الفتيان ، يبيتان معه فى السطح .

قال أبو العباس : فأقام على ذلك مدة طويلة ، وبعد عهده بأهله، وهو فى سن العشرين أو نحوها ، إلى أن وافق مبيتى فى ليلتى نوبة فتى من أكابر الفتيان ، وكان صغيراً فى سنه ، وغاية فى حسن وجهه .

قال أبو العباس : فقلت فى نفسى : إنى أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعة المعصية ، وتزيين إبليس وأتباعه له ، قال : ثم أخذت مضجعى فى السطح الخارجى ، ومحمد فى السطح الداخل ، المطل على حرم أمير المؤمنين ، والفتى فى الطرف الثانى القريب من المطلع ، فظللت أرقبه ولا أغفل ، وهو يظن أنى قد نمت ، ولا يشعر باطلاعى عليه .

---

(١) أى عبد الرحمن الأوسط ، وحكم من ٨٢١ إلى ٨٥٢ م ، وهو ابن الحكم الأول ، وحكم من ٧٩٦ – ٨٢١ م ، ويعرف أحياناً باسم الحكم الربضى ، لثورة الربض التي انفجرت ضده بقيادة الفقهاء في قرطبة على أيامه .

(٢) الأمير محمد ، وسيتولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن عام ٨٥٢ . وبقى فيها حتى وفاته عام ٨٨٦ م .

قال : فلما مضى هزيع من الليل ، رأيته قد قام ، واستوى قاعداً ساعة لطيفة ، ثم تعوّذ من الشيطان ، ورجع إلى منامه . ثم قام بعد حين ، ولبس قميصه واستوفز ، ثم نزعه عن نفسه ، وعاد إلى منامه . ثم قام الثالثة ولبس قميصه ، ودلّى رجليه من السرير ، وبقى كذلك ساعة ، ثم نادى الفتى باسمه فأجابه ، فقال له انزل عن السطح ، وابق فى الفصيل الذى تحته . فقام الفتى مؤتمراً له . فلما نزل قام محمد ، وأغلق الباب من داخله ، وعاد إلى سريره .

قال أبو العباس : فعلمت من ذلك الوقت أن للّه فيه مراد خير .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور [1] ، عن أحمد بن مطرف [2]، عن عبيد اللّه ابن يحيى [3] ، عن أبيه ، عن مالك ، عن حبيب بن

---

(١) يكنى أبا عمر ، قرطبى ، مولى لبنى أمية ، أول شيخ درس عليه ابن حزم ، فى مرحلة ما بعد التعليم الأول ، وكان واسع الثقافة فى التاريخ ، حافظاً للرأى والحديث ، أديباً شاعراً صديقاً حميماً لوالد ابن حزم ، وقد درس عليه ابن حزم مادة التاريخ . وعمل ابن الجسور كاتباً للقاضى منذر بن سعيد ، وخلفه فى خطة السوق ، وكان يعقد الوثائق دون أن يتخذ من ذلك مهنة له ، وكانت وفاته فى الطاعون الذى إجتاح قرطبة ، فى منزله ببلاط مغيث ، فى قرطبة يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى القعدة ، عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م .

(٢) أحمد بن مطرف بن هانى الجهنى ، يكنى أبا عمر ، من أهل قرطبة ، كان على هدى وسنة ، مجانبا لأهل البدع ، حافظاً مجوداً للقرآن وقتل شهيداً بجبل قنليش ، عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م .

(٣) عبيد اللّه بن يحيى بن يحيى ، يكنى أبا مروان ، وسبق أن ترجمنا لأبيه يحيى بن يحيى الليثى ، فى الباب الرابع ، الهامش رقم ٢٩ ، وكان عبيد اللّه كأبيه ، رحل إلى المشرق حاجاً وتاجراً وطالباً ، وسمع ببغداد ومصر ، وكان واسع المال ، عظيم الجاه ، مشاوراً فى الأحكام .

عبد الرحمن الأنصارى ، عن حفص بن عاصم ، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : « سبعة يظلهم اللّه فى ظله يوم لاظل إلاّ ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة اللّه عز وجل ، ورجل قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى اللّه ، اجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر اللّه خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف اللّه . ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وإنِّى أذكر أنى دُعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته ، وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه ، وكان هذا سحراً . فبعد أن صليت الصبح ، وأخذت زيى طرقنى فكر ، فسنحت لى أبيات ، ومعى رجل من إخوانى فقال لى : ما هذا الإطراق ؟ فلم أجبه حتى أكملتها ، ثم كتبتها ودفعتها إليه ، وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت . ومن الأبيات :

أَراقَــــكَ حُسْنٌ غَيْبُهُ لكَ تــَأْريق
وتبريدُ وصـلٍ سـِرُّهُ فيك تَحْريقُ

وقُرْبُ مــــزارٍ يقتضِى لك فُــرْقَةً
وَشيكــاً ولولا القربُ لم يَكُ تَفْريق

ولـــذَّةُ طَعْمٍ مُعْقِبٍ لك علقمـــــاً

وصاباً وفَسْحٌ فى تضاعيفه ضيق

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار ، وإتعاب الأبدان ، وإجهاد الطاقة ، واستناد الواسع ، واستفراغ القوة فى شكر الخالق ، الذى ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها ، وامتن علينا بالعقل الذى به عرفناه ، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا التدبير الذى لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه ، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضلنا على أكثر المخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ، ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم ، وقال الله تعالى . « جزاءً بما كانوا يَعْمَلون » [1] . ورشدنا إلى سبيلها ، وأبصرنا وجه ظلها ، وجعل غاية إحسانه إلينا ، وامتنانه علينا ، حقاً من حقوقنا قبله ، ودينا لازماً له ، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التى رزقنا قواها ، وأثابنا بفضله على تفضله .

هذا كرم لا تهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيِّفه الألباب ، ومن عرف ربه ، ومقدار رضاه وسخطه ، هانت عنده اللذات الذاهبة ، والحطام الفانى ، فكيف وقد أتى من وعيـــده ما تقشعر لســـماعه

---

(١) سورة السجدة ، الآية ١٧ .

الأجساد ، وتذوب له النفوس ، وأورد علينا من عذابه مالم ينته إليه أمل ، فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ، وما الرغبة فى لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ، ولا تفنى التباعة منها ، ولا يزول الخزى عن راكبها ، وإلى كم هذا التمادى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدا بنا الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى الجنة وإما إلى نار ، ألا إن التثبط فى هذا المكان لهو الضلال المبين ، وفى ذلك أقول :

أقْصَرَ عن لَهْوِهِ وعن طَرِبِهْ
وعفَّ فى حبِّه وفى عُرُبِهْ
فليس شُرْبُ المُدام هِمَّتَهُ
ولا اقتناصُ الظباءِ مِن أربِهْ
قد آنَ للقلبِ أنْ يُفيقَ وأنْ
يُزيلَ ما قدْ عَلاهُ مِن حُجُبِهْ
ألهاهُ عمَّا عَهِدتُ يُعجِبُهُ
خيفَةُ يَوْمِ تُبْلَى السرائرُ بِهْ
يا نفسُ جدِّى وشمِّرِى ودعِى
عنكِ اتباعَ الهوَى على لَغَبِهْ
وسارِعِى فِى النجاةِ واجْتهِدِى
ساعيةً فِى الخلاصِ مِن كُرَبِهْ

عَلَّيَ أحْظَــىَ بالفـوْزِ فيــه وأَنْ
أنْجُــوَ مِن ضيقــهِ ومن لَهبهْ

يَأيُّهـاَ اللاعِـبُ المجــدُّ به الـ
ـدهرُ أمَا تَتَّقِى شــبَا نُكَبهْ

كفــاكَ مِن كلِّ مــا وُعِظْتَ بــهِ
ما قدْ أراكَ الزمــانُ مِن عَجبِهْ

دَعْ عنكَ داراً تفنَى غَضــارتُها
ومكْسَباً لاعِبــاً بِمكْتَســبهْ

لم يَضْطَرِبْ فى محلِّهــا أحــدٌ
إلاَّ نَبــاَ حــدُّهاَ بِمضْطَربهْ

مَنْ عــرفَ اللّهَ حــقَّ معــرفةٍ
لوى وحــلَّ الفؤادُ فــى رَهَبهْ

مــا مُنْقضى المُلْكِ مثــلُ خــالدِه
ولا صحــيحُ التــقَى كَمُؤْتَشِبِهْ

ولا تَقىُّ الــورَى كفــاسِقِهِمْ
وليــسَ صدقُ الكلامِ من كَذبِهْ

فــلو أَمِنَّا مِن العِقــابَ ولــم
نخشَ مــِنَ اللّهِ مُتَّقَى غَضَبِهْ

ولم نخفْ نـــارَهُ التـــى خُلِقتْ

لكل جـــانِى الكـــلامِ مُحْتقِبهْ

لكـــانَ فرْضاً لـــزومُ طـــاعتِه

وردُّ وَفْدِ الهـــوَى علَى عَقِـــبِهِ

وصحَّةُ الزهْدِ فـــى البقـــاءِ وأنْ

يلْحـــقَ تفنيـــدُناَ بِمُـــرْتقبِهْ

فقد رَأيْنـــاَ فِعْلَ الزمـــانِ بأهْـــ

ليه كفِعْلِ الشـــواظِ فى حَطَبِهْ

كم مُتْعبٍ فى الإلـــه مُهْجتَـــهُ

راحتُهُ فى الكـــريهِ من تَعَبهْ

وطالبٍ باجتهـــادِهِ زهْـــرةَ الـــ

ـدنيا عـــداهُ المَنونُ عن طَلَبهْ

ومُدْركٍ مـا ابتغـــاهُ ذِى جَـــذَلٍ

حـلَّ بهِ ما يخـــافُ من سَبَبِهْ

وبـــاحثٍ جـــاهدٍ لِبُغْيتِـــهِ

فـــإنَّما بحثُهُ علـــى عَطَبـــهْ

بَيْناَ ترَى المـــرءَ سامياً مَلِكـــاً

صـارَ إلى السُفْلِ مِن ذُرَى رُتَبهْ

كالزَّرْعِ للرجْـلِ فـوقَهُ عمـلٌ
إنْ يَنْمُ حُسْنَ النُمُوِّ في قَصَبِهْ
كم قاطعٍ نفسَهُ أسىً وشجاً
في إثْرِ جَدّ يَجِدُّ في هَرَبِهْ
أليس في ذاك زاجرٌ عَجَبٌ
يزيدُ ذا اللبِّ في حُلَى أَدَبِهْ
فكيف والنارُ للمسيء إذا
عاجَ عن المستقيمِ مِن عَقِبِهْ
ويومَ عَرْضِ الحسابِ يَفْضَحُهُ الـ
ـلَّهُ ويبدي الخفيَّ مِن رِيَبِهْ
من قد حباهُ الإلهُ رحمَتَهُ
موصولةً بالمزيدِ مِن نَشَبِهْ
فصار مِن جهلِهِ يصرِّفُها
فيما نهىَ اللّهُ عنه في كُتُبِهْ
أليس هذا أحْرَى العبادِ غداً
بالوقعِ في وَيْلِهِ وفي حَرَبِهْ
شكراً لربٍّ لطيفُ قُدْرَتِه
فينا كحبْلِ الوريدِ في كَثَبِهْ

رازِقِ أهـــلِ الزمـــانِ أجمعِهِـمْ
مَن كـــان مِن عُجْمِهِ ومنْ عُرُبِهْ
والحَمْــــدُ للّـــهِ فـــى تَفضُّـــلِه
وقَمْعِهِ للزمـــانِ فى نُـــوبِهْ
أخْدَمنَـــا الأرضَ والســـماءَ ومَنْ
فـى الجوِّ من مـــائِهِ ومِن شُهُبِهْ
فاسْمَـــعْ ودَعْ مَن عصـــاهُ ناحيـةً
لاَ يحْمِلُ الحِمْلَ غيـرُ مُحْتطِبِهْ

وأقول أيضاً :

أعــارتكَ دنيــا مُسْتَرِدٌّ مُعَــارُها
غضارةَ عيشٍ سوف يذوِى اخْضِرارُها
وهل يتمنَّى المحْكمُ الـــرأىِ عيشةً
وقد حان مِن دَهْمِ المنايا مزَارُها
وكيف تَـلذُّ العيـنُ هجعةَ ســـاعةٍ
وقد طـالَ فيما عَايَنَتْهُ اعتبارُها
وكيف تَقَرُّ النفــــسُ فى دارِ نَقْلَةٍ
قد استَيْقَنَتْ أنْ ليس فيها قرارُها
وأنَّى لها فى الأرض خـاطِرُ فكْرةٍ
ولم تدْرِ بعد المـــوتِ أين مَحَارُها

أليس لها فى السعْىِ للفوزِ شاغلٌ

أمَا فِى توقيها العذابَ ازدِجارُها

فخابت نفوسٌ قادها لهْوُ ساعةٍ

إلى حَرِّ نارٍ ليسَ يُطْفَى أوارها

لها سائقٌ حادٍ حثيثٌ مبادِرٌ

إلى غيرِ ما أضحَى إليهِ مدارُها

تُرادُ لأمْرٍ وهىَ تطلب غيرَهُ

وتقصدُ وجْهاً فى سواهُ سِفارها

أمسرعةٌ فيما يسوءُ قيامَهَا

وقد أيقنَتْ أنّ العذابَ قُصارها

تُعَطِّلُ مَفروضاً وتَغْنَى بفضْلةٍ

لقد شفَّها طُغيانُها واغترارُها

إلى ما لَهاَ مِنهُ البلاءُ سكُونُها

وعمَّا لهاَ منه النجاحُ نِفارُها

وتُعرِضُ عن ربٍّ دعاها لرشدِها

وتَتْبَعُ دنيا جَدَّ عنها فِرارها

فيا أيُّها المغرورُ بادرْ برجعةٍ

فللّهِ دارٌ ليسَ تخمُدُ نارها

ولا تتخيــــر فانيــاً دونَ خـــالدٍ
دليلٌ على محضِ العقولِ اختيارُها

أتعلمُ أنّ الحقّ فيمــا تــــركتَه
وتسـلكُ سُبْلاً ليسَ يخفَى عوَارُها

وتتــركُ بيضــاءَ المنــاهجِ ضلّةً
لبهمــاءَ يُؤذِي الرِجْلَ فيهـا عثــارُها

تَســرُّ بلهــــوٍ مُعْقبٍ بنـــدامةٍ
إذا ما انقضَى لا ينقضي مُسْتثارها

وتَفْنى الليـــالِي والمسرّاتُ كلُّها
وتبقى تبِـاعاتُ الذنـــوبِ وعارها

فهـــل أنت يامغبونُ مستيقظٌ فقدْ
تبيّنَ من سرِّ الخطـــوبِ اسـتتارُها

فعجّلْ إلى رضــوانِ ربّكَ واجتنبْ
نواهيـــهُ إذ قـدْ تجلّى منـــارهـا

يُجدُّ مرورَ الدهـــرِ عنك بـــلاعبٍ
وتُغْرَى بدنيـا ســاء فيـك سِرارهـا

فكم أمّةٍ قد غــرّها الدهــرُ قبلنا
وهاتيـــكَ منـها مقفـراتٌ ديارهـا

تذكَّرْ على ما قد مضـى واعتبر بهِ
فإنَّ المذَكِّي للعقـول اعتبـارهـا
تحامىَ ذُراهـا كلُّ باغٍ وطـالبٍ
وكان ضماناً فى الأعادِى انتصارُها
توافتْ ببطنِ الأرضِ وانشتَّ شملُها
وعادَ إلى ذى مُلْكَةٍ إستعارها
وكم راقـدٍ فى غفْلةٍ عـن منيـةٍ
مُشمِّرةٍ فى القصْدِ وهو سعارها
ومَظْلَمـةٍ قدنالهـا مُتسـلِّطٌ
مُدِلٌّ بأيْدٍ عند ذى العرْشِ ثارها
أراكَ إذا حـاولتَ دنياك ساعياً
على أنَّها بـادٍ إليكَ ازْوِرارها
وفى طاعةِ الرحمنِ يُقْعدك الـونَى
وتُبدِى أنـاةً لا يصحُّ اعتذارها
تُحاذِرُ إخوانـاً ستفنَى وتَنْقضى
وتَنْسَى التى فَرضٌ عليك حِذارها
كأنِّى أرَى منـك التبرُّمَ ظـاهراً
مُبيناً إذا الأقدارُ حلَّ اضطرارها

هناك يقول المـــرءُ من لي بأعْصُرٍ
مضتْ كان مِلْكا فى يدىَّ خِيارها
تَنَّبـــهْ ليـــومٍ قـــــد أظلَّك وردُهُ
عصيبٍ يُوافى النفسَ فيها احتضارها
تبَّرأ فيهِ منـــــك كلُّ مُخـــالِطٍ
وإنَّ مِن الآمـــــالِ فيهِ انهيارُها
فأُودِعْتَ فى ظلمـــاءَ ضَنْكٍ مَقَرُّها
يلوحُ عليهـــا للعيـونِ اغْبِرارها
تُنادَى فلا تدرى المنادىَ مُفْـــرداً
وقد حُطَّ عن وجهِ الحياةِ خِمارها
تُنـــادَى إلى يـــومٍ شـــديدٍ مُفَزِّعٍ
وساعةِ حَشْرٍ ليس يَخفَى اشتهارها
إذا حُشِـــرَتْ فيه الوحوشُ وجُمِّعَتْ
صحائفُنا وانثالَ فينـــا انتثارها
وَزُيِّنتْ الجنّـــاتُ فيـــه وأُزْلِفَتْ
وأُذكىَ من نارِ الجحيمِ استعارها
وكُوِّرتِ الشمسُ المنيـــرةُ بالضحى
وأسرَعَ من زُهْرِ النجومِ انكِدارها

لقد جلَّ أمرٌ كـــــان منه انتظامُها

وقد حــــلّ أمرٌ كان منه انتثارها

وســــيِّرتِ الأجبال والأرضُ بُدِّلتْ

وقد عُطِّلتْ من مالكيها عِشارها

فإمّا لدارٍ ليس يفنىَ نعيمهـــــا

وإمّا لــــــدارٍ لا يُفَكُّ إســــارُها

بحضــــرةِ جبّارٍ رفيقٍ مُعـــــــاقبٍ

فتُحْصىَ المعاصِي كُبْرُها وصِغارها

ويندمُ يومَ البعثِ جانِي صِغـــــارِها

وتُهْلِكُ أهليهـــــا هنــــاكَ كِبــارها

ستُغْبَطُ أجســـــادٌ وتحيا نفوسُها

إذا مـــــا استوَى إسرارُها وجِهارها

إذا حفَّهمْ عفـــــوُ الإلـــهِ وفَضْله

وأســـكنَهمُ داراً حــــــلالاً عُقارها

سيلحقُهُمْ أهلُ الفُسوقِ إذا استوَى

بحَلْبَةِ سَبْقٍ طرفُهـــــاَ وحمِــــارها

يَقُرُّ بنو الدنيــا بدنيـــــاهُمُ التى

يُظَنُّ على أهلِ الحظـــوظِ اقتصارها

هى الأمُّ خير البّر فيهـــا عُقوقُها

وليس بغيرِ البـذْلِ يُحْمَى ذِمارها

فما نال منهــــا الحظَّ إلا مُهِينُها

وما الهُلْكُ إلاّ قُرْبُها واعتمــارها

تهافتَ فيها طامعٌ بعد طــــامعٍ

وقـــد بان للُّبِّ الذكىِّ اختبارها

تَطامنْ لِغَمْرِ الحـــادثاتِ ولا تَكُنْ

لها ذا اعتمــارٍ يَجْتنيكَ غِمارها

وإيَّاكَ أن تغترَّ منهــــا بما ترَى

فقد صحَّ فى العقلِ الجلىِّ عِيارها

رأيـــتُ ملوكَ الأرضِ يبغــون عُدَّةً

ولذَّةَ نفْسٍ يسْــتطاب اجترارها

وخَلَّوْا طريقَ القصْـدِ فى مبتغاهُمُ

لمتُبِعِهِ الصِفَــارُ جَمّ صِغـارها

وإنَّ التـى يَبْغــون نَهْجَ بقيّـــةٍ

مكينٌ لطلاَّب الخَلاص اختصارها

هل العـزُّ إلاّ هِمـّةٌ صـحَّ صونُهـا

إذا صان هِمَّات الرجالِ انكسارُها

وهــــل رابـــحٌ إلاّ امــــرؤ متوكِّلٌ
قنوعٌ غنىُّ النَفْــسِ بـادٍ وقارُها
ويلقىَ ولاةُ الملكِ خَوْفاً وفـــكرةً
تَضيق بها ذرْعاً ويفنىَ اصطبارها
عِياناً نرى هذا ولكنَّ ســــكْرةً
أحاطتْ بنا ما إنْ يَفيق خُمارها
تدبَّرْ مَن البانِي على الأرضِ سقْفَهَا
وفى علمِه مَعْمورُهـــا وقفــارها
ومَنْ يُمْسكُ الأجرامَ والأرضَ أمْرهُ
بــــلا عَمَـدٍ يُبْنى عليه قرارها
ومن قدَّرَ التــــدبيرَ فيهــا بحكمةٍ
فصحٌ لديْهــــا ليلُها ونهـــارها
ومن فَتَقَ الأمـواهَ فى صفْحِ وجهِها
فمنها يُغذَّى حبُّها وثمــــــارها
ومن صيَّر الألوانَ فى نَوْر نَبْتِهـــا
فأشـــرقَ فيها وردُها وبَهَارها
فمنهنَّ مُخْضَرٌّ يــروقُ بَصيصــه
ومنهنَّ ما يغشَى اللِحاظَ احمرارها

ومن حَفَــر الأنهــارَ دون تكلُّفٍ

فثارَ من الصُمِّ الصِلابِ انفجارها

ومن رتَّبَ الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها

غُدُوًّا ويبدو بالعشــيِّ اصفرارها

ومن خلَقَ الأفلاكَ فــامتدَّ جــريُها

وأحْكمهـــا حتى استقام مَدارها

ومــنَ إنْ ألمَّــتْ بالعقــول رَزِيَّةٌ

فليس إلى حيٍّ سواه افتقارها

تَجِدْ كَل هذا راجعٌ نحــو خــالقٍ

له ملْكُهـــا مُنقــادةٌ وائتمارها

أبانَ لنا الآيـــاتِ فــى أنبيــائه

فأمكنَ بِعد العجزِ فيها اقتدارها

فأنطقَ أفـــواهاً بألفــاظِ حكْمةٍ

ومــا حلُّها إثْغــارُها واتغارها

وأبرزَ مِن صُمِّ الحجـــارةِ نــاقةً

وأسمعَهُمْ فى الحينِ منها حوارها

ليُـــــوقنَ أقـــوامٌ وتَكفُرَ عصْبَةٌ

أتاها بأسبابِ الهلاكِ قُدارها [1]

وشقَّ لموسى البحـرَ دون تكـلُّفٍ

وبانَ مِن الأمواج فيه انحسارها

وسلَّمَ مِن نارِ الأتون خَليلهُ

فلم يؤْذهِ إحـــراقُها واعتِرارها

ونَجّى من الطوفان نوحاً وقد هَدَتْ

به أمّةٌ أبـدَى الفسوقَ شرارها

ومكّنَ داودأ بـــــأيْدٍ وابنَـــــهُ

فتعسيرُهــــا مُلْقىً لهُ ويدارُها

وذلّلَ جبّـارَ البـــلادِ لأمـــرِه

وعلَّمَ مِن طَيْرِ السماءِ حوارها

وفضَّلَ بالقـــــرآنِ أمَّةَ أحْمـــدٍ

ومكَّنَ في أقصىَ البلادِ مُغارها

وشقَّ له بـــــدرَ الســماءِ وخصّهُ

بآيـــــاتِ حقٍّ لا يَخُلُّ مُعارها

(١) قدار بن سالف ، أحمر ثمود ، عاقر الناقة ، وقد أشار القرآن إلى قصتها ، وبسطت القول فيها كتب التفسير .

وأنقـــذنا من كُفْرِ أربـــابِنا بـه

وكـان على قُطْبِ الهلاكِ منارها

فما بالُنا لا نتــرك الجهــلَ ونْحَنا

لنســلَم مِن نارٍ ترامىَ شرارُها

خـــاتمة (١)

هنا أعزك الله انتهى ما تذكرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عند أمرك .

ولم أمتنع أن أورد لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها ، موفيات على وجوهها ، ومفردات في أبوابها ، ومنعمات التفسير ، مثل الإفراط في صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار ، وعدم النوم ألبتة ، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنّها أشياء لا حقيقة لها ، وكذب لا وجه له ، ولكل شيء حد ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً ، والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان في قوام الذرة أو دونها ، ولخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالي ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك . وإنما قلنا إن الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام لأن النوم غذاء الروح ، والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان في كليهما ولكنّا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البنّاء ، جارنا بقرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين في حمّارة القيظ ، ويكتفي بما في غذائه من رطوبة .

(١) العنوان ليس في الأصل ، ورأيت إضافته تزيد الأمر وضوحاً .

وحدثنى القاضى أبو عبد الرحمن بن جحّاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصــرت فى رســالتى على الحقــائق المعلومــة ، التى لا يمكن وجود سواها أصلا ، وعلى أنى قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها ، لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم .

وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم فى هذه الرسالة ، مكنياً فيها عن أسمائهم على ما شرطنا فى ابتدائها .

وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ، ويحصيه الرقيبان ، من هذا وشبهه ، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله . ولكنه إن لم يكن من اللغو الذى لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللمم المعفوّ ، وإلاّ فليس من السيئات والفواحش التى يتوقع عليها العذاب . وعلى كل حال فليس من الكبائر التى ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سينكر علىّ بعض المتعصبين علىّ تأليفى لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أُحلّ لأحد أن يظن فىّ غير ما قصدته ، قال الله عز وجل « يا أيُّها الذينَ آمنوا اجْتَنِبوُا كثيراً مِن الظنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثْم »[1] .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

وحدثنى أحمد بن محمد بن الجسور ، حدّثنا ابن أبى دَليم ، حدّثنا ابن وضّاح ، عن يحيى بن يحيى ، عن مالك بن أبى أنس ، عن أبى الزبير المكى، عن أبى شريح الكعبى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والظن فإنه أكذب الكذب » .

وبه إلى مالك ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وحدثنى صاحبى أبو بكر محمد بن إسحاق ، حدّثنا عبد الله بن يوسف الأزدى ، حدّثنا يحيى بن عائذ ، حدّثنا أبو عدى عبد العزيز ابن على بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ، حدّثنا أبو على الحسن بن قاسم بن دُحيم المصرى ، حدّثنا محمد بن زكريا العلائى ، حدّثنا أبو العباس ، حدّثنا أبو بكر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشرة كلمة من الحكمة ، منها : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك على ما يغلبك عليه .

ولا تظن بكلمة خرجت من فى امرىء مسلم شراً ، وأنت تجد لها فى الخير محملا ، فهذا أعزك الله أدب الله ، وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأدب أمير المؤمنين ، وبالجملة فإنى لا أقول بالمراياة ، ولا أنسك نسكاً أعجمياً . ومن أدّى الفرائض المأمور بها ، واجتنب

المحارم المنهيّ عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعني مما سوى ذلك ، وحسبي الله .

والكلام في مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع ، وفراغ القلب ، وإن حفظ شيء ، وبقاء رسم ، وتذكّر فائت لمثل خاطري ، لعجب على ما مضى ودهمني . فأنت تعلم أن ذهني متقلب ، وبالي مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان ، وتغيّر الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغيّر الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدّل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر في صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقـدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعـادنا إلى أفضل ما عودنا . وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ ، والذي ترك أعظم من الذي تحيّف ، ومواهبه المحيطة بنا ، ونعمـه التي غمرتنا لا تحـد ، ولا يؤدي شـكرها ، والكلُّ منحهُ وعطاياه . ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى معيرها ، وله الحمد أولاً وآخراً ، وعوداً وبدءاً ، وأنا أقول :

جعلتُ اليأسَ لي حِصْناً ودِرْعاً فلم ألبسْ ثِيابَ المسـتضام
وأكثرُ مِن جميعِ النـاسِ عندِي يسـيرٌ صانني دُون الأنام

إذا ما صحَّ لِى دينى وعِرْضى فلستُ لما تولَّى ذا اهتمــام
تولَّى الأمسُ والغدُ لستُ أدرِى أأدْرِكُهُ ففيما ذا اغتمـــــام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين ، الحامدين الذاكرين ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

كملت الرسالة ، المعروفة بطوق الحمامة ، لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم رضى الله عنه ، بعد حذف أكثر أشعارها ، وإبقاء العيون منها ، تحسيناً لها ، وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلاً لوجدان المعانى الغريبة من لفظها ، بحمد الله تعالى وعونه ، وحسن توفيقه . وفرغ من نسخها مستهل رجب الفــرد سنة ثمان وثلاثين وســبعمائة (= ١٣٣٨ م) ، والحمــد لله رب العـــالمين .

● ملحق

ابن حزم يبكى ديارهم فى قرطبة

● نص المرثية كما أورده ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام ، فى من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام » ، ونشره ليفى بروفنسال بعنوان : « تاريخ إسبانيا الإسلامية » الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ويشغل النص الصفحات ١٠٦ - ١٠٨ .

قـال :

« وممن رثى قرطبة أيضا من وجوه أهلها ، وأرباب النِّعم المؤثّلة بها ، وأكثر التفجّع على دياره منها ، لما استولى الخرابُ عليها عند فرار البرابر عنها ، الفقيه الأديب أبو محمدٍ عليُّ بنُ أحمد بن سعيد بن حزم ، ابن وزير آل عامر الأكبر ، فإنى وجدت بخطّه فى خبر ذكره قال :

« وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض

الغربية ، ومنازلِ البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد محت رسومُها ، وطمستْ أعلامُها ، وخفيتْ معاهدُها ، وغيّرها البلى، فصارتْ صحاريَ مجدبةً بعد العمران ، وفيافي موحشةً بعد الأنس ، وآكاماً مشوّهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، وملاعب للجان ، ومغانيَ للغيلان ، ومكامن للوحوش ، ومخابيَ للصوص ، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، تفيض لديهم النعم الفاشية وتغصُّ منهم بكثرة القطين الحاشيةُ ، وتُكَنِّسر في مقاصيرهم ظباء الأنس الفاتنة ، تحت زِبْرِجٍ من غضارة الدنيا تذكِّر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة ، فبدَّد شملهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبا ، تنطق عنهم الموعظة .

فكأنّ تلك المحاريبَ المنمّقة ، والمقاصيرَ الموشّقة ، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة ، يقيِّد حسنُها الأبصارَ ، ويجلي منظرُها الهموم ، كأنْ لم تغن بالأمس ، ولا حلَّها سادةُ الأنس: قد عبث بها الخرابُ ، وعمَّها الهدم ، فأصبحتْ أوحشَ من أفواهِ السباعِ فاغرةً ، تؤذِّن بفناء الدنيا ، وتريك عواقبَ أهلها ، وتخبركَ عما يصير إليه كل ما قد بقي ماثلاً فيها وتُزهِّدك فيها .

وكررتُ النظر ، ورددتُ البصر ، وكدتُ أستطارُ حزناً عليها ،

---

(١) انظر ص ١٢٦ من هذا الكتاب ، وقارنه بما ورد هنا .

وتذكرتُ أيام نشأتي فيها ، وصبابة لداتي بها ، مع كواعبَ غيدٍ ، إلى مثلهن يصبو الحليم ، ومثّلتُ لنفسي انطواءهنّ بالفناء ، وكونهن تحت الثرى ، إثْر تقطّع جمعنا بالتفرق والجلاء في الآفاق النائية ، والنواحي البعيدة ، وصدّقت نفسي عن فناء تلك القصبة ، وانصداع تلك البيضة ، بعد ما عهدته من حسنها ونضارتها وزِبْرجِها وغضارتها ، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة ، والمرتبة الرفيعة ، التي رفلتُ في حللها ناشئاً فيها ، وأرعْيتُ سمعي صوتَ الصدى ، والبومَ زاقياً بها ، بعد حركات تلك المنصدعة بعرصاتها ، التي كان ليلها تبعا لنهارها ، وفي انتشارها بسكانها ، والتقاء عُمّارها ، فعاد نهارها تبعا لليلها في الهدوء والاستيحاش ، والخفوت والإخفاش ، فأبكى عيني على جمودها ، وقرع كبدي على صلابتها ، وهــاج بلابلي على تكاثرها ، وحرّكني للقول على نبوٍّ طبعي ، فقلت :

(الطويل)

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنـــا وغودرتْ
خلاءً من الأهلين موحشةً قَفْرَا

تــراها كأنْ لم تغنَ بالامس بلْقَعاً
ولا عمرتْ من أهلها قبلنا دَهْرا

فيــادارُ لم يُقْفرك مِنّا اختيــارُنا
ولو أنّنا نختـــــار كنتِ لنا قَبْرا
ولكنّ أقـــداراً من اللّـــه أنْفـدتْ
تدمُّرنـــــا طوعاً لما حلّ أو قَهْرا
ويا خيـــر دارٍ قد تُركتِ حميـــدةً
سَقَتْكِ الغوادي ما أجلُّ وما أسْرَا
ويا مُجْتَلىً تلك البســـــاتين حَفُّها
ريــاضٌ قواريرٌ غدتْ بعدنا غبْرا
ويا دهـــرُ بلِّغْ ســـاكنيها تحيّتي
ولو ساكنوا المروَيْنِ أو جاوزوا النهرا
فصبراً لسطو الدهـرِ فيهم وحكْمِه
وإن كان طَعْمُ الصبرِ مستثقلا مُرّاً
لئن كان أظمانا فقد طال ما سَقَى
وإنْ ســـاءنا فيها فقد طالما سرّاً
وأيتها الــــدارُ الحبيبــــة لا يَرُم
ربوعك جو المزْنِ يهمى بها القطرا
كأنك لم يســـكُنْك غيدُ أوانـــــسٌ
وصيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجم الزهرا

تفـانَوْا وبادوا واسـتمرَّتْ نواهُمُ

لمثلهم أسـكبت مقلتي العبرا

سنصبرُ بعد اليُسْر للعسرِ طـاعةً

لعلَّ جميلَ الصبرِ يُعقبنا يُسْرا

وإنيَّ ولو عـادتْ وعُـدْنا لِعَهْدنا

فكيف بِمَنْ مِن هلها سكن القبرا

ويا دهـرَنا فيها متى أنت عـائدٌ

فنحمدُ منك العودَ إن عُدْتَ والكرَّا

فياربَّ يـومٍ في ذراهـا وليلةٍ

وصلنَا هناك الشمسَ باللهوِ والبدرا

فواجسميَ المضنَى وواقلبيَ المغرى

وواَنَفْسِيَ الثكلى وواكبدي الحرَّا

وياهَمُّ ما أعدى ويا شجوِ ما أبرا

ويا وَجْدُ ما أشجى ويا بَيْنُ ما أفْرا

ويا دهرُ لا تبعُدْ ويا عهدُ لا تُحـلْ

ويا دمـعُ لا تجمَدْ ويا سقم لا تبرا

سأندبُ ذاك العَهْدَ ما قامتْ الخضرا

على الناس سقفًـا واستقلتْ بنا الغبرا

فهرس الكتاب

صفحة

رقم الإيداع : ٣٤٩٢ / ١٩٩٢
I . S . B . N
977 - 07 - 0766 - 7

روايات الهلال تقدم :

هاتف المغيب

بقلم

جمال الغيطانى

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٢

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

هـذا الـكـتـاب

مع إطلالة نسمات الربيع الرقيقة تتفتح الأزهار ، وتتلألأ الطبيعة بصفائها ، وتتهيأ النفوس للاستمتاع بالقراءة ، وما أجمل القراءة فى كتب التراث التى تسجل لنا عالماً حسياً نابضاً بتجارب الأمم ...

وكتاب «طوق الحمامة» من المخطوطات النادرة التى ظلت مجهولة قرابة مائة وخمسة وسبعين عاما ..

وهو كتاب نادر وخلق أدبى رفيع يحمل فى طياته ثقافة علمية أصيلة ، وهو فى كل صفحة ، ووراء كل خبر ، يثير عددا من القضايا المهمة والخطيرة .

والكتاب سيرة ذاتية يحكى لنا الجانب العاطفى من حياة «ابن حزم» ويصور لنا الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ممن شغلوا مناصب رفيعة فى الإدارة والقضاء والجيش على أيامه.

و «طوق الحمامة» أروع كتاب درس الحب فى العصر الوسيط فى الشرق والغرب ، وأنسب كتاب للقراءة والاستمتاع فى فصل الربيع .

ولما كانت الطبعة التى تقدمها دار الهلال تستهدف القارئ المتذوق من كل طبقات المجتمع ، والحديث عن الحب لذيذ وممتع للفتى والفتاة ، ولمن امتدت به السنون من الرجال والنساء ، فقد خففنا كثيراً من هوامش الكتاب التى تعنى الباحثين وحدهم .

الاشتراكات

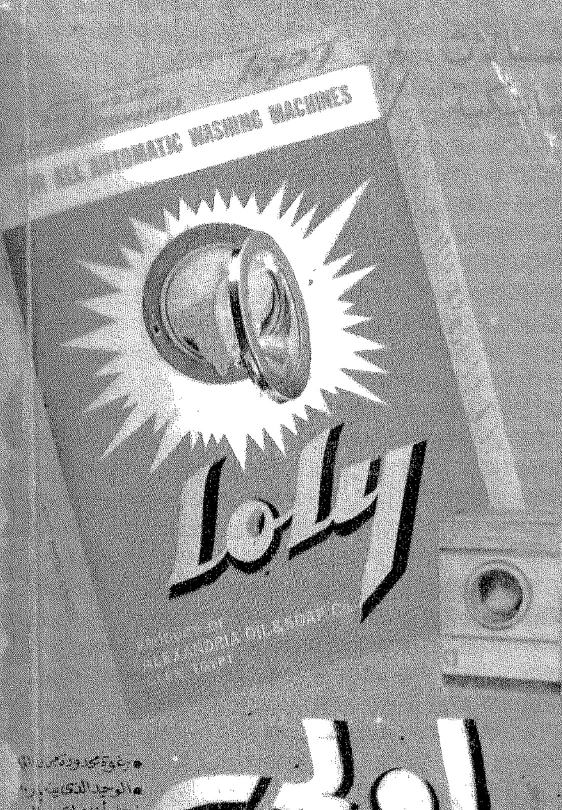
قيمة الاشتراك السنوى ٢١ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠٠ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N


AUTOMATIC WASHING MACHINES
ALEXANDRIA OIL & SOAP CO.